حَامِد النّاظِر

رواية

نُبُوءة السّقّا

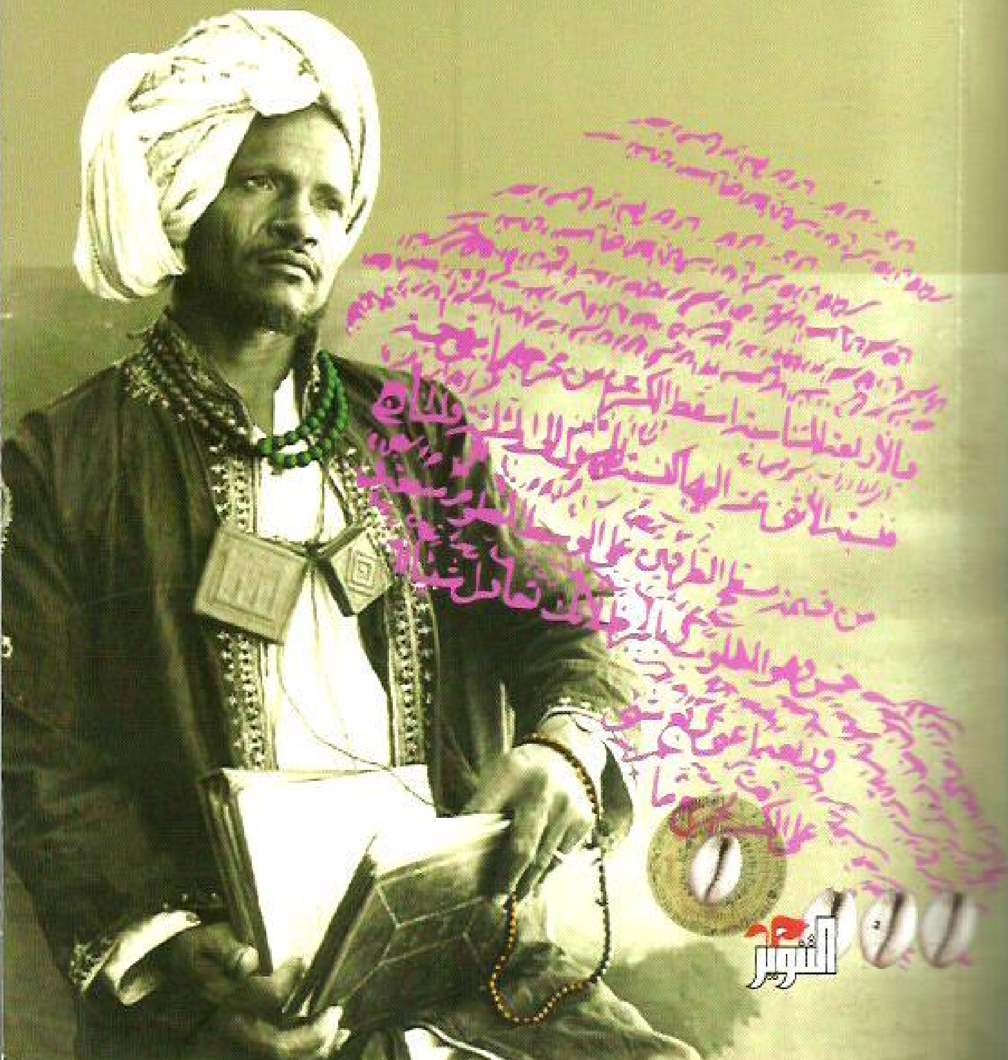

التنوير

المرتضى
لكتب السودانية

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

حامد الناظر

نبوءة السقا

رواية

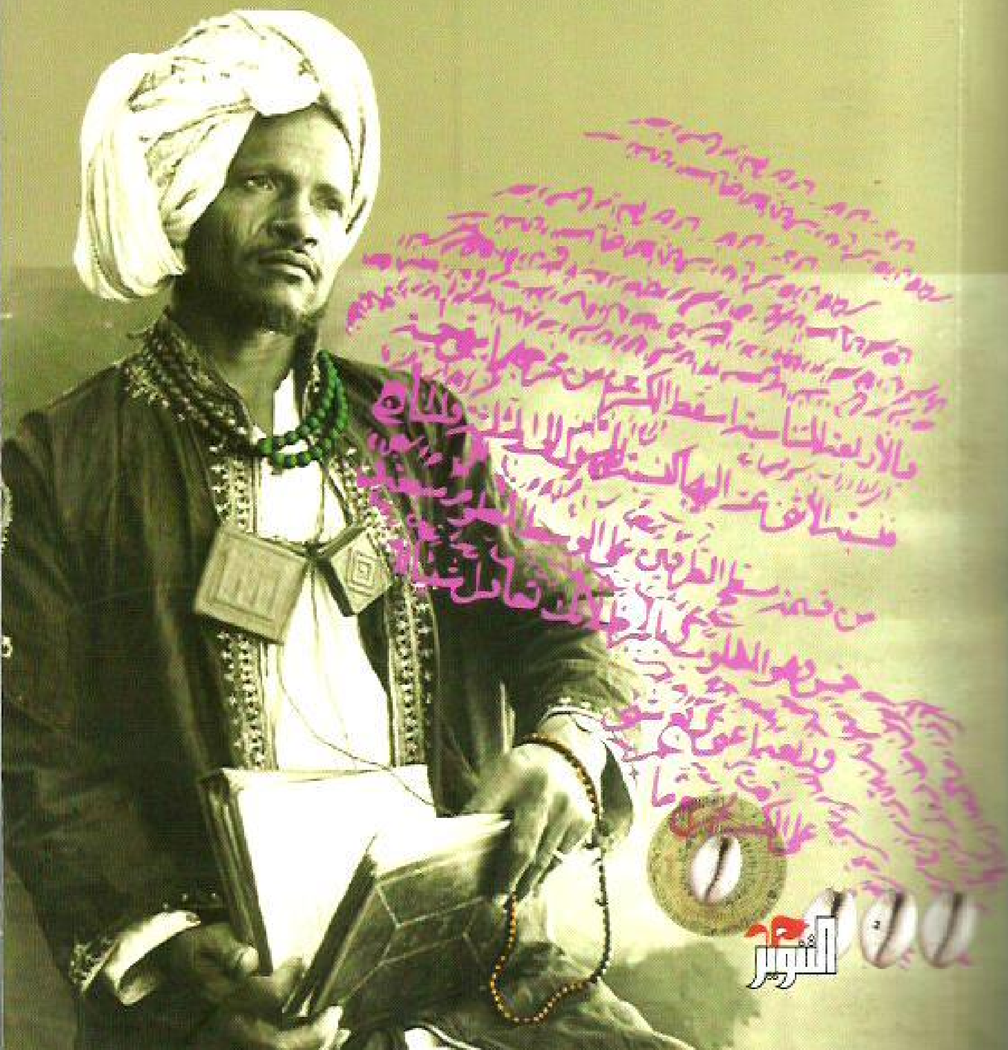

حامد النّاظر

نبوءةُ السقّا

رواية

الكتاب: نبوءةُ السقّا / رواية

المؤلف: حامد النّاظر

عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-67-2

رقم الناشر: 2015/425-75

الطبعة الأولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير ©

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم

سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

حامد النّاظر

نبوءةُ السقّا

رواية

الإهداء

إلى جدتي، حليمة إدريس..

ينبوعِ الحكايا الذي جفّ مع الموت، ها أنذا أرشّ عليه بعضَ الماء..

وإلى الفنان العظيم، إدريس محمد عَلِي..

أيقونة الثورة والحريّة، لعلّك تسامحنا إن كُنتَ حيًا أو ميّتاً..

كل أسماء الأشخاص والقبائل والأحداث في هذه الرواية من وحي خيال الكاتب ولا صلة لها بالواقع، وأيٌّ تشابه يطرأ هنا أو هناك إنما هو من قبيل المصادفة المحضة..

وما ذِكر بعض الوقائع التاريخية وأسماء المدن إلّا لضرورة فرضها الفضاء الزمني والفضاء المكاني اللذان تحركت فيهما أحداث الرواية..

المؤلف

الفصل الأول

(1)

- «يا أولادَ الأَمَة!

كان العم أبوعلي يُكركِرُ ذلك الصباح بصوتٍ يشبه صوت بعيرٍ هَرِم. فبعد ما يزيد على ألف سنةٍ من الخضوع التام، قررت بعض العائلات المسترَقَّة الخروج من تحت عباءة سادتها، وأعلنت أمام الملأ رغبتها في تأسيس كيانها الخاص بها، وطلبت من الحكومة أن توافق على تسمية «فرج السّقا» ناظرًا عليها.

طاف الخبر أرجاء «عجايب» والقرى التي حولها، فاندفعت الحشود إلى الساحة من كلا الفريقين. ومع طلوع الشمس كان قد اجتمع في الساحة خَلقٌ عظيم..

- يمكنكم أن تنادونا بـ «الأحفاد»..

هكذا قال فرج السّقا بنبرةٍ واثقة، وقد وقف في وسط الجمع متكئاً على عصاه، ونظرُه نحو الأفق. تصاعد هتافٌ صاخبٌ متداخلٌ، وثارت في المكان فوضى كبيرة. دخل العم أبوعلي إلى وسط الدائرة الواسعة.

وقف على ساقيه بصعوبة. مطّ ظهره الأحدب، ثم أشار بعصاه المعقوفة ليترك له الجميع ساحة المبارزة، بمن فيهم الناظر محمد..

- أحفاد من؟

- الأحفاد وكفى!

- لا بد للأحفاد من أسلاف، هل يَنبتُ الناس فجأةً من العدم؟

- هذا شيئ يخصُّنا، إن لم تتراضوا معنا على هذه الرغبة ستجبركم عليها الحكومة!

- ابحثوا لكم عن أرضٍ غير هذه الأرض إذن..

- هي أرضنا كما هي أرضكم.

أكثر ما أغاظ العم أبوعلي وجعله يبرطم بكلامٍ غير مفهوم، هي هذه النبرة، نبرة التحدي التي لم يألفها منهم طوال سِنيّه التي ناهزت التسعين، وكأنّ كلّ ما مرَّ خلالها، كان وَهماً..

«الأوتاد تصرّفوا كما لو أن الأمر فاجأهم، لكن الحقيقة لم تكن كذلك. كانت الاجتماعات تنعقد وتنفضّ منذ أشهر، من خلف ظهر عجايب ومن بين يديها، وكانت الترتيبات تعَدّ وتتحسّب لكل شيئ، وكانت الأدوار موزَّعة بدقَّة حتى لا يقعَ ما ليس في الحسبان..

لقد انتظروا هذه الفرصة قروناً طويلة. تنبّأ بها أسلافهم وأسَرّوا بها لأولادهم وأحفادهم من بعدهم لكن تلك الفرصة لم تَحِنْ. عاشوا على هامش الحياة بلا عنوانٍ، بلا هوية، في انتظار الخلاص. لكنّ نبيَّ الخلاص تأخَّر..

كانوا مُذ لاحتْ علاماته الكبرى على قناعة أن قفزةً كهذه لا تتحقق لأمثالهم متى شاءوا، إنما تصنعها الطبيعة، كالأسطورة، كالمعجزة، مرةً في التاريخ!».

(2)

قبل هذا الإعلان بنحو عامٍ تقريبًا، كانت أم فاطمة قد أرسلت ابنتها بإبريق عسلٍ أبيض كانت الحاجة خديجة قد طلبته منها منذ أشهر، وكلّفت أمُّ فاطمة بعد ذلك أحدَ أقاربها، الذي تعرفه الحاجة خديجة، ليجلبه لها من أعالي الحبشة حيث يذهب من أجل التجارة، وألحّت عليه في الطلب..

عندما دخلت فاطمة كانت تُعقد جلسة قهوة في في بيت الحاجة خديجة زوجة التاجر حاج حامد بقيت تفاصيلها في ذهن فاطمة كما حدثت تمامًا. كنَّ ثلاثةً من النسوة عند الحاجة خديجة، تَراهُنّ فاطمة لأول مرة، يجلسن أمام عرّافة خمسينية، ضامرة، لها وجهٌ نحيلٌ كوجه معزة. العرّافة جالسة على الأرض، ومنهمكة في رمي بعض الوَدَع الأبيض على سجادة حمراء عريضة.

دخلت فاطمة فرفعت العرّافة رأسها لتلقي عليها نظرةً قصيرة عابرة، لكن ما إن همّت بخفض بصرها حتى رفعته في وجهها من جديد. ضيّقت عينيها وهي تغزرها بنظرة مدقّقة ثم شهقتْ شهقةً مكتومة..

ارتبكت فاطمة من تلك النظرة، فتراجعت الى الخلف وجلست بعيدًا، إلى جوار الخادمة القصيرة البدينة التي كانت تعدّ قهوة على نارٍ صغيرة في طرف البهو الواسع. كانت تلقي بطرف عينها نظرات على النسوة المشرفات على العرّافة من مقاعدهنّ العالية. وكانت العرافة تتحدث إلى إحداهنّ، وتناديها بأم الأمين..

- الأمين طالعه خير يا أم الخير، أراه الآن أمامي بوضوح، هاتان الوَدَعتان النافرتان إلى الأمام كما ترِيْن، تقولان إنه سيسافر بعيداً..

نظرت إليها المرأة بشغف..

- سيعبر برفقة واحد من أصحابه ثلاثة بحورٍ واسعة، إلى أرضٍ كلها أنوار وبيوتٌ عالية، يتحدث أهلها بلسانٍ راطنٍ غير لساننا. صمتت للحظات تتأمّل الوَدَع ثم أضافت: سيواجه بعض المتاعب لكنه سينتصر..

جمعت العرّافة وَدَعاتها في كفّها من جديد وهي تُصدرُ صوتها الأجوف، المقلق، بتناغمٍ مع خشخشة أساورها العاجية الباهتة، ثم رمتها مرةً أخرى فنفرت ودَعتان كما حدث في المرة الأولى..

- هل رأيتِ؟ هاتان الوَدَعتان بالذات لا تكذبان، انظري الوضع نفسه يتكرر!

ضربتْ المرأة بكفّها على صدرها فَزِعة:

- وأنا، وأرض أبيه، ومريم بنت أختي، لمن سيترك كل هذا؟

- سيزيد فوق الخير خيراً من وراء البحار، إبنك مبارك..

ألحّت عليها أن ترمي مرةً ثالثة ففعلت، وحدث ما حدث في المرتين الفائتتين. عندئذٍ هبّت المرأة واقفة، تضرب على صدرها من جديد وتُولْول. خفت إليها النسوة الباقيات يُهدّئْن من روعها. وقالت لها الحاجة خديجة وهي تمسك بكتفيها لتعيدها إلى مجلسها..

- نحن نُسلّي أنفسنا ليس إلّا، وحّدي الله يا أم الأمين..

أشارت الحاجّة خديجة إلى الخادمة أن تأتيها بالماء، فغسلتْ أم الخير وجهها وشربت، ثم جلستْ وحدها في سريرٍ مقابل تهمهمُ بخفوت، بكلامٍ لم يكن يُسمع وكأنما هي تتحدث إلى شخصٍ لا يُرى. ابتسمت العرافة وقد عَوَجت فمها، ثم انشغلت بطوالع النسوة الأخريات، وطوالع أزواجهنّ وأبنائهن وبناتهن. ظلّت فاطمة تتأملها

مبهورة، خائفة. فكرت أن تسألها شيئًا، أن تطلب منها أن ترى لها طالعها، متى تتزوج؟ وماذا تخبئُ لها أيامها المقبلة.

انتصبت أمامها صورة محمود الذي قيل إنه مات في الحرب ضد الاحتلال منذ ثلاثة أعوام، إنّما أحدًا من رفاقه لم يرَ جثته أو يعرف أين تمّ دفنه. فكّرت أن تسألها عنه، لعلها تعلم شيئاً، أو تدلّها صدفاتها الرنانة على شيءٍ يخفف من حيرتها. لكنها استحَتْ، بل خافت لأن العرّافة استمرّت تحدجها بنظراتها بين حين وآخر. وفضّلت أن تراقب المشهد، حتى قطعت عليها الخادمة سيل أفكارها وهي تتقدّم نحوها بصينية القهوة لتأخذ فنجانها، بعد أن دارت على الجميع..

جمعت العرافة وَدَعاتها في كفها من جديد. رمتها مرتين متتاليتين وابتسمت وهي تنظر إلى الحاجة خديجة، ثم رمتها في المرة الثالثة، فاتخذت شكل الصليب، واحدةٌ في الوسط تمامًا والبقية حولها في الاتجاهات الأربعة. ظلّت تتأملها لبرهة، ورفعت رأسها إلى الحاجة خديجة:

- أبشّرك بالخير يا خديجة، حاج حامد خيره كثير هذا العام، طالعه مفتوح، وستبقى أبوابه الأربعة مفتوحة بالخير والربح. ربما تتعبه رجلاه قليلاً لكنهما لن تؤخراه عن شيء..

ابتسمت الحاجة خديجة، ثم أخرجت من بين ثدييها الكبيرين صرّة من النقود ودفعتها إلى حجر العرّافة. وتبعتها النسوة الأخريات فرَمَت كلّ منهن بعض النقود على سجّادة العرّافة. لكن وجه العرافة المجعّد تغيّر فجأة وهي ترمي فاطمة بنظرات غريبة. عدّلت من جلستها ثم انكفأت على وَدَعاتها، تجمعها وتطرحها على السجادة، حتى استقرت بعد محاولاتٍ عدة على وضعٍ غريب. التفتت إلى فاطمة وقالت بحدّة:

- وأنتِ، يا جالبة العسل، ما اسمك وما اسم أمك؟

ارتبكت فاطمة، وكاد فنجان القهوة يسقط من يدها، فصرخت فيها العرافة مجددًا:

- أنت يا فتاة، ما اسمك..

ردّت بصوتٍ خفيضٍ مرتعش: فاطمة.

رمت صدفاتها من جديد:

- وما اسم أمك؟

- تكلمي..

- راية.. اسمها راية

قالت الفتاة بخوف..

(3)

عصر الجمعة، في صالون فرج السقّا، جلس رجلٌ مُهم، يلبس بدلة سفاري رمادية لامعة. كان يداعب في لامبالاةٍ مصطنعة حواف شاربه الصغير بيده اليسرى ويجول بنظره في السقف الواطئ من خلف نظارته السوداء الكبيرة التي تغطي نصف وجهه..

اقتصر الحضور المحدود من حوله على فرج السقّا وثلاثة من كبار الأحفاد بينهم العجوز بخيت الذي يجلس إلى يساره. كانوا جالسين فوق سريرٍ خشبي عالٍ يشبه دكةً كبيرةً فُرشت بملاحف حال لونها وبُسطٍ بدوية مخططة باللونين الأسود والأبيض على قاعدة حمراء قانية متربة. ثلاثتهم يضعون عمائم بيضاء وشالاتٍ مطرَّزة بخيوط خضراء وحمراء وزرقاء في أطرافها، وتفوح منهم رائحة عطور عتيقة مزعجة، وكانوا ينادون الرجل المهم بـ«حضرة المأمور».

أما على يمين «المأمور» فجلس رجلٌ طاعنٌ في السن ضعيف النظر، سائل الأنف ودامع العينين باستمرار. كان يخفي في يده منديلاً متّسخًا، يمرره على عينيه المكحولتين المطفأتين مرةً، وعلى أنفه السائل مرةً أخرى. عرّفه إليهم المأمور على أنه عمُّه الوحيد. وعلى يمين العجوز شاب ثلاثيني يرتدي بدلة سفاري زرقاء داكنة ويضع على حجره حقيبة صغيرة. إنه مدير مكتب المأمور، كما جرى تعريفه للحاضرين.

أمام هؤلاء، على يسار المجلس، جلس «حرّاس الكنز» أخوة فاطمة الثلاثة، جلسوا بالترتيب سالم وسلمان وسليمان. عمائمهم ملقاة على أكتافهم، وأيديهم الممدودة إلى الأمام تستند على عصيّهم المنتصبة بين أرجلهم، بينما كان صَبيّان من أبناء فرج السقّا يطوفان على الحاضرين بالكعك والحلوى والمشروبات الباردة في الصالون الكبير العابق برائحة البخور..

تبادلوا لبضعة دقائق حديثًا حول الطقس والزراعة وأسعار الأرض والقمح، وعن تأثير أخبار الحرب المندلعة بين الحكومة والثوار منذ ستة أعوام. وَكان المأمور حريصًا على التقليل من تأثيرها على تغيير الوضع في البلاد، بل ووصفها بأنها عمل متهوِّر معزول لا طائل من استمراره، فبقاء إريتريا كإقليم ضمن أثيوبيا الكبرى أفضل من استقلالها من دون وجود قوّة مؤهّلة للحكم ومن دون موارد.. لم يكونوا يناقشونه في ذلك الأمر، بل كانوا يستمعون فقط..

ثم بعد فترة صمت قصيرة، اعتدل الرجل الكبير -الدامع العينين- في جلسته وأخذ الحديث بالنيابة عن المأمور، يطلب له يد فاطمة بوقار شديد. كانت الكلمات تخرج من حلقه بطيئة مرتعشة وهو

مطرقٌ إلى الأرض الحجرية. امتدح لهم ابن أخيه ونسَبه وصيته وبلاءَه خلال سنوات الحرب بين الإنجليز والإيطاليين كمقاتل في صفوف الحلفاء. وأثنى أيضًا على أهل فاطمة، كما تقتضي الأصول، لكن بكلمات مقتضبة، ثم دلف إلى موضوع خطبتها من ابن أخيه ببعض العبارات الدينية المسكوكة..

أنصتوا إليه باحترام كبير ثم تحدث فرج السقّا فقال بضع كلمات مديح ومجاملة انتهت بتسلّم ظرف من المأمور، سلّمه بدوره إلى سالم الأخ الأكبر لفاطمة. بعدها قاموا جميعاً يهنئون بعضهم بعضًا.

كان الخبر قد وصل إلى الجانب الآخر لحظة حدوثه، إذ كان زعماء الأوتاد وبعض عواجيز عجايب جالسين جلستهم الأسبوعية على بُسُطٍ كبيرة رحبة أمام دار الناظر محمد. فقد كانوا يؤدّون صلاة العصر في المسجد ثم يفيضون إلى الساحة الواسعة أمام بيت الناظر كما اعتادوا عصر كل جمعة منذ أمدٍ بعيد. يتحلّقون في خشوع، وينشدون بالطبول بعض المديح الصوفي والمَوْلديّات النبوية بمواجدها وهسيسها الذي تقشعرُّ له الأرواح. يفعلون ذلك حتى يؤذّن لصلاة المغرب، فيقومون إليها خفافاً أصفياء. كان الشيخ أحمد يستهلّ الإنشاد بصوته الرخيم، ثم يتناوبون على أدائها إما مما حفظوه في صدورهم، أو من بعض الكتب الصفراء القديمة التي يتوزّعونها مع بدء كل حضرة..

أثناء ذلك، لا ينقطع الدرويش سَريراي عن الطواف بمجمر بخور كبير، والقفز والدوران في قلب الدائرة الواسعة بجسده الضئيل وصوته النحيل الأخرق ورايته البيضاء المهترئة وطبله الرنّان. يتبعه

المريدون والهائمون في نشاط متصاعد. فكلما ارتقوا درجةً اشرأبّت نفوسهم في العشق درجات. وكلما انطلقت أصواتُهم أكثر غابت أرواحهم في انجذابٍ سماوي يأخذها في مدارج السالكين..

غالبًا ما كان يتجمع حول الحضرة فقراء بائسون، بجلابيب ممزقة حال لونها حتى صار بلون الأرض. يأتون من الشعاب القريبة، وأغلب هؤلاء يقصدون الحضرة للمطعم، وكلما دغدغت أنوفهم رائحة الزلابية المقلية والشاي بالحليب الطازج، زادت حرارة إيقاعهم وعلا ترديدهم. فلكلٍّ غايته التي تدفعه إلى هذه الحضرة الراتبة..

كان زعماء الأحفاد غائبين، ليس هذه الجمعة وحسب، وإنما لأشهر طافت. فبدل حضور هذه الحضرة الراتبة صاروا يعقدون اجتماعهم الأسبوعي لمناقشة أحوالهم، وفي هذه الجمعة بالذات شغلهم ما سيشغلهم لعامٍ قادم. ولعلّ الأوتاد -في حضرتهم تلك- أدركوا بعض ذلك، فكانَ انتباههم مشتتاً، وأرواحهم ثقيلة، مشغولة بما يدور حولها، غير قادرة على الارتقاء حتى الغياب. الكتب الصفراء الملقاة بين أرجلهم مثل الأطباق الفارغة كانت شاهدةً على عُسر ذوبانهم. ما إن يبدأوا أنشودةً حتى يرتبكوا في أدائها فيتركوها إلى غيرها، لكنها تستعصي بمجرد أن يصلوا إلى النقطة التي يصعدون بعدها. يصعد بينهم صوتٌ وحيدٌ، فلا يلقى صدى في الأصوات الأخرى التي تتركه غريبًا معلقاً في الفراغ..

تركوا الأمر أخيرًا للشيخ أحمد ولصوته الذي بدا اليوم مشنوقا يابسًا. ينشدُ فيردّدون خلفه بلا حمية، ينقر على الطبل فيسخنون قليلاً ثم يبردون. ولعلّ ما زاد أمرهم سوءًا أن الدرويش سريراي -وعلى

غير عادته- كان ساكنًا، مثل ضيفٍ غريبٍ حلّ بينهم بغتة، جالسًا وركبتاه إلى صدره ويداه تحيطان بهما وفي إحداهما مسبحة طويلة تدور بين أصابعه ببطء، ووجهه ساهمٌ شارد. كان مثلهم تماماً، حتى أن محاولات الشيخ أحمد لم تفلح في نزعه إلى قلب الدائرة الساكنة كسكونه المريب، لعله ينفث فيها طاقة جديدة..

فترت هممُ الشيوخ قبل أوانها، فوضعوا الطبول جانبًا وانتظروا المداولات بشأن أحوال البلد، والتي ستعرّج بهم حتمًا إلى مناقشة ما يجري في بيت السقّا. جيئ بالشاي والزلابية، فانشغل فقراؤهم عنهم حتى جاءوا على كل شيئ ثم غادروا واحدًا بعد الآخر يلعقون أصابعهم أو يمسحونها على مؤخراتهم وأطراف أثوابهم المتسخة..

مع هدوء الساحة ظهرت ثلاث سيارات من نوع «فيات ١٢٤» مسرعة من الشارع العريض الذي يفصل بين دارَيْ الناظر، كانت قادمة من أسفل الطريق. توقفت السيارات فجأةً في طرف الساحة أمام الجمع. انقشع الغبار ونزل منها المأمور ورهطه، واتجهوا مباشرة إلى حيث يجلس الناظر محمد. تبادلوا سلامًا باردًا مقتضبًا ثم جلسوا..

جيئ بالماء والشاي والزلابية فاعتذروا. اعتدل الناظر في جلسته، ومثلُه فعل حاج حامد والعم أبوعلي والشيخ أحمد والآخرون، وانصبّ اهتمامهم على الضيف الكبير..

- لعله خيرًا حضرة المأمور، لم تبلغونا بمجيئكم وإلا كنا في طليعة المستقبلين..

قال الناظر محمد بخبث. إرتبك المأمور قليلاً، لكنه أخفى ارتباكه بتعديل هيئته وجلسته غير المريحة فوق الحصير الجاف..

- كنا في زيارة عائلية لبعض أهلنا هنا ولم نرد إزعاجكم..

ابتسم الناظر وصمتَ قليلاً، مطرقاً إلى الأرض. ثم رفع بصره في وجه محدِّثه..

- لم نعرف من قبل أن لكم أقارب هنا، هل جاؤوا إلى عجايب منذ وقت؟

همهم العم أبوعلي من مكانه البعيد بكلماتٍ غاضبة خافتة، لم تخرج من حلقه لتُسمع بوضوح. نظر الجميع إلى المأمور فهز رأسه من دون أن ينظر إليهم، ثم قام من مجلسه بصعوبة:

- لا تشغل بالك حضرة الناظر، نحن جميعًا أهل وسنكون أكثر من ذلك في مقبل الأيام. ثم أردف: جئنا فقط لنطمئنّ عليكم. والآن اسمحوا لنا بالانصراف..

ومن دون أن ينتظروا ردًّا قام المأمور ومَن معه إلى سياراتهم ولم يتحرّك أحد لوداعهم. دارت العجلات فوق الرمل بحنق، فأحدثت أزيزًا وغبارًا وانطلقت. لم يغفل الناظر عنها حتى انعطفت تباعًا خلف سور المدرسة، وهو يتأمل بذهنٍ شارد فورة الغبار التي راحت تتلاشى في البعيد..

نادى ليأتوه بإبريق الماء ليتوضأ، فإذا بموكب فرج السقّا يَظهر من ذات الطريق قادمًا باتجاه المسجد. رجلان عن يمينه وثالث عن يساره وأخوة فاطمة خلفه. عند وصولهم أمام دار الناظر رفع السقّا يده بالتحية فردّ الناظر وحده. استبد الغضب بالعم أبوعلي، واصطكت أسنانه وهو يحاول الوقوف على رجليه بصعوبة..

- هل رأيتم؟ صار الأحفاد من خلائق الله، يُزوِّجون ويتزوّجون ويستقبلون المسؤولين من وراء ظهورنا. والله عشنا لنرى..!

بعد لحظات من الصمت، وبعد أن بدا أن الناظر لن يعلّق، قال الشيخ أحمد وهو يلبس حذاءه:

- لننتظر ما سيأتي يا أبو علي..

بينما مضى الموكب في طريقه إلى المسجد من دون أن يصدر منه شيئ..

- ماذا تقول يا شيخ أحمد؟ ألا ترى كيف صارت أحوالكم؟

ضحك الناظر محمد من أنفه ضحكة قصيرة ساخرة وهو ينفض يديه من ماء الوضوء..

- كل شيئ بأوانه يا أبو علي، لا تستعجل الأمور..

إلى متى؟هل تنتظرون حتى يسحبوا البساط من تحت أرجلكم؟ حتى يملكوا الأمر كله مثلما ملكوا بيوت البلد ومزارعه ومتاجره؟

فرغ الناظر من وضوئه ووضع عمامته على رأسه ثم قام معتمدًا على عصاه. فبرغم سنيّه الخمسين إلا أن كتلة هائلة من الشحم كانت تظهره دائماً بعُمرٍ آخر وحجمٍ أكبر، لكنه لطالما رآها عافية وهو ينفض أكمام جلبابه وذراعيه، ويرفع صدره بشهقاتٍ عميقة كما لو كان يؤكد حيزه في الهواء. مشى في طريقه إلى المسجد، وتبعه الشيخ أحمد وحاج حامد وآخرون. زفر أبو علي وهو يقترب من إبريق الماء زحفًا على يديه ومقعده ليتوضّأ. حينئذٍ قام الدرويش سريراي من جلسته فجأة، ونقر طبله الرنان بقوة وراح ينشد بصوته النحيل العالي..

اشتَدَّي أزمَةُ تَنفَرِجي،،
قَدْ آذَنَ لَيلُكِ بِالبَلَجِ..

وَظَلامُ اللَّيلِ لَهُ سُرُجٌ،،
حَتّى يَغشَاهُ أَبُو السُرُجِ..
يا ربِّ بِهِمْ وبِآلِهِم،،
عَجِّل بالنَصْرِ وبالفَرْجِ..

اغرب من أمامي يا وجه النحس. الله لا ينصرك ولا ينصرهم..

صاح العم أبو علي حانقاً، ورمى إبريق الماء في وجهه. التفتَ إليهما الناظر وجوقته وهم يضحكون. واستمر سريراي ينشد ويتقافز بطبله ورايته البيضاء وهو يسبقهم إلى المسجد..

(4)

لعشرات، أو ربما مئات السنوات، كانت عجايب، ومن دون القرى التي حولها بمحاذاة النهر، شيئاً فريدًا. ليس في مظهرها أو موقعها، إذ لم تكُ تختلف عن رصيفاتها حول مجرى ذلك النهر بالشيئ الكثير، إنما في أذهان أهلها وفي تعلّقهم بها على نحوٍ يفوق الوصف، وكأنّ شيئاً غامضاً يجعل صورتها في أذهانهم أكثر من مجرد مكان. كان الواحد منهم -في أزمانٍ مضت- إن غاب عنها لعملٍ أو تجارة أو زواج، اختلق الذرائع كي يعود. فإن سلك هذه الطريق عاد من تلك، وإن خرج من بابٍ عاد من الآخر، وإن غادرها في الصيف آب في الشتاء. لا يهم إن عاد خائبًا من تجارته أو طلق زوجته أو هجرها دونما سبب، المهم أن يعود إلى عجايب، فذلك ربح لا تضاهيه منفعة أو متعة..

لم يكونوا وحدهم في ذلك العشق الغامض، حتى إبلهم «الأنّافيّة» و«البشارية» الناصعة، كانت مثلهم تمامًا، تحنّ إلى مراتعها إذا فارقت، وتجدّ في السير إن أزفت رحلة الشتاء أو أنعش الأرضَ المطر. كانت رائحة العشب إذا دغدغت أنوف الإبل من مسافة أيام، تهب من مراقدها ثم تضرب أكبادها حتى تصل دون حداء. وعلى العكس إن بدأت رحلة الصيف اثّاقلت إلى الأرض وزمّت مشافرها وأبطأت في المسير وكأنما تُساق إلى النّحر. وكأن عشقها عدوى، فسكان القرى التي حولها تجدهم يدركون -بلا وعي- أن لعجايب سحرًا خاصًا لا يضاهى. مهما استبدت بهم عصبية المضارب أو المـواطن، ما يلبثون -في نهاية الأمر- أن يستدركوا في استحياء، وكأنما يعتذرون..

- عجايب، أم القرى كلها، ولا أحد ينتقص من قدر أمه..

العم أبوعلي، أثناء زياراته القصيرة المتباعدة إلى مدينة «مُصَوَّع» على ساحل البحر الأحمر، يصمتُ عن الكلام إذا شعر بطول المكوث، ويزهدُ في الزاد إذا اشتاق، كأنما يصيبه إعياء مفاجئ. يقوم أو يجلس بتثاقلٍ مفتعل، وقد ييبست أطرافه أو تكاد، تسمعه يستدعي المعونة مبرطمًا ببعض الأدعية حين يقوم أو يقعد. يضحك صديقه أبو منصور ممازحًا..

- كبرت يا أبوعلي وأصبحت تطقطق مثل الشجر اليابس..

يغيّر نبرته وجلسته كما لو كان يتحدّى..

- لم أشخ بعد، إنما هو طقسكم هذا الذي يصدئ الحديد..

- طقسنا رطب، باعث للنضرة. ولو كنت تعيش معنا هنا لأقسَمَ من يراك أنك في نحو الأربعين..

- والله لو عشت هنا لمُتّ من سنين طويلة. هواء عجايب لا مثيل له، وكأنه نسمات الجنة. ولو أنك لم تخرج منها يا أبو منصور لكنت الآن تنكح أربعاً من النساء في آنٍ واحد!

ثم يضحك ضحكةً قصيرةً خبيثة ويضيف:

- عندما أعود سأدخل على زوجتي الثامنة.

-ماذا تقول يا رجل؟

-كما تسمع، أنتم هنا أنصاف رجال لا همّة لكم..

فيقهقهان ملء المكان، وبعد فترة صمت يزفرُ أبوعلي من صدره وكأنما لا يكلم أحدًا.

- إيييه، عجايب، ما ترحم الغايب..

وما أعجب ذلك. كل القرى التي حولها لها منشأها المعروف من أول بيتٍ فيها وحتى آخر بيت، وكل القبائل التي قطنتها أو رحلت عنها بأفخاذها وبطونها القريبة والبعيدة، إلا هي، عجايب، كأنها نبعت من الأرض فجأةً أو وقعت من السماء بناسها وبيوتها. تتناثر حولها قرىً أخرى وكأنما تحرسها من وحشة الصحراء، أو أنها وجدت في الأساس لتظهِرَ حُسْنها وتدل عليها لا لشيءٍ آخر. فإن جاءوا على ذكر إحدى هذه القرى غالبًا ما يكون مقتضبًا سريعًا إلّا عجايب، يصبح الوصف ممعناً في التفاصيل.. موقعها منتهى أو مبتدأ مثلما هي في خيالهم أبدًا. رأس مثلثٍ قاعدته الحدود مع السودان، تنتهي إليه طريقا قوافل رئيسيتان إما من جهة ساحل البحر من نواحي «قرورة» السودانية، أو من جهة الجنوب الغربي من «كسلا» السودانية أيضاً مروراً بكل القرى التي تلتقيك منكمشة، زاهدة في لقائك، تمامًا مثلما يصفونها. وكأنك تتأمل قلادةً عتيدة، سرعان ما ينزلق بصرك من سلسلتها إلى قلبها المتدلي

فتزنه بين يديك لتتأكد، ثم يهجس في قلبك هاجس بأن عجايب لها من اسمها نصيب..

سنوات قحطٍ طويلة بدأت مع بزوغ القرن، تلتها حروب بين القبائل، ثم الحرب العالمية التي دارت بين دول المحور والحلفاء. وهذه الحرب أخذت بعض أهلها -ومعظمهم من الأحفاد- إلى رحلة نزوحٍ إلى ميناء مُصَوّع على البحر الأحمر. أنجبوا خلالها جيلاً أو جيلين على الأقل، لكن مساكنهم، وأحلامهم، بل حياتهم كلها، كانت طارئة، ليس فيها من طبائع الحواضر وأهلها شيئ. إذا كلمت أحدهم لِمَ لَمْ يبْنِ بيته مثل بيوت أهل البلد وهو مقتدر؟ سيقول لك..

- كلها أيامٌ قلائل وسنعود!

وامتدت تلك الأيام لما يقرب من نصف قرن. بعضهم عاد وبعضهم تقطعت به السبل والأسباب، بعد أن حال أولاده وأحفاده وأحلامهم وحياتهم التي أَلِفوها بينه وبين رغبة العودة إلى عجايب. وهؤلاء، في منفاهم ذاك، كانت عجايب لا تغادرهم أبدًا، مثل علةٍ لا شفاء منها. الذي يتذكر، لا ذكرى له سوى عجايب وحوادثها، والذي يحلم لا بد أن تكون عجايب جزءاً من حلمه، والذي يدّخر المال أو ينفقه إنما يدخره ليومٍ معلومٍ تعرفه عجايب أو ينفقه لشيءٍ في نفسه، لكنها تعرفه أيضاً.!

كانوا يعيشون في طرف مدينة مُصَوّع، في حي واحد مؤقت، أقرب ما يكون إلى المخيم، بيوته متداخلة، تستدفئ ببعضها، وبذكرى عجايب التي تسبح فيها ليل نهار، وكأنهم غادروها في الصباح أو يتهيأون للقاءها غدًا. عاشوا على هذه الحال ما يقرب من خمسة عقود

ثم سرتْ فيهم الرغبة بالرحيل إلى عجايب فجأة. كأن أحدًا أسَرّ لكل واحدٍ منهم بشيئ.

(5)

خرج الأستاذ إسماعيل من السجن. لكن، ومنذ خروجه، شغلته الأحداث المتواصلة ومحاولة فهم ما يجري على نحوٍ يجد له تفسيرًا مقنعًا. السنوات الأربع التي قضاها في سجن الاحتلال الأثيوبي أحدثت قطعًا مؤلمًا في حياته، وقد عاش في ما مضى -ورغم صغر سنه- كقطبٍ من أقطاب البلد، وحلقة الصلة المهمة بين أجيال عدة، فهو المثقف والمعلّم الذي أمضى سنوات من حياته بين الكتب، ثم اعتنق مِن أفكارها ما اعتنق. إسماعيل مدرِّس التاريخ واللغة العربية، اشتهر في عجايب والقرى التي حولها بلقب «الأستاذ» الذي لم يفارقه حتى بعد خروجه من السجن. مكّنه حضوره بكل تلك الصفات من الإمساك ببعض الخيوط التي سجّلها عن تاريخ وحياة عجايب، وهو الآن يبحث عنها ويحاول وصل ما انقطع. تغيرت في البلد أمور كثيرة. الثورة التي تركها مضغة كبرت، على الرغم مما يراه فيها من أخطاء، والأفكار الوطنية المناهضة للاحتلال تفاعلت ووجدت أتباعاً في كل مكان. دخل «الأستاذ» السجن بتُهمة الانضمام إلى تنظيمٍ مخالفٍ للقانون يهدف إلى تقويض النظام ونشر أفكارٍ هَدّامة. كان أصغر عضوٍ في حركةٍ نخبويةٍ سلمية مناهضةٍ للاحتلال نشأت قبل الكفاح المسلح الذي انطلق في الأول من سبتمبر 1961م بسنواتٍ قليلة، لكن هذه الحركة ستندمج لاحقاً في جسم الثورة الكبير. كان أفرادها ينتظمون في خلايا «سباعية» تنتشر في كل مدن البلاد، وتمارس نشاطها سراً بين المثقفين، وخاصة اليساريين منهم..

كلا الحركتَين حققتا تقدمًا لا بأس به في مناهضة الاحتلال، فالحَرَكَة السباعية التي كان اسماعيل ينتمي إليها نجحت في استمالة الكثير من المثقفين وخلقتْ علاقاتٍ دوليةً مع مصر عبد الناصر والإتحاد السوفييتي من خلال الحزب الشيوعي السوداني. وحركة الثورة المسلّحة التي حققت تقدمًا مهمًا على صعيد التأييد الشعبي والإنتشار الجغرافي والعمليات العسكرية النوعية، وانضم إليها المئات من المقاتلين على الرغم من حملات الاعتقالات الواسعة التي شملت المنتسبين إلى الحركتَين والمتعاونين معهما، وخاصة بين الفئات المثقفة وفي مقدمتهم المدرّسين والطلبة. امتلأت السجون في «تِسِنَيْ» و»أَغُرْداتْ» و»كَرَنْ» و العاصمة «أَسْمَرا» و»مُصَوَّع» ومدنٍ أخرى بمئات الشباب حتى بلغ عدد المعتقلين ألفاً ونيّفاً في غضون أشهرٍ قليلة، وقد تعرضوا للتعذيب والإذلال..

قضى اسماعيل في السجن ما يقرب من أربع سنوات، لكنه عندما خَرَج تلقّى أعنف صدمةٍ في حياته، صدمة احتاج إلى سنواتٍ طويلة حتى يتعافى منها. إذ كانت أخته عائشة قد أخفت عنه مقتل أبيهما وهو في السجن على أيدي الثوار. كان في معية الناظر حسين تلك الظهيرة حين اعترض طريقهما -وَهُمَا عائدان من المسجد- بعض الثوار الملثّمون وأمطروهما بالرصاص ثم لاذوا بالفرار. أعلنت قيادة الثورة لاحقاً تبنيها للعملية وزهوها بالتخلص من أحد عملاء المحتل الأثيوبي. فالناظر حسين كان عضوًا في أول برلمان إريتري أختير أعضاؤه بالتعيين وأغلبهم زعماء قبائل ورجال دين ومثقفون، ثم أُجبر معظمهم تحت التهديد والإكراه على التصويت لصالح الوحدة الأبدية مع أثيوبيا، ولاحقتهم الثورة بعد ذلك واغتالت عددًا منهم بتهم العمالة

والخيانة العظمى ومساعدة المحتل الأثيوبي. سمع الأستاذ بكل ذلك، وتسبب الأمر له في ألمِ عظيمٍ، وفي مواقف منتقدة لقادة الثورة، وتلك حكاية أخرى..

كان يرى عجايب تتغيّر. في كل يوم يخرج فيه من بيته، يرى أقوامًا يحطون رحالهم في مكانٍ ما من عجايب، وآخرون يبنون بيوتًا، أو يشترون أثاثًا أو ينظفون بيوتًا مهجورة أو يصلِحون خرائب. تحوّلت عجايب إلى مركز جذبٍ في فترة قصيرة. وأما روحه فقد كانت مثقلة بوحشة عظيمة فاقت ألم السجن والخسارة. الدفء الذي توقّع أن تلاقيه عجايب به، لم يشعر به في وجوه الناس. بدت له غريبة، باردة، فالوجوه ليست الوجوه التي تمنى أن ينظر إليها ليغسل فيها وجهه من رهق أيام السجن. أن يجلس إلى الناس كما اعتاد أيام كان والده حيًّا، وأن يستمع لأحاديثهم الشيقة، وأن يدوّن، كما اعتاد، كل شيئ، ويضفي على تدويناته الدائمة للأحداث بعض الملاحظات والحواشي التي يراها مهمّة. التاريخ في ذهنه يُكتب ساعة حدوثه وليس بعد ذلك، لا يُكتب التاريخ بعد الانتصارات أو الهزائم وإنما في غمرة المعارك، وقبل أن ينقشع غبارها وتجف دماؤها. كانت المعارك قد بدأت، وفي كل مكان من أريتريا. وعجايب -التي تبدو وكأنها خارج تلك الجغرافيا- تعيش معركةً أخرى، وتتهيأ لوضعٍ جديد لا يعلم أحدٌ إلى أين سيأخذها. طفح الصراع بين أهلها كما لم يحدث من قبل. طريقة الجميع في الكلام اختلفت أسرع مما تخيل، وكانت أقل صدقًا مما كانت عليه قبل أن يدخل السجن. قرر أن يبدأ تدويناته من جديد، رغم أن الاحتلال وضع يده على تدويناته السابقة وأخضعه لتحقيقاتٍ قاسية بشأنها ثم صادرها منه..

«كأن عجايب التي أعرف أفرغت من أهلها واستُبدلوا بآخرين، ليست بينهم تلك الحميمية التي كنت تحسها دائماً في سلامهم وحديثهم، ولا تلك الطمأنينة التي يبثونها في قلبك حين تسألهم عن أحوالهم وأحوال الدنيا وتقلّباتها من حولهم».

جاس كثيراً بين الأزقة التي تأخذ السائر، من أي جهة انطلق، إلى قلب السوق القديم، أوتخرجه إلى الحقول أو المراعي أو سفوح الجبال. لم تشعره عجايب بالطمأنينة التي افتقدها. كان السوق في ما مضى أقل أماكنها جاذبية للسكن، وأكثرها رحابة وهدوءًا. أما اليوم فعلى العكس، صارت البيوت تقترب من السوق أكثر وأكثر حتى أصبحت جزءاً منه. وقامت على واجهات البيوت محلات بائسة، تتكئ على ظهورها مساكنهم الواجمة.

قرية أخرى كانت تنشأ في غفلةٍ منها على امتداداتها الشمالية التي تأخذك إلى طرف الصحراء ومن خلفها إلى البحر إذا لزمت محاذاة النهر. رآها الأستاذ أول ما رأى حين وقف على رأس التلة يوم خروجه من السجن فخدعته ببريقها، وتفاءل. دوائر أخرى من البيوت الحديثة، الأكثر تنظيمًا والأحدث طرازًا وطرق أكثر اتساعًا، يتوسطها سوق جديد ينتهي إليه مسار القوافل والحافلات التي تأخذك منها وإليها لتربطك بمدن الساحل المختلفة. مسجد ومدرسة ومشفى وملعب وساحة وكل ما تتهلل له أسارير القرى. وكأنما تقوم مكان، أو إلى جانب، عجايب التي عرفها عجايب أخرى..

سمع أن الأحفاد تمرّدوا على واقعهم ويرغبون في إنشاء كيانهم المستقل، وأنهم في سبيل تلك الرغبة قرروا أن يهبوا أَمَةً جميلةً منهم -عرف لاحقاً أنها فاطمة خطيبة صديقه محمود- لرجلٍ نافذٍ

نصبه الاحتلال مأمورًا على الإقليم كلِّه. يقدّمونها رشوةً في مقابل حصولهم على ذلك الكيان المستقلّ.

«لا شك أن من يعرف ماضي عجايب يستوقفه ضجيجها اللافت، الذي يشتعل في قلب السوق القديم حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل. وهي التي كانت تنام بعد صلاة العشاء، وكأنها اليوم تقاوم شيخوخة دهمتها على حين غرة»

«الأحفاد»، إسم جديد لم يسمع به الأستاذ من قبل، وإن كان قد أعجب به. في اليوم التالي لوصوله سأل صديقه خليل، شقيق الناظر محمد، عن الأحفاد، فقال:

قومٌ نشأوا من العدم، ثم صاروا قوة كبيرة ويطالبون بحقوق كانت لهم..

قال له ذلك باستخفاف. صمت قليلاً، ثم أضاف وكأنما يعتذر:

- يخيل إليك للوهلة الأولى أنهم سقطوا من السماء، أو نبعوا من الأرض فجأة، مع أنك تعرفهم كما تعرف كل فرد في عجايب. هم آل همد، وآل بخيت، وآل موسى، وآل السقّا، وآل فرّاج، وآل نوراي أهل صديقك محمود، وبعض العائلات التابعة الأخرى، أضف إليهم بعض العائلات الجديدة التي نزحت إلى البلد من عامين أو ثلاثة وبعض تلك العائلات التي عادت من النزوح وعائلات أو أفراد جاؤوا إلى عجايب من حيث لا ندري..

- هل كلهم ميسورون؟ أقصد من بَنى كل هذه البيوت..

- كثير منهم يعملون بالتجارة، والمُعدم منهم مقبلٌ على الدنيا ويلقى المساعدة من فرج السقّا.

كانا جالسيْن في ميدانٍ رمليٍ صغيرٍ يفصل بين الـ عجايبَيْن، وفي

البعيد كانت القوافل القادمة من خارج البلدة والحافلات الـ «مجروس» التي تتبع لشركة «سَتَاي» قد بدأت تصل تباعًا حاملةً وافدين جددًا وبضائع وتجّار. قاما من مجلسهما ببطء في طريقهما إلى السوق الجديد، ثم بدأ خليل يحكي حكايات كثيرة حصلت في خلال السنوات التي امضها الأستاذ في السجن. كان خليل، وكلما انتهى من حكاية، يهز رأسه عجبًا.. وكان اسم فرج السقّا يتكرر في ما يرويه خليل.

(6)

«هؤلاء الأحفاد الذين انفجروا في قلب هذه الصحراء مثل الإعصار، من هم؟ ومن أين جاءوا؟ وكيف تكاثروا إلى هذا الحد؟ ومن أين لهم كل هذا؟ ومن سَمّاهم الأحفاد؟ وكيف تصدَّر فرج السقّا المشهد فجأة؟»

هكذا كتب الأستاذ وكانت تصطخب في ذهنه أسئلة كثيرة. كل ما عرفه عنهم حتى الآن، أن صديقه محمود منهم، وكذلك بعض العائلات الصغيرة الأخرى، مع نُتف متفرّقة من الحكايات التي كان يجدها تافهة، وربما هي اليوم أهم من أمورٍ كثيرة.

تذكر صديقه محمود، وتذكّر أمّه التي قالت له ذات يوم، إنه وصديقه محمود ولدا في هذه البلدة في طرفيَ ليلةٍ واحدة، هو وُلد عند المغيب ومحمود وُلد قبيل طلوع الفجر، في سنةٍ كانت تؤرخها بمعركة شهيرة وقعت أيام الحرب بين الإيطاليين والإنجليز. كان أبوه راعيًا لإبل الناظر حسين قبل أن يتحول إلى حارسٍ شخصيٍّ له. أما أبو محمود فقد كان راعيًا في إبل حاج حامد، وفق قانون التبعية المتوارث. كلاهما كانا

راعيين، لكن ثمة فرق في ذهن أمه، تعتقد أنه مهم وجوهري وعادلٌ أيضًا بوجه من الوجوه. وُلد إبنها - برأيها - في قبيلةٍ ونسب، ووُلد محمود من دون عنوانٍ أو هويةٍ واضحة، في عائلة تابعة سيلحقونها بما صار يسمّى الأحفاد. لكن هذا الأمر -ورغم أهميته في بلدةٍ كهذه- لم يعكّر يومًا ما كان بينهما من صداقة، أو لعلّ الشعور بتلك الفوارق لم يكن حادًّا كما هو عليه اليوم. عاشا طفولتهما كأخوّيْن توأمَين لم يخرجا من بطنٍ واحدة، في هذه القرية الكبيرة التي يقطنها -إلى جانب أهلهما الأوتاد والأحفاد- خليط من قبائل عدة ومن مجهولين أيضًا.

عجايب يربطها بالقرى المجاورة نهر موسمي عنيد. يفيض مرة كل عام في أشهر الصيف، لكنه سرّ الحياة في هذا المكان -المَزارع والحقول الصغيرة التي تقوم على ضفتيه من منبعه حتى مصبه على البحر الاحمر- مدينة له دائمًا بالرخاء وفورة الحياة طوال أشهر السنة المتبقية، و كل أسرة فيها تملك رقعة في تلك الأرض على أحد شاطئي النهر، هي التي تربطهم بالحياة وبالمكان. هذه الملكية، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، جزء من هويتهم ومعنى جودهم. يزرعون فيها كل ما يحتاجونه من قوت عامهم ويزرعون ما تبقّى بالقطن. فالإيطاليون، وفي غمرة نشوتهم بهذه المستعمرة الواعدة، أنشأوا مصنعًا كبيرًا للحلج والنسيج خَلف الجبل شراكةً مع آل عميراي الذين آلت ملكية المصنع إليهم بعد خروج الإيطاليين. مئاتُ الأحفاد كانوا يعملون في مزارعه وماكيناته ومخازنه في ظروف قاسية، لكن بعد حادثة الحريق الشهيرة التي مات فيها ما يقرب من ثلاثين حفيدًا تغيّرت أمور كثيرة. مَات لفرج السقّا شقيقان في تلك الحادثة، ومن نارها بدأت الشرارة التي اشتعلت في الصدور، وأشعلت الأحلام بعد ذلك لسنواتٍ ولا تزال..

ربط الأستاذ بين تلك الحادثة وبين ما يفعله السقّا. سمع قبل سجنه بسنواتٍ عن تلك الحادثة وأن السقّا في ذلك الوقت كان قد قاد حملةً تطالب بتحسين ظروف العمال/ العبيد، لكنها قُمعت نتيجة لتقاطع المصالح بين صاحب المصنع وسلطات الاستعمار. ثم خطر له أن حاجة الأحفاد إلى العمل في المصنع هي ما أبقاهم خاضعين لأسيادهم كل تلك السنين رغم تحرير نظرائهم في معظم مناطق البلاد. سُجن السقّا وبعض الأحفاد لما يقرب من ثلاثة أعوام، ولم يخرجوا إلّا بعد أن توسّط الناظر حسين لإخراجهم.

بقي حلم التحرّر كامنًا تحت الرماد طوال هذه السنوات، واتخذ نضال السقّا طرقاً سريةً، سيعرفها الأستاذ مع الوقت!

***

طوال التاريخ كانت هذه الأرض مثارًا للأطماع، تارة بالسيطرة المباشرة، وتارة أخرى بفرض الأتاوات المجحفة التي كانت تصل إلى ثلثي الغلة في آخر العام. تؤخذ من الفلاحين بعرقٍ بارد، لتترك لهم الإحساس بالقهر، ومعه شقاء العام في قيظ الصيف وزمهرير الشتاء. تذمّر الفلاحون، ضد سلطةٍ إقطاعيةٍ محلية -تتكوّن من أُسَرٍ قليلةٍ نافذة نصّبها أباطرة الحبشة حكامًا وجُباةً على المنطقة بأسرها. وخلعوا عليها الألقاب، ووفروا لها الحماية الكاملة. إلى أن تراجع نفوذهم في الْبَلَد مع مجيئ الإيطاليين. وقد تحالف هؤلاء أيضًا مع تلك العائلات. لكن وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء تدخل الإنجليز، وانهار ذلك النظام العتيق، بطبقيته القاسية وأتاواته المرهقة، والمحروسة من أعلى الهضبة. إنتصر الفلاحون والرعاة

الذين ينتشرون على طول الساحل، وأعيد تقسيم الأراضي الزراعية أعلى وأسفل الوادي، وانفرط عقد القبائل وتوزّعت مثل جحافل النمل لتحقيق حلمها في استعادة ما تعتبره ملكًا لها. من يومها آلت السيادة بالكامل للأوتاد وغيرهم من القبائل الأخرى بعد أن كانوا فقدوها لما يقرب من ثلاثة أو أربعة قرون..

لكن ورغم ذلك الارتباط المتين بين أهل عجايب وأرضهم، إلا أنهم لم يكونوا كلهم مزارعين، بل كان معظمهم من رعاة الإبل، يمتلكون أعدادًا كبيرة منها، ويهتمون كثيرًا بسلالاتها وأوسامها. فأوكلوا زراعة أرضهم - في الغالب - إما إلى مَواليهم من الأحفاد أو بعضُ العمال القادمين من الأودية والشعاب القريبة من عجايب، يأخذون أجورهم حصة من محصولاتها بعد الحصاد. ولذلك كان لديهم فراغٌ من الوقت وسعة في المعاش تدفعهم الى الاهتمام بقضايا القبائل والسياسة، ومتابعة أخبار حركات التحرر في جوارهم الإفريقي، وأخبار المعارك بين الثوار والاحتلال الإمبراطوري الأثيوبي..

***

كان في حياة صديقه محمود شيئ آخر، تعرفه عجايب كلها ولا تتعجب له، هو حبّه لفاطمة هُمّد، أجمل بنت في عجايب وكل القرى التي حولها على ضفّتي النهر..

- هي من ثوبي وأنا من ثوبها، وقد وهبها الله جمالاً تتمناه الحرائر..

هكذا كان يصفها. لم يكن في حياتها أو نسَبها شيئٌ لافت. لم يكن لها سوى جمالها، وجمالها وحده. فهي مثل محمود، من أسرةٍ

وضيعة مُعدمة. لا أحد يذكر لهم نَسَبًا أو رحمًا خارج أسلافهم، ممنوع عليهم أن يتزوّجوا أو يزوِّجوا من غيرهم، وهم كذلك لا يتعدون الحدود المرسومة لهم. لقد كان الأحفاد نوعًا من الرقيق، مع أن ألوانهم أو ملامحهم لا تختلف عن بقية الناس. لا يمكن أن تميّزهم إلا حين تراهم يؤدون أعمالهم الشاقة المذلّة، يزرعون أو يرعون من دون أجر، في أرضٍ غير أرضهم وأنعامٍ غير أنعامهم. يحتطبون ويحلبون، بل ويقاتلون إن دعت الحاجة. كانت لكل عشيرة أو أسرة كبيرة، أسرة ملحقة بها من هذه الطبقة، تابعة لها ولا تنفصل عنها، تورّثها وتقتسمها كما تقتسم المواشي والأراضي والبيوت.

كيف استُعبدوا؟ ومن أين جاؤوا؟ لا أحد يعلم! إلى أين تنتهي أنسابهم؟ وما هي قبائلهم؟ لا أحد يجيبك أيضاً! هكذا، وجدهم الناس بينهم، عبيدًا يشبهونهم حد التطابق، بل ويتفوّقون عليهم وسامة وجمالاً في بعض الحالات. كان أجداد محمود يتبعون لعائلة حاج حامد، ورثهم عن أسلافه ثم ورّثهم لأبنائه بحكم العادة. وأهل فاطمة كانوا في متاع آل عميراي، تجّارِ عجايب وميسوريها. بيوت الأحفاد الصغيرة الشاحبة ملحقة بدور الأوتاد ومساكنهم الرحبة..

مع تطور الحياة، وبالتدرّج، حاز الأحفاد على القليل من الحرّية وبعض المكتسبات، وأتيح لأفراد منهم الإشتغال بأمورٍ صغيرة، مما يشتغل به العامة من الناس. تحسّنت أحوالهم قليلاً في مصنع النسيج وفي أماكن أخرى، لكنهم طوال تاريخهم لا يمتلكون، لا البيوت ولا المزارع، وكذلك لا يتزوجون خارج محيطهم. لا يقررون في شيئ عام مهما صغُر، إلى أن قيّض الله لهم ذلك الرجل الذي هو فرج السقّا، راح يحقّق لهم مكسبًا تلو الآخر حتى صاروا يتعلّمون ويتاجرون،

ويتجنّدون في الجيش والشرطة ويمتلكون أيضًا.. وفتح الآفاق أمامهم ليحلموا بالمزيد. ثم خرجت إلى الحياة فاطمة الجميلة، مثل لحنٍ عذب، وسط ثلاثة من الإخوة الأشقياء، يلقّبونهم بـ«حرّاس الكنز» تندّرًا. ترى فاطمة بينهم فتحسبها من جنسٍ آخر!

(7)

تعرف فاطمة أن عمرها الآن عشرون خريفًا بالتمام والكمال، فربيع الفتاة يمتد من عمر الخامسة عشر حتى التاسعة عشر في بلد كهذه، أما سنّ العشرين فهو سنُّ العنوسة، ومنه يبدأ خريف العمر إما بأن تصبح مهمتها مقتصرة على إنجاب وتربية الأولاد، وإما أن يتم تزويجها لأوّل كهلٍ يريح عائلتها من احتمالات غير محمودة. ولولا أن الثورة أخذت منها محمود لكانت الآن أمّاً لثلاثةٍ أو أربعةٍ من الأطفال. لكن في ذلك الوقت لم يكن هذا ما يشغل بالها. لقد اكتشفت فاطمة أمرًا أنساها كل ذلك واعتبرته مثيرًا في حينه، ثم تصاعد اهتمامها به إلى الحد الذي شغل حياتها كلها..

كان ذلك في الخريف الماضي حين اكتشفت فاطمة معنى أن تكون المرأة جميلة. حدث ذلك عندما وضعت على جسدها ذلك الفستان الورديّ الذي فصّلته لها الخياطة نورا. فصّلته على مقاس جسدها بالضبط، فأظهر مفاتنه كلها دفعةً واحدة..

- كم أنت بلهاء يا فاطمة! والله لو أملك مثل جمالكَ وهذا الجسد لأوقفتُ البلد بإشارة، وحرّكته بإشارة..

الخيّاطة المهذارة قالت هذه الكلمات وهي تقيس لها ذلك

الفستان الورديّ اللامع. لعلها لم تكن تتوقع أن يقع هذه الحديث في نفس فاطمة ذلك الموقع الحسن، وأن يغير نظرتها إلى نفسها. فعلت العبارة في فاطمة فعل السحر. صارت تطيل وقوفها أمام المرآة لساعاتٍ طويلةٍ في اليوم، وتصاعد اهتمامها بزينتها ونظافتها الشخصية على نحوٍ يقترب من أن يكون شغفاً. صارت تُكثِر من زياراتها إلى الخيّاطة بعد أن كانت تفعل ذلك في العيدين فقط!

بعد عشرين عاماً اكتشفت فاطمة أنها جميلة! وفكّرت في ما يمكن أن تفعله بهذا الجمال!.

«فاطمة الجميلة» هاتان الكلمتان لهما وقعٌ صاخب في النفس أكثر من تلك الفكرة الصامتة، المسطحة التي تنقلها المرآة بحياد. «والله لو أملك مثل جمالكِ وهذا الجسد لأوقفتُ البلد بإشارة، وحرّكته بإشارة..» صحيح أن كلمات الخيّاطة أثارت في نفس فاطمة مشاعر لم تكن لتهتمّ بها، لكن هذا لا يكفي. المرآة شبه المهشّمة الموجودة في الحمام أكثر أهمية، بل وأكثر قدرة على إبراز التفاصيل، هذا ما أدركته فاطمة وسعدت به أيما سعادة..

كان محمود وعلى نحوٍ ما حائطًا بينها وبين أولئك الناس/ المرآة. وثمة حائطٌ آخر غير مرئي كان يمنع توضيح تل الحقيقة الجميلة لفاطمة بشكلٍ أو بآخر، هو كونها من الأحفاد. فرغم جمالها النادر إلا أن نَسَبها الوضيع حال دون وضعها في الواجهة. في المكان الذي تستحق. غضّت فاطمة الطرف عنها في غمرة زهوها بهذه الصورة البرّاقة التي شغلتْها كثيراً.

كانت تحسّ بنظرات الرجال النهمة وهي تسير بين البيوت، أو تذهب إلى السوق، أو الخيّاطة، رغم تحذيرات أمـها المتكررة

وغضب إخوتها الأشقياء. وكانت تنزعج لأنها مرصودة لمحمود. محمود الذي طالما كان في نظرها والد أولادها -حقيقة مثلها مثل أبسط الأشياء.

كلمات الخيّاطة ملأتها بفرحٍ طفولي حتى إنها شعرتْ مؤخرًا ببعض الارتياح لغياب محمود، الغياب الذي جعلها تكتشف نفسها، ولم تعد تضايقها كثيرًا نظراتُ الرجال الشبقة إلى ساقيها البيضاوين الممتلئين، وإلى أردافها المستديرة العالية ونهديها الناهضين ويديها البضتين، وجيدها الطويل القائم ووجهها الصافي الممتلئ وشفاهها الوردية المكتنزة. وذلك الإنكسار البريئ في نظراتها. نظراتها الفرحة بتفاصيل الأشياء من حولها..

***

صارت فاطمة تتنبّه إلى النظرات التي تُرمى بها عن شبقٍ أو عن غيرة. لاحظت النظرات وانتباها احساس جديد فيه نوع من الزهو بدل الخوف.

في الطاحونة ضايقتها نسوةٌ فضوليّات من الأوتاد بنظراتٍ مريبة، وغمز أزعجها وأربكها، عن سرّ لون عينيْها الخضراويْن، وشعرها الكستنائي الطويل الذي يكاد يلامس ردفيها، وقوامها المعتدل الفاره مثل الفرس، ولون بشرتها الصافي الذي يميل إلى بياض يميزه عن تلك السُّمرة البرونزية التي تتقاسمها كل حسناوات البلد بدرجاتٍ متفاوتة؟

شعرتْ بخوفٍ غامض. فهي بقدر سعادتها بمثل هذا الاهتمام، تخاف كثيرًا من أمورٍ غريبةٍ حذّرتها منها العرافة رامية الودع، وقبل ذلك

بسنوات سمعتْها من أمها، حين طلبت منها أن تضع خمارًا فوق رأسها حين تخرج، وأن تلبس سروالاً طويلاً حين تركب الحمار لجلب الماء أو العشب من شط النهر، وأن تخفض صوتها وبصرها إلى الأرض حين ترى الرجال، وقائمة طويلة من المحاذير تبدأ بتأديبها ولا تنتهي بتحذيرها من تلك النظراتِ اللعينة، المهلكة..

عرفتْ فاطمة وقتها أن شيئاً ما قد تغيّر. ثم بعد سنة أو سنتين، لا تذكر فاطمة متى حصل ذلك بالضبط، بدأ صدرها يكبر وحوضها يتسع وأردافها تستدير، ومشيتها تتكسّر، وصوتها يرقُّ، وتفيضُ أحشاؤها مرةً كل شهر، فشعرتْ بذلك الاختلاف الذي حدّثتها عنه أمها، ولم تعد تخرج مع محمود إلى أيّ مكانٍ علنًا أمام الناس. علّمتها أمها قراءة سُوَرٍ وآياتٍ محددةٍ من القرآن حين تشعر بنظرةٍ وصَفَتْها لها بدقة، وأخبرتها أن تلك النظرة هي التي قتلت أباها الوسيم ذات خريفٍ ماطر، واتهمتْ بذلك امرأةً من آل عميراي، ما تزال تكرهها. ولا يمكن لفاطمة أن تخطئها الآن، وقد كانت من بين النساء اللواتي ضايقنها في الطاحونة. استعاذت في سرّها، وتمتمتْ بآياتٍ من القرآن في وجه أولئك النسوة ثم سحبتْ خمارها إلى جبهتها تغطي خصلاتٍ متدلّيةً فوقها كالعُرف. ما إن صار طحينُها جاهزًاحتى حملته فوق كتفها وخرجت عَجْلى وقد قرّرت أن تعرِّج على الخيّاطة..

لسنواتٍ طويلة لم يدُر بخلد فاطمة ذلك السؤال الذي يدور بخلد كل صبيةٍ قروية جاوز عمرها الخامسة عشرة. وجودُ محمود كان يغنيها عن التفكير في هذا الأمر، وكان يكفيها أيضاً مشقة الإجابة عن أسئلة فضولية كثيرة تعجّ بها مجالس النساء في قرىً كهذه. إذ كان

محمود ودون أنداده، ودون الأحفاد الآخرين صغيرهم وكبيرهم، محبوبًا لدى أهل عجايب بأحفادهم وأوتادهم، وكان ذلك أمرًا غريبًا. ولم تتعدَّ النظرة إلى فاطمة ذلك التسليم بوضعها الذي أبقاها في ظل محمود ومحبّتهم له. وما عدا ذلك فهي أَمَةٌ وابنة أَمَة. كانت هذه الأفكار تصطخب في ذهنها وهي في الطريق إلى بيت الخياطة، فإذا بها وجهًا لوجه أمام الناظر محمد ورهطه. هذه أول مرة تراه فيها عن قرب، وهو أيضًا..

-ماشاء الله، تبارك الله، بنتُ مَنْ هذه؟

قال الناظر كلماته بلهفة من دون أن يُحوّل نظره عنها، وقد أوقف رهطه كله بإشارة. خمسة رجال سَدّوا عليها طريقها. ذُعرت فاطمة مثل قطة محاصرة، وشعرت بنفسها ضئيلة لا تدري ما تصنع. خفضت رأسها إلى الأرض وقلبها يخفق من الخوف..

-بنت هُمَّد، مَوْلى آل عميراي..

قال الشيخ أحمد، بنبرةٍ فيها شيئ من الاحتقار، كما لو أنه أراد أن يصرفها عن ذهنه. لم يأخذ المشهد سوى دقائق قليلة حتى أفسحوا الطريق أمامها من جديد، لكنها كانت زمنًا طويلًا بالنسبة لفاطمة، وكافية للناظر محمد لكي تنطبع هذه الأمَة الجميلة في ذهنه، على الرغم مما قاله صديقه الشيخ أحمد..

ذهبوا في طريقهم وظلت واقفة، شعرت بثقلٍ وجمودٍ في ساقيها كأنهما مغروستان في الرمل. لم تغب عنها تلك النظرة التي شملها بها الناظر محمد، ولم يغب عنها وجهه الأسود الممتلئ، وجثته الضخمة كما لو أنها وقفت أمام جبل.

***

ذات يوم، طلب العجوز بخيت أن يراها، فجاءت برفقة أخيها الكبير سالم خائفةً ترتعش. جلسَتْ عند رجليه المعروقتين في مقعدٍ صغير من الحبال يرتفع بمقدار شبرٍ عن الأرض، لكنه سحبها من يدها برفق، وأفسح لها إلى جواره فوق السرير الخشبي الكبير. مسح على ظهرها ورأسها بحنوٍ أبوي..

- أنت مباركة يا زهراء يا ابنتي، مباركة..

ثم وضع يدها البضّة داخل يده الكبيرة الخشنة. لاحظَتْ كأنه يبتسم لشيءٍ مجهول. لم يكن ينظر إليها وإنما في الفراغ الممتد أمامه إلى حدود السور الطيني القصير الذي يفصل حوش منزله عن الشارع. كانت عيناه مدفونتين تحت حاجبيه البيضاوين الأشعثين، يقومان ويحطّان فوقهما كي تريا بوضوح. نظرت في وجهه الحنطي نظرة مطوَّلة. بدا لها مثل وجه تمثالٍ عتيقٍ من الطين، حفر الزمن على سطحه أخاديد دقيقة متشعّبة من التجاعيد، ثم تركه يابسًا. كانت تسمع أنفاسه وهي تمر من خلال شاربيه الأبيضين الكثّين المائلين إلى الحمرة، وشهيقه وزفيره مثل صفيرٍ حادّ قرب أذنيها. رفعت عينيها في وجهه مرةً أخرى فلم يسألها العجوز شيئاً. أشار بيده إشارة مبهمة، فاقترب منها سالم ليمسك بيدها وينصرفا..

لكن ما لفاطمة ولكل هذا؟ فهي الأَمَةُ اليتيمة التي مرّت على محطاتِ عُمرها القصير كما يمرّ المسافر على الشجر والحجر. عاشتْها بنصف حضورٍ، ونصف قلبٍ، ونصف تاريخٍ، ونصف انتباهٍ وأنصاف أحلامٍ صغيرةٍ تافهة لا تعجز أحدًا رغم جمالها الذي لم يحدث في تاريخ هذه الصحراء، كلها!.

(8)

عادت فاطمة من عند نورا الخياطة قرابة مغيب الشمس بأحاسيس مختلطة، مضطربة، مزيج من الغبطة والحزن والخوف. بدأت تدرك الآن أن حياتها الرتيبة، الهادئة التي اعتادتها في طريقها لأن تتغير بأخرى أكثر صخبًا وإرباكًا. فبعد أن أخبرتها فاطمة بما وقع لها في الطريق، حدثتها الخياطة عن أمور كثيرة ملتبسة، واحتاجت فاطمة إلى شرح طويل حتى تستوعب كل ما قالته الخيّاطة. كانت مفردات تسمعها لأول مرة، بدت لها كلمات كبيرة ومخيفة، وخاصةً حين راحت تستعيدها في ذهنها، وترددها بصوتٍ مسموع، أوتاد، أحفاد، زعماء، ثورة، سُلطة، نفوذ، قصور، خدم، نساء رجال...

خرجت من عند الخياطة بمشاعر متناقضة بين الخوف والسعادة. حاولت أن تنمّي في دخيلتها ذلك الإحساس بالسعادة الذي بدَّدَ الخوف قليلاً. فكّرت بذلك التغيير المحتمل ومآلاته الغامضة. بأنه سيمنحها -ولأول مرة- الشعور بالندية مع جميلات وسيدات البلد، وبخاصةٍ مع ندّتها، نجاة إبنة الناظر محمد، التي كانت تلعب معها في طفولتها وتدرس معها القرآن في الخلوة، ثم تزوجت في سن الخامسة عشرة أحد أعيان البلد وتسكن الآن في دارٍ رحبة، ولديها ثلاثة من الأولاد وخادمتان، ويُقال إن لديها أطقمًا مختلفة من الحلي وخزانتين مملوءتين بالملابس المستوردة، وتُشاهَد مع زوجها بسيارته الـ «سيشينتو» ماركة «فيات» الإيطالية. هذا أقصى ما تحلم به فاطمة. أن يكون لها مثل ما لنجاة، أن تكون سيّدة لبيتٍ كبير مليء بالخدم..

هذا التغيير المحتمل، أن يأتيها خاطبٌ يدقّ بابها من عليّة القوم، سيمنحها فوق كل ذلك مَكانة رفيعة كأول حفيدة تنال هذه

المكانة في تاريخ الأحفاد كله. لكن هذا الشعور كان يضاعف من إحساسها بالألم، وبالخيانة إزاء علاقتها السرمدية بمحمود الذي لم يُعرف بعدُ إن كان حيًا أو ميتًا. ومبعث الحيرة لم يكن بشأن الموت أو الحياة، ولا بمصير محمود الغامض والمقلق، بقدر ما يتعلق بحقيقة شعورها نحوه بعد هذه الإحتمالات التي لم تخطر ببالها مطلقًا. وهذا ما عجزت عن التيقّن من شعورها بشأنه. هل مات ذلك الحب في دخيلتها أم ما يزال ينبض بالحياة؟ هل ينبغي لها أن تظل وفية له بغض النظر عن حياة أو موت صاحبه؟ أم تطوي هذه الصفحة بكل أوجاعها المقيمة والمحتملة؟ ولو أنها فعلت، هل تخون فعلاً عهدها معه؟ هل تخون أيامها السالفة والسنوات التي أمضتها تنتظره حتى تأخّرت عن موعد الزواج الطبيعي في محيطها من دون أن يستدعي ذلك أيّ نوع من الأسئلة من أخوتها أو والدتها أو حتى من أهل البلدة؟ هل صار همّها ما تعدُها بها سنواتُ شبابها المقبلة وحياتها المفتوحة على أفقٍ ورديٍّ واسعٍ لا حدود له؟

لم تجد فاطمة جوابًا قاطعًا. لعل المشاعر أقوى من قدرة العقل على تصويب القرارات. وهذا ما كان يجعل أفكارها مشوَّشةً ومضطربةً. وفي غمرة أفكارها تذكرت الناظر محمد أيضًا، فازدادت أحاسيسها اضطرابًا. ماذا تفعل؟ تقول لها الخيّاطة وجهكِ كالبدر يافاطمة! لمن تسلِّم جبينها بَعْد أفول شمس محمود؟ ماهي أصلاً هذه الحرب اللعينة التي خرج إليها محمود؟ متى تنتهي؟ أيتحمّل هو مسؤولية هذا الوضع؟ الناس يعيشون كما كانوا يعيشون، يتزوّجون، ينجبون، يأكلون ويشربون، فلماذا القتال؟ ومن هو العدو الذي خرج

محمود لقتاله؟ لو أنها عرفت قبل أن يذهب لمنعته. محمود فتىً طيب وليس شريرًا حتى يذهب ليقاتل!

حينما دخلت البيت وجدت أمها منكفئةً على حفرة التندور، تُخرج منها -بدأب- أكوامًا من الرماد اللّيّن بمجرفةٍ صغيرةٍ معقوفة، وتضع بعناية عيدانًا صغيرةً من الحطب الجاف، ثم دفعت إلى جوف التندور عودًا مشتعلاً فالتهبَ على الفور. بمجرد أن وقفت فاطمة فوق رأسها لتضع كيس الطحين نظرت أمها إليها نظرةً غير ودودة، ثم نفضت يديها وثوبها وحملت إبريق الماء واتجهت نحو الحمام من دون أن تتبادل معها أي حديث. استاءت فاطمة وخمّنت على الفور أن أمها غاضبة منها بسبب تأخّرها. زفرتْ من صدرها ثم أزاحت عن كاهلها كيس الطحين الذي يذكّرها الآن بمهامها البيتية المُهينة، ويبدد بشكلٍ تلقائي أحاسيسها الوردية التي ملأتها طوال الطريق. أزاحت الكيس بضيق إلى المصطبة الطينية التي تجاور التندور واتجهت إلى الغرفة الطينية الوحيدة التي تقبع في ركن الحوش وهي تنفض ما علق بها من ذرات الطحين..

هناك خلعت ثوبها ونزعت أيضًا مشدة صدرها المتعرّقة التي أهدتها لها الخياطة. المشدة ضيقة وغير مريحة، ضغطتْ صدرها ورفعته إلى نحرها، لكنها ستستخدمها. طالما أن نورا طلبت منْها أن تفعل ذلك فهذا يعني أن المشدة شيءٌ عصري وضروري. مسحت على نهديها الرطبين الباردين بعد أن انتفخا من جديد ونفَرَا إلى الإمام، ثم وضعت فوق جسدها جلابية باهتة اللون، كانت خضراء فيما مضى لكنها الآن تشبه عشبًا عطِشًا. فكّت شعرها من إساره المطاط الذي كان يربطه بإحكام خلف رأسها الصغير المستدير ثم يتدلى فوق ظهرها

مثل ذيل الفرس. نفضته بهزة خفيفة من رأسها ثم ألقت بنفسها فوق السرير تتأمل بلا مبالاة سقف الزنك المموَّج فوق أعمدةٍ من الجذوع الرفيعة الجافّة على ضوء خافتٍ يتسلل من الباب والنافذة الصغيرة فوق سريرها، إلى أن جاءها صوت أمها تذكّرها بأداء صلاة المغرب، بطريقةٍ غاضبة..

قامت متكاسلة إلى مصباح الزيت الصغير وأشعلته فوق منصته الصغيرة بجوار النافذة. الحرّ على أشده والعتمة تزحف على كل شيئ. اتجهت إلى خزانة ملابسها البائسة، اختارت من بين جلابياتها واحدةً قطنيةً فضفاضة، لفّت في داخلها علبة زيتٍ لغسل الشعر وصابونة وعطراً زيتياً محليًّا يُدهنُ به الجسم قبل الاستحمام، واتجهت إلى الحمّام.

في الأثناء هبّت نسمة خريفية باردة، بدّدت حرّ النهار قليلاً. على سريرين خشبيين في الحوش وضعت أمها فراشَيْن من القطن شدّت فوقهما ملاحف خفيفة. وضعتهما متباعدَيْن قليلاً بما يكفي لوضع سجّادة صلاتها السعفيّة المستديرة.

كانت فاطمة في الحمّام تتأمل على ضوء فتيلٍ صغير استدارة جسدها وتكوينه المتماسك بعد أن دهنته بالزيت ودعكته لفترة طويلة حتى غدا ملمسه ناعمًا وطريًا، وأخذ لونًا مُذهّبًا ولامعًا مثل التماثيل. تأملته في المرآة الباهتة والمهشّمة الملصقة في الحائط الطيني والتي لا تُظهِر سوى جزء من جسدها. فهي حين تقف أمام تلك المرآة لا يظهر من جسدها سوى الجزء الممتد من الذقن حتى منتصف الفخذين. وقفت تتأمل تكور نهديها وحلمتيها الداكنتَيْن النافرتين. عندما وصلت بنظرها إلى منطقة ما بين فخذَيْها أحسّت بالخجل، فاستدارت بجسدها وأدارت رأسها لترى طول شعرها الكستنائي المنسدل حتى يكاد يغطّي

ردفيها. مرة أخرى لم تطل النظر إلى ردفيها. خطرت لها فكرة أن هذه الأماكن الحساسة في جسدها، ليست لها، بل هي لذلك الرجل الذي تحلم به. كانت صورة محمود تبتعد لتحلّ محلّها صورة غائمة لرجل سيمنحها ذلك البيت الكبير بغرفه وفسحاته الواسعة، وبخدَمه الذين يتحرّكون مسرعين تلبية لطلباتها، وراحت تحلم كيف أن نسوة عليّة القوم سيأتين لزيارتها ويطرينَ جمالها وذكاءها وحُسن تدبيرها. كانت تحلم بذلك فيما تدور في رأسها تعليقات أولئك النسوة في الطاحونة.
استدارت من جديد وانحنت قليلاً لترى وجهها. لاحظت سُمرةً خفيفةً تعلو وجهها، جعلته أقل بياضًا من اللون الصافي لنحرها. وعلى انعكاس الضوء الشاحب رأت نتوءين صغيرين أحدهما فوق حاجبها والآخر على خدها الأيسر. قامت بتمرير أصابعها فوقهما فشعرت بألمٍ خفيفٍ أسفل الجلد. خمّنتْ على الفور أنه من تأثير أشعة الشمس التي تعرضت لها كثيرًا في الأيام الفائتة. قررت أن تتجنب أشعة الشمس قدر الإمكان، وأنه عليها أن تحافظ على إشراق وجهها، فهو الجزء الأهم الذي يبرز من جسدها، خاصة مع تصاعد الحديث عنها هذه الأيام.
أغرقت شعرها وجسدها بالصابون العطري حتى غاب في غيمة بيضاء من الرغوة الكثيفة. كانت تدور في رأسها أفكار كثيرة حين سمعت صوت أمها تنادي عليها مجددًا، فسكبت الماء على جسدها وقد أحسّت بالانتعاش. جففت جسدها برفق وخرجت..

كان قد تناهى إلى سمعها بعض الأخبار عن ذلك الرجل الذي طلب الزواج منها. وأنه تحدّث مع أخوتها طالبًا يدها. وكانت تود أن تتحدث إلى أمها بخصوص أمر زواجها المباغت هذا، لكنها لا تعرف من أين تبدأ؟ طوال حياتها لم تتحدث مع أمها أو إخوتها الثلاثة عن

أمرٍ كهذا. وكان بداخلها نوع من الاطمئنان تجاه الرجل الذي ستوافق أمها على تزويجها منه. فقد سبق أن تقدّم لها رجل خمسينيّ يملك مائة رأس من الإبل وزوجتين. وقد رفضته أمها من أول وهلة وبحزم، مع أنه أحد أقاربها.

لم يتعدّ الحديث بينها وبين أمها مهام الطبخ والغسل والتنظيف وجلب الماء وحلب المعزات، وغير ذلك من الأمور اليومية. وكان التشنّج بادٍ على تصرّفات أمها في ذلك اليوم. فنظرات أمها الصارمة وحديثها المقتضب بددا رغبتها في التحدّث إليها، فقررت ألا تسأل. خرجت أمها من الغرفة، وعندما سمعت فاطمة طقطقة العيدان الصغيرة أدركت أن أمها تعدّ شيئًا للعشاء. خلعت عنها ثوب الصلاة ثم دهنت جسدها بعطر خفيفٍ من المسك ولبست جلّابيتها القطنية الفضفاضة من دون أن تلبس تحتها أي شيء، ثم دهنت شعرها الذي لا يزال رطبًا بشيء من الزيت ولفّته بقطعة قماش صغيرة خصّصتها لهذه الغاية. ثم اتجهت لتتمدّد عل أحد الفراشين يملؤها شعورٌ غامرٌ بالخفة، وبالرغبة في التحليق بعيدًا في السماء، وقد بدت بسوادها ونجومها المضيئة مثل ثوبٍ مليئ بالثقوب..

ومرّة أخرى عادت إليها أحلامها. تمنّت أن ترى من هناك، من السماء، هذا العالم المشوَّش الذي لا تعرف موقعها فيه، أن تختار مدينةً مليئةً بالنور ضاجّةً بالحياة، لا تنشغل الفتيات فيها بأعمال الخدمة المنزلية المقرفة. عادت لها صورة القصر الذي تسكنه نجاة إبنة الناظر، ومع أنها لم تره من الداخل، تخيّلت أرجاءه ملأى بالزهور والورود، وهي تذرعه جيئةً وذهابًا بثوبها الحريري الموشّى في أطرافه بنقوشٍ مذهّبة، تجرّه خلفها على الأرضية الحجرية المتعرّجة، وتطير العصافير وتحط فوق

صنابير الماء الصغيرة. شعرت كأنها تطفو فوق الماء وهي على سريرها. باعدت ما بين رجليها ويديها وأغمضت عينيها. شعرت بخدرٍ لذيذ في أطرافها أفاقت منه حين دعتها أمها إلى تناول عشاءٍ خفيف مكوَّنٍ من قطعٍ من خبز التندور الساخن مع بعض الحليب الطازج. لكنها اعتذرت مفضّلة لحظات الأحلام والاسترخاء اللذيذ الذي تشعر به.

نامت أمها بعد ذلك بقليل. وكانت عجايب ساكنة إلا من أصوات بعيدة لكلاب، وبكاء أطفال، وخوار أبقار، وبجانبها تسمع شخير أمها الذي بدأ على دفعات تستيقظ بينها لتحوقل أو تستغفر، ثم تنقلب ناحية اليمين أو اليسار ويعود الشخير إلى أن انتظم مثل تكات عقارب الساعة. وعلى وقع ذلك غطّت فاطمة في نومٍ عميق.

***

استيقظت فاطمة مذعورة على أصوات طرقٍ عنيفٍ على الباب مع طلوع الشمس. كان إخوتها الثلاثة المعروفين بـ«حراس الكنز»، بعصيّهم وعمائمهم المهدلة على أكتافهم. لكن ماذا يريدون في هذا الصباح؟ دخلت سريعًا إلى الغرفة، ثم عادت بعد أن لفّت جسدها بثوب وجلست، بينما انشغلت أمها بتجديد النار في الموقد لتصنع قهوة. وبدأ كبيرهم الحديث مع الأم..

- مأمور الإقليم تقدم لفاطمة، ونحن باركنا. غدًا سنجلس مع فرج السقّا وبقية الأهل ليبلغوا الرجلَ ردّنا..

صمتت الأم قليلاً وواصلت انشغالها بإعداد القهوة، بينما أطرقت فاطمة كأن الأمر لا يعنيها. كانت نظراتهم القاسية مصوَّبة إليها منذ أن دخلوا. بعد لحظات وضعت الأم القهوة أمامهم ثم قالت:

- قبل أن تعطوا كلمتكم، اذهبوا إلى أم محمود وانهوا الأمر معها، هذه هي الأصول..

قال الأوسط، سلمان، غاضباً:

- ليس لدينا وقت نضيّعه مع تلك المجنونة. لم نخطب لها بنتًا في ما مضى، ولم نأخذ منها أو من ولدها شيئًا..

- أعطيناها كلمة يا ولدي، والكلمة عهد والعهد أقوى في الذمة من المال..

تململتْ فاطمة وهي مطرقة إلى الأرض. نظرت إليها الأم نظرة صارمة فأدركتْ أن عليها أن تغادر إلى الداخل. ومن الغرفة سمعت سالم يقول:

- أنا وليّها، وأنا المسؤول عنها، وإذا عاد ابن المجنونة من الموت فليكلمني أنا..

- إذا كُنْتُمْ لا ترغبون بالذهاب إليها يمكنني أن أذهب أنا. نحن وهم شيئ واحد والظفر لا يخرج من اللحم يا ولدي..

وقف الكبير وقد بان على وجهه الحزم، ووقف شقيقاه في إثره على الفور. دقّ الأرض بعصاه ونظره مركّز على باب الغرفة الموارب حيث تجلس فاطمة، وقال بلهجة حازمة:

- إفعلي ما يحلو لك، لم نأتِ لنطرح الأمر لمشورتكما. الأمر بالنسبة لنا مَقضيّ ولا نريد جدالاً

استدار ليخرج واستدار شقيقاه أيضًا، ثم التفتَ بشكلٍ مباغت..

- أبلغي ابنتك، وشدّدي عليها ألّا تخرج بعد اليوم، وخاصة الى تلك الخياطة العاهرة. الأفضل أن تهتم بنفسها، وسيصلها جهاز العرس قريبًا..

كان يتوسّط شقيقيه عندما خرج ثلاثتهم بخطى واسعة ويُسمع صوت خبط أرجلهم.

سمعت فاطمة كل ما جرى، وتسارعت نبضات قلبها. بعد هذه الزيارة أيقنت أنها مدفوعة في اتجاهٍ وحيد لا مهرب منه. لم تكن تتصوّر أن تتطور الأمور بهذه الطريقة الحاسمة. كانت تظنّ أن الكلمة الفصل في موضوع زواجها تعود إلى أمها، وكانت تظن أنها ستناقش مع أمّها مواصفات الرجل الذي تقبل أن تتزوّجه أو أن تنظر في الخيارات أمامها. شعرت كما لو أن حبلًا يلتفّ حول رقبتها، وأن أخوتها يجرّونها بذلك الحبل نحو مصيرٍ مجهول. شعرت أن حتى والدتها لا يمكنها فعل شيء طالما أنها من غير رجل.

ومع أن أخوتها، وخاصة سالم، لم يُشعروها باليتم، بل طالما لبّوا لها طلباتها، فقد شعرت بيُتمها للمرة الأولى، فأجهشت بالبكاء..

(9)

طوال أسابيع، كان الأستاذ يخرج من بيته ليتجول في أزقة عجايب ومعالمها وتجمعات أهلها من دون هدف. يخرج وحده أحيانًا وأحيانًا برفقة خليل. يجدّد صلته بالأماكن والناس، ويحاول معرفة التبدّلات التي حصلت في فترة غيابه والدخول إلى تلك العوالم والانسجام معها من جديد.

بعد مقتل أبيه، ومن قبله بسنوات موت أمه، ثم ذهاب محمود والتحاقه بالثورة، لم يتبقّ له غير أخته عائشة التي تزوّجت في غيابه ولم يرها غير مرةٍ أو مرتين منذ عودته، فهو لم يرَ من أنداده سوى خليل

شقيق الناظر محمد، صديق طفولته. كان إحساسه بالغربة يتراجع شيئاً فشيئاً كلما التقى بعضاً ممن يعرفهم، أو أضاف شخصًا جديداً إلى قائمة معارفه أو زار مكانًا له فيه من سنواته السابقة شيئٌ حميم، إلى أن ينتهي به المطاف في مقهى يؤمّه الكثير من الشباب. قليلٌ منهم من أبناء جيله وأغلبهم من أجيال أصغر. تعرَّف على زيدان وعمر وآخرين، وصار يقضي معهم أغلب أوقاته في المقهى..

من خلال بعض الأخبار التي ينقلها عمر إليه عَلِمَ الأستاذ أن فوزية، الجميلة، عادت إلى عجايب في جملة مَنْ عادوا. إنها فوزية التي كان قد تركها إلى السجن والعهد بينهما على المحبة قائم. كانت حلوة وطريفة، وفوق ذلك متمرِّدة وحالمة، في بلدةٍ بائسةٍ كهذه لا تحفل كثيرًا بأحلام نسائها. في غيابه حاصرها أبوها بالزواج، مثلها مثل كل الفتيات اللائي يبلغن سن الخامسة عشرة، لكن عنادها كان فوق ما يحتمل الرجال. رفضت ثلاثةً من خيرة رجال البلد، لكن أباها أقسم أمام أمها أن يذبحها إذا خالفت رغبته، فلم يكن أمامها سوى الهرب إلى أخوالها في مصوع بمساعدة أمها. بعد سنوات أرسل أبوها في طلبها وقد عفا عنها، فعادت إلى عجايب. هكذا أخبره عمر. وكان اسماعيل يود رؤيتها من أول يوم، لكنه أجّل ذلك إلى حين شفاء روحه من أدواء السجن وقهر أيامه، فقد كان في حاجةٍ إلى نقاهةٍ تعيده إلى نفسه، ثم إلى الآخرين، لكنه لم يكن يدرك أنه عاد في وقت مختلف..

تراجع دور الحركة السباعية التي دخل السجن بسبب انتمائه إليها، بل وانضمّ معظم أفرادها إلى الثورة المسلحة التي اشتدّ عودها، وانضمت إليها قطاعاتٌ لا بأس بها من الشعب. استطاعت خلال سنواتٍ قليلة التمدد في جغرافيا واسعة من البلاد من خلال عمليات

فدائية مُحْكَمة وهجماتٍ نوعية. وقابل الاحتلال ذلك باجتياحات وإعداماتٍ واعتقالات في كل مكان، وطرَحَ بدائل سياسية للتقليل من حدة الانتقادات الدولية في حين كانت الحكومة الهشّة التي جاء بها الاحتلال تبحث في العاصمة أسمرا كيفية القضاء على الثورة وخاصة بعد تحقيقها لبعض الانتصارات المهمة، فأعلنت عن انتخابات شاملة في إطار تلك البدائل اليائسة، وكان جيش من المبعوثين الدوليين وعملاء المخابرات يجوب البلاد طولاً وعرضًا تحت لافتات عديدة. كان حراكٌ محموم لم تعتَدْه البلاد طوال تاريخها..

كانت الأفكار الوطنية المتداولة سرًا بين الشباب، ترسم صورةً مشجّعة لأولى التفاعلات الوطنية الجماهيرية في عموم البلاد، إلا أن الوضع في بعض المناطق المحدودة -ومنها عجايب- كان مختلفًا بعض الشيء، إذ خَلّف مقتل الناظر حسين وزعماء آخرين تمّت تصفيتهم بين أهلهم وناسهم وفي وضح النهار نفورًا من قيادة الثورة وشكًا في قدرتها على لم الشمل الوطني لمواجهة الاحتلال طالما أن سلاحها وُجِّه أول ما وجه نحو رموز الشعب وزعمائه القبليين، وهو ما كان اختبارًا عسيرًا عجزت الثورة لاحقاً عن تجاوزه أو تبريره. التفاعل مع أخبار الثورة والحلم بالاستقلال كان ضعيفًا في أوساط كبار السن. فهؤلاء ضعفت، بل تلاشت، حماستهم بسبب صراعات قادة الثورة والأخطاء الكثيرة التي ارتكبوها، وهو ما أعطى هايلي سيلاسي الفرصة لقمع أي تحرّك ومواجهته بعنف زرع الخوف وأضعف الآمال بانتصار فكرة الاستقلال. كانت أخبار الثورة شبه غائبة إلّا في بعض تجمعات الشباب الذين كان بعضهم يلتحق بصفوف الثورة رغم ممانعة الكبار وحنقهم وخوفهم من أن يؤدي ذلك إلى اجتياح القوات الحكومية لبلدتهم.

كان الأستاذ يستمع فقط ويدوّن من دون أن يكون جزءًا من هذا الحوار إلّا في حدودٍ ضيقة جدًا..

- اعذرنا يا أستاذ، نفد الزنجبيل، وقد أرسلت أحدهم ليحضره، دقائق وتكون قهوتك جاهزة..

وضع النادل «سَمْرة» كوب الماء ومنفضة السجائر أمام اسماعيل وهو يعتذر بلطف، وقد نقل إليه - من دون أن يدري - إحساسًا مريحًا، بأنه لم يعد غريبًا. مزاجه وجلسته وقهوته عادت لتصبح جزءًا من طقوس المكان، وهذا وحده يريحه..

***

عندما خرج من المقهى، مرّ في طريقه على دكانٍ لبيع الحصائر ومشغولات السعف، كان دكانًا عتيقًا عمره أكثر من نصف قرن، يجتمع فيه ما بقي من وجهاء الجيل الأسبق في عجايب. صاحبه الحاج أبوبكر، لا يزال نشيطًا وبشوشًا رغم تقدم العمر. كان يمازح بعض أصدقائه الجالسين تحت مظلةٍ ملحقةٍ بالدكان في ذلك الصباح. بينهم الشيخ أحمد إمام المسجد والعم أبوعلي. وكان أصغرهم يناهز الستين تقريبًا، عرف الأستاذ لاحقًا أن إسمه إدريس شيكاي. ورغم أنه من الأوتاد إلا أنه من سكان عجايب الجُدُد الذين نزحوا إليها من الشعاب المجاورة إبان الحرب. قرّر اسماعيل أن ينضمّ إليهم. جذبته قهقهتهم وروح السخرية التي تميّز هذا النوع من الجلسات.

بعد لحظات من الصمت فرضها انضمام اسماعيل المستهجَن لجلستهم، كسر إدريس الصمت:

- يا أبوعلي، رعاة الأغنام اليوم هم أصحاب المزارع والمتاجر وكل الأملاك التي حولك. الكل يخطب ودّهم هذه الأيام!

- هذا هو آخر الزمان، ألم يقل الرسول الكريم، إن من علامات الساعة أن ترى الحفاة العُراة رعاة الأغنام يتطاولون في البنيان؟

ضحكوا جميعا وعلّق الشيخ أحمد:

- قال الرسول الكريم، رعاة الشاه ولم يقل الأغنام

- كلها أغنام! والله تعالى قال «أفلا ينظرون إلى الإبلِ كيف خُلقت» ولم يذكر معها الأغنام!

- الرسول الكريم نفسه كان راعيًا للأغنام يا أبوعلي، إنما أراد الله بذلك ألا يكون لأحدٍ فضل على آخر بسبب لونه أو نَسَبه أو ماله أو مهنته، إنما الفضل بالتقوى والعمل الصالح

- هذا نعرفه يا شيخ أحمد، لكن الله ابتلانا بمن هم أكثر تطاولًا، رعاة الأغنام أخفّ وطأة وأقل شططًا، فهؤلاء لا يتطاولون على ما ليس لهم ويلزمون حدودهم - ثم غمز مضيفًا- أما غيرهم فإنهم يتطاولون على عليّة الناس مستخدمين نساءهم!

- إنهم يزوجون أَمَةً من إمائهم، ما يضيركم في ذلك؟

ردّ الشيخ وضحك ساخرًا..

- ألم يجدوا لها فحلاً بينهم؟

ضحكوا، ثم استطرد أبو علي:

-ثم إن رعاة الأغنام مسالمون، قانعون بحياتهم مثل أغنامهم الوادعة.. أما هؤلاء فإن غايتهم أبعد من ذلك، وإن تحقّق لهم ما أرادو يا شيخ أحمد، لن تصلّي إلا بأهل بيتك.

كانوا يتكلمون ويضحكون حتى كاد إدريس يشرق برشفة من الشاي الذي كان بين يديه وهو يقول:

- إن الله وهبكم عزّاً في وقت من الأوقات لكنكم لم تحسنوا إلى أنفسكم حتى أضعتم كل شيء، والآن دار عليكم الزمان وأراد الله أن يكون العزّ لأولئك الذين تسخرون منهم.

- أي عزّ هذا الذي أتيتم به يا إدريس؟ لقد قفزتم إلى السطح في زمن الغفلة، بعد الرخاء. نحن ناضلنا ثلاث مراتٍ في سنواتٍ قليلة، الأولى في الحرب بين الإنجليز والإيطاليين، والثانية حين انتزعنا أرضنا ومواشينا من الإقطاعيين على رؤوس الأشهاد، والثالثة حين وقفنا إلى جانب ثورة شعبنا قبل أن تحيد عن مسارها. أما أنتم فكنتم تنامون تحت الأشجار لا مأوى لكم ولا أملاك، سوى أغنامكم العجفاء التي كنتم تتغطون بجلودها اليابسة..

لم يغضب إدريس كما توقع الأستاذ، بل ضحك وكأن الكلام لا يعنيه وقال:

- وهل انتصر في الحرب رعاة الإبل الذين تفخر بهم؟ ما أدرى البدو بالحروب والسياسة؟

- وهل كان السلاح ينزل على الثوار من السماء؟ نحن من كان ينقله عبر الجِمال من ساحل البحر المالح ومن حدود السودان إلى معسكرات الثوار ومواقعهم في الساحل وبَرْكة والمرتفعات. نحن خطوط الإمداد التي لا تخطر ببال العدو، الجمل يا إدريس هو سيد هذه الصحراء في الحرب والسلم بلا منازع، وليس تَيْسكم الذي تسلّمون له أمر القطيع..

ضحك إدريس، وعلّق الحاج أبوبكر من داخل دكانه وكأنه يريد أن يشعل الحوار..

- العبرة بالنتائج يا أبوعلي، لم يحفظ لكم الجميع ذلك

الجميل، الطليان والإنجليز والحكومة والثوار على السواء، الكل مهتم فقط بالمزارعين والتجار أمثالي وأمثال إدريس..

ضحكوا جميعاً، فقال أبو علي غاضباً..

- نحن قمنا بواجبنا، استعدنا أرضنا بالكامل وقرارنا ومجد أجدادنا، ويكفينا ذلك..

قال إدريس وهو يضحك..

- الحق لله يا أبوعلي، الذي فتح أعينكم على العزّ والجاه الذي أنتم فيه وشجّعكم على زراعة الأرض والاهتمام بها هو المرحوم الناظر حسين، كنتم قبْله تهيمون في هذه القفار مثل جمالكم البلهاء..

فقال الشيخ أحمد:

- لم تقل إلا الحق يا إدريس، هو كذلك، ولولاه لما كانت لنا أرض نقف عليها اليوم..

كان العم أبو علي معروف للجميع بحكاياته الساخرة، وفي كل مرة تأتي مناسبة تُذكره بها، يرويها بنكهةٍ مختلفة، بأسلوبٍ درامي محترف وخاصة حين يكون بطلها الناظر حسين، يضيف إليها ويحذف منها كيف يشاء، ولا أحد يجرؤ على انتقاده أو تكذيب روايته، وإلّا تعرّض لكلماته اللاذعة، فتلك ساحته التي لا يجاريه فيها أحد. بدّل جلسته ونظر إلى الحاج أبوبكر الذي يخرج من داخل الدكان وانضمّ إلى المجلس:

- كلامك صحيح يا ود الشيخ، الناظر عليه رحمة الله كان يحمي ظهره رجالٌ لا تلهيهم تجارة أو بيع، لم يكونوا مثل صاحبيك هذين، إن طلبتَ منهما ريالين لا يدفعانهما، وإنما رجال، عُذّبوا وسُجنوا ونُكّل بهم أيام الإقطاع لا أعادها الله. لكنهم لم يتراجعوا..

قال الحاج أبوبكر ممازحًا وقد استقرّ في جلسته ووضع رِجلًا على أخرى..

- ليتهم تراجعوا، ماذا كسبنا؟ لقد تفرّقت القبائل على إثرهم ولم تعد هناك سلطة مركزية تدير شأنها وتنظّم حياتها..

ردّ أبوعلي بامتعاضٍ واضح وهو ينفض يده..

- فرّقها الذي فرقها، أسأل هؤلاء المتعلمين - وأشار إلى الأستاذ - ما فعلناه يُحسَب لنا لا علينا..

اغتاظ الأستاذ من نبرة الاحتقار التي حملتها نبرة العم أبو علي، لكنه آثر ألّا يتكلم. صمتَ الآخرون لبرهة ثم أخذ العم أبو علي نفسًا عميقاً، وبلّ ريقه ببعض الماء..

-والله أذكر ذلك اليوم كما لو كان بالأمس القريب. خرج إلى مأمور الإنجليز الذي أتى من السودان لتسوية الأوضاع بعد الإنتفاضة، وكنا من خلفه لا نقلّ عن ألف رجل على ظهور الجمال والخيول، وعلى مقربة منا اجتمعت القبائل الأخرى في مواكب ملوَّنة. رفع يده البيضاء في السَّمَاءِ كما يُرفع العَلَم ثم أخبر المأمور أنه مفوَّضٌ من أهله، وأهله لا يطلبون من حكومة المملكة إلا إدارة شأنهم وأرضهم وأنعامهم بأنفسهم، وقد كان له ولنا ما أردنا. ثم تبعتنا القبائل وانفرط العقد إلى يومنا هذا..

ضرب بيده على فخذه ثم سكت وقد بلغت الغصّة حلقه..

-عليه رحمة الله، رغم أن السنوات التي مرت على مقتله قليلة وتعدّ على أصابع اليد، لكن وكأنها مئة عام، كانت هيبته تملأ هذا الفراغ الممتد من البحر إلى الجبل. الله ينتقم منهم، الله ينتقم منهم..

عند الحديث عن مقتل الناظر حسين تذكر الأستاذ أباه أيضًا وانحدرت دمعةٌ دافئة على خده لكنه أخفاها سريعًا. أطرق الجميع قليلاً، ثم استطرد الحاج أبوبكر:

- ثم صوّت هو ومن معه من الزعماء في البرلمان لصالح الوحدة مع اثيوبيا وسلّموا البلاد إلى «الأَمْهَرا» على طبقٍ من ذهب، أهذا هو الإنجاز يا أبوعلي؟

تنهّد:

- حتى ولو صوت ذلك البرلمان بالاجماع لصالح الإستقلال لوَجد هايلي سيلاسي ألف طريقة وطريقة ليضمّ البلاد إلى حكمه. أنتم رعاع لا تفهمون السياسة، كانوا يعرفون أن تصويتهم تحصيل حاصل ولن يأتي بالحرية أو يوقف الأطماع، إنما الثورة هي التي ستحمي البلاد وتأتي بالحرية، لكن الثورة أول ما اشتد عودها كافأتهم بالقتل، فانفضّ الناس من حولها..

سكت قليلاً ثم أردف:

- وقتها كان إدريس البخيل مختبئاً خلف ذلك الجبل، يستحلب ضرع معزته العجفاء في فمه، حتى لا يدفع لنا مساهمته في دعم الثورة..

فانفجر المجلس مقهقهًا، وكان قد حلّ أذان صلاة الظهر. فقام الشيخ أحمد من مجلسه متوجّهًا إلى المسجد..

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب، أنت يا أبوعلي لا أحد يقدر عليك في الكلام..

بدأ الجميع يستعدون للانصراف، وقام أبوعلي من مجلسه بصعوبة. مدَّ له الأستاذ يده يساعده لكنه رفض بحِدّة، فوقف يراقبه. كان يحاول أن يعدل ظهره الأحدب بصعوبة، ويرفع عن الأرض وجهه

الذي ذبُل على بقايا وسامة بائنة في تقاطيع الوجه والأنف المستقيم والحواجب البيضاء الكثة، والأسنان القوية الثابتة. اعتدل واقفًا بعد جهد. مطّ ظهره لبرهة، كأنما يرسم خط سيره قبل أن ينطلق، ثم مشى نشيطاً متحفِّزًا، منحنيًا على عصاه كأنما يبحث في الأرض عن شيءٍ ضاع منه..

(10)

بلغ الخبر أمّ محمود، لكن ما عساها تفعل؟ وهي التي ليس لها سَنَد من أخٍ أو زوجٍ أو ولد؟ والنساء في بلدٍ كهذه عاريات حين لا يكون حولهن رجال. منذ أن التحق محمود بالثورة قبل خمسة أعوامٍ أو أكثر، ثم ضاع أثره في الحرب، لم تبق لها من رائحة الرجال سوى ذكرى لا تُرجى مواساتُها، مثل حكمةٍ قديمة. وهي التي -قبل غيابه بسنوات- فقدت زوجها وأخويها في ليلةٍ واحدة، قتلهم «الشِفْتة»، قطاع الطرق، مع خمسةٍ من رفاقهم. ماتوا بسبب أمانتهم، فماتوا دفاعًا عما لم يكن ملكهم! ولعل ما ضاعف من حزنها لاحقاً، أن مواليهم -آل حاج حامد- لم يحزنوا إلّا لفقد أبقارهم. أما من مات من الرجال فقد كانوا من الأحفاد، وذلك وحده كافٍ لأن لا يلومهم أحدٌ إن سألوا أم لم يسألوا، حتى انقطعت سيرتهم إلا من شاعرٍ صعلوكٍ من بني جلدتهم، تغنى بتلك الشجاعة النادرة.

طافت بخاطرها أبياتٌ من مرثيته الموجعة وهي تخرج من دارها في العتمة، وتتجه ناحية الجدار القريب لتستند إليه وتتخذه دليلًا إلى وجهتها. غُصّة الألم صعدت إلى حلقِها رغمًا عنها، وأشعلت في صدرها حقدًا عظيمًا على كل ما حولها، على مواليها وعلى موالي

زوجها وعلى أهلها، بل وعلى حياتها التي لم يعد لها معنى. زفرت بقدر ما احتمل صدرها البائس ثم بصقت على الأرض لعلّ طعم الذكرى يتغير. فكّرت أنه عليها أن تنسى الحاج حامد، يكفي ما تحسّ به الآن، ولا تريد أن تجترّ أوجاعًا لا طائل منها، بل إنها لا تريد أن تفسد الأحزان رغبتها في أن تبدو قويةً، متماسكة، خاصةً وأنها قد عزمت أن تواجه محاولة سلبها أعزّ ما تبقّى لها في حياتها..

الليلة الفائتة بلغها الخبر من أم فاطمة، جاءتها وهي بين الحيرة والحرج، وخرجت من عندها في وقت متأخّر من الليل وهي تلعن أقدار النساء: «يرتكب الرجال حماقاتهم من دون أن يأبهوا لشيئ ثم يكون على النساء أن يصلحن ما أفسدوا، أيّ عدلٍ هذا؟».

لم تستطع أم محمود الصبر حتى تطلع عليها الشمس. صلّت الفجر وخرجت في العتمة. يائسةً، وحيدة، لم تجد ما يَسند ضعفها سوى حواف الحوائط الطينية، الخشنة، وصورٍ قديمةٍ باهتة لجغرافيا عجايب في ذاكرتها المجعّدة، ريثما تصل إلى بيت كبير الأحفاد فرج السّقا قرب النهر، فهو وحده اليوم الخصم والسنَد، وما أعجب ذلك..

تسير بخطواتٍ مضطربةٍ، تائهة. الطريق من بيتها إلى هناك، ينعطف مرتين قبل أن يأخذها إلى الساحة الواسعة التي تتوسط عجايب، ثم يمر بطرفٍ منها ليأخذ مساره الأطول بين دارَيْ الناظر محمد، دار العائلة ودار الضيافة، القائمتين على أول الطريق مثل قلعتَي حراسة، ثم ينحدر الطريق نحو بيت فرج السقّا في آخر الدرب قبل أن تتمدد حقول الذرة والبرسيم لمسافةٍ قصيرةٍ، فاصلةٍ بين النهر والبيوت.

ما أطول الطريق على أم محمود هذه المرّة! أيام كانت في كامل عنفوانها كانت تقطع هذه المسافة جيئةً وذهابًا ما بين قيام الصلاة

وانتهاءها. لكن ومنذ أن أنشب الموت أظفاره حول دارها، ثم غاب إبنها الوحيد أو مات -الله أعلم- تبدلت أحوالها. هجرها الناس إذ اتهموها بالخرف أو الجنون. لم تكن لتكترث أيضًا لولا أن الزمن كافأها على صبرها بطريقته. هزُل جسدها، وانكمش جلدها على عظامها الهشّة، ثم ضعُف بصرها وأقعدها في البيت معتزلةً ضجيج الحياة ومخالَطة الناس. لم يعد يعنيها شيء من كل ما يجري في عجايب، بل لم يعد يعنيها من كل الدنيا سوى هذا الأمر. هو الخيط الوحيد الذي بات يربطها بهذه الحياة، إن عاشت فإنما تعيش من أجله، ولو انقطع انقطعت صلتها بها. وما خروجها في هذا الصباح إلا دفاعٌ عن ذلك، دفاعٌ عن حياتها بوجهٍ من الوجوه..

لم تكن العتمة قد انقشعتْ تمامًا، لكن بصيصًا ضئيلًا من النور كان يتسلل إلى عينيها المطفَأتين، يحمل إليهما أشباحًا باهتةً يصعب تمييزها، لكنها كانت تتبع المسار الذي في ذهنها على أي حال، وقد انتظمت أخيرًا خطواتها المضطربة بموازاة الحائط. آخر بيتٍ في الصف إلى اليمين هو بيت حاج حامد، تعرفه تمامًا. كل البيوت التي حوله -بما فيها بيتها- تتكئ عليه مثلما يتكئ السفح على الجبل. تتذكر الآن أنه بيت واسع، بحوش فسيح يتسع لعشرين سريرًا أو أكثر في المكان المخصّص للرجال. بابه الأسود الكبير يقود إلى مجلس الرجال الواسع، مجلسٌ لم تره قط لكنها تعرف أن بابًا خلفيًا صغيرًا تدخل منه النساء يقود إلى صالةٍ واسعةٍ وثلاث أو أربع غرفٍ ملحقةٍ بها للضيوف القادمين من جهة الساحل الداخلية أو من السودان والذين لا ينقطعون عن المجيئ صيفًا أو شتاءً..

عندما لامست أصابعها العجفاء المعروقة حائط السور الطويل، تناهت إلى أنفها رائحة القهوة الممزوجة بالزنجبيل، وصوت إذاعة محلية كريهة، ارتبطت في ذاكرتها بالموت والحروب. وسمعت حمحمات حاج حامد، المتخمة، الجشعة. أحسّت بألم آخر تسلل إلى بطنها فجأة، شعرت بتقلصاتٍ في أمعائها، أخذت نفَسًا عميقاً ريثما تعبر هذه اللحظة الكئيبة. لكن ما إنْ انعطفت إلى أول الساحة حتى أنعشها نسيم الصباح الصيفي الرطب، مختلطًا بروائح البرسيم والروث والقهوة. وقفت لبرهة، ملأت رئتيها الضامرتين قدر ما تحتملان، ثم جلست ترتاح على جذعٍ قديمٍ ممددٍ تحت شجرة النيم، وتنهّدت..

«ما أعظم ما تركوا،
تركوا أمَةً قد تعدلُ ألف رجلْ،
رغم الأحقاد ورغم الذُّلّ»

قالت تواسي نفسها بآخر كلماتٍ في تلك المرثية اللعينة لذلك الشاعر الصعلوك. ها هي تتذكر الآن من جديد رغمًا عنها، لكنها في لحظة اليأس هذه قررت أن تتجاهل كل أوجاعها الأخرى وتستسلم للوجع الوحيد الذي يُشعِرها بمعنى وجودها- محمود. وجَعَها وسبب تمسّكها بتلك الحياة التي ما عادت ترجوها. تذكرته، وملأت روحها المتعبة بأطيافٍ مختزنةٍ من روحه المرِحة، العذبة. أغمضت عينيها واستسلمت لها. في تلك اللحظة لم يكن محمود وحده في ذهنها، بل كان معه وجه آخر لروحٍ أخرى، رقيقة كالنسمة، هي فاطمة الجميلة. هنا تحت هذه الشجرة -التي تتمايل الآن بكآبة وكأنما تقوم فوق مقبرة- كانا

يجلسان بعد ان تنتهي فاطمة من دروس الخلوة وينتهي هو من المدرسة. يجلسان، يلعبان، يتسابقان حتى يبقى من الظلّ قليله ساعة الظهيرة، فتأتي بهما إلى البيت للغداء. ثم تكرّر ذلك عند مغيب الشمس، وتأخذ فاطمة إلى أمها بنفسها وتعود. كان محمود وقتها زينة الصبيان الذين أنجبتهم كل البيوت. وقد أحبّته الصبية فاطمة التي كانت رغم كل ما حبتها به الطبيعة، قليلة الحظ في عيون الآخرين، وتلك مؤامرة التاريخ والأنساب. لكنها كانت عزيزة في عينَي محمود وأمه، مثل قطعةٍ أثريةٍ نادرة..

لا تتذكر أم محمود مقدار الوقت الذي قضته مع تلك الأطياف الحميمة، لكنه وقتٌ مرّ سريعًا. فتحت عينيها المطفأتين على طبقاتٍ من أنوار الصباح تتكثف من حولها، وعلى زقزقة العصافير الجائعة وهي تحتفل بمجيئ الصباح الجديد كما لو أنه سينكص عن وعده مثلما يُخيّل لأغلب الفقراء «فليْلُ الجائعين طويل». تحاملت على عجزها مرةً أخرى ثم دارت نصف دورة حول الشجرة. كان الأفق قد نشر رداءً خافتاً من الضوء في الأنحاء فانتصبت دارا الناظر في وجهها بشحوب، وتباعدتا بمقدار ما لاح لها أول الدرب الذي سيأخذها إلى بيت فرج السقّا في نهاية المطاف..

عبّت هواءً جديدًا، خالطته رائحة خبز، وضوضاء خفيفة تصدر من داخل البيوت، تختلط ببكاء أطفال وثغاء معزات ورفرفة أجنحة وطقطقة أوعيةٍ ومواقد. خُيّل إليها وسط كل ذلك أنها سمعت صوته ينادي عليها كما كان يفعل تلك الأيام، وهو يجري ليقفز خلفها على الحمارة السوداء الهزيلة التي كانا يجلبان الماء على ظهرها، أو ينادي عليها من خارج الدار حين يعود بمعزاته الصغيرات من أحد الأودية القريبة، جائعًا، متعبًا. سمعت كلمة «يُمّه» كما استقرت في ذاكرتها قبل

سنين طويلة. التفتتْ لكنها لم تَرَ شيئاً. وحده حفيف أغصان النيمة كان يصلها هامسًا، ساخرًا من خواطرها. مسحت عينيها برفق ثم استدارت وتوسّطت الدرب وتوكلت على الله. سارت بحماسة هذه المرة مع انحدار الدرب نحو بيت السقّا البعيد..

أصوات الحياة داخل البيوت كانت تتصاعد بإيقاعٍ هادئ. وكان الرمل يتمدد رخوًا تحت قدميها كلما اقتربت، ونهيق حمارٍ بدأ يعلو فوق تلك الفوضى كأنما ينذر بشيئ كريه. لم يخالجها الشك في أنه حمار فرج، وأنها الآن قريبة من بيته، وأنها قد سلكت المسار الصحيح نحو اللحظة التي تهيأت لها منذ أن بلغها النبأ ليلة أمس، ومنذ أن بلغها لم تنم. لحسن حظها كان فرج السقّا صاعدًا من ناحية الحقول وعل كتفه رزمة من البرسيم والقصب. وما إن رأى شبحها يقتربُ بخطواتٍ وئيدةٍ، حذرة، حتى رمى ما في يده على الأرض وخف إليها وقد أدرك أنها تقصده:

- كنتِ أرسلتِ في طلبي يا أم محمود، بدل أن تكلّفي نفسك عناء المجيء هذه المسافة..

زمّت شفتيها بألم حين رأت خياله يقترب. أشارت بيدها إشارةً مبهمة وهي تتداعى إلى الأرض. حاول أن يتلقفها لكنها نفضَتْ يده..

- تظنونني مِت ؟

-لا عاش من يظن ذلك يا أم محمود، أنت الخير والبركة..

راحت تهمهم ببعض الكلام وهي تلملمُ أطراف ثوبها حول ساقيها العجفاوين بأصابع مرتعشة، بينما جلس السقّا إلى جوارها كما يليق بالأمهات. مسح على رأسها بحنوٍّ أملًا في استرضائها، لكنها أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى..

- لن أغفر لكم ما تفعلون، أقسم بالله..

- استغفر الله العظيم..

قال، ثم أمهلها قليلاً لعلها تسترسل، لكنها آثرت الصمت. تململ في مكانه ثم غيّر نبرة صوته..

- لم يحدث شيئ يا أم محمود، ما يزال الأمر مجرد كلام..

أدارت وجهها نحوه بحدّة..

- إذا بدأ الكلام حول أمرٍ كهذا فإنه لن يبقى طويلاً مجرّد كلام، وأظنك تعرف هذا جيدًا..

لم يحتمل نظرة التخوين في عينيها فخفض بصره إلى الأرض، ينبش بأصابعه حول حصاة صغيرة مغروسةٍ في الرمل..

- لن نستطيع أن نحجر على أحدٍ في قوْل أو طلبِ ما يريد، نسمع منه ثم نردُّ عليه. هذه هي الأصول..

- الأصول؟ هل ما يزال لهذه الكلمة معنى عندكم؟

إزدرد ريقه ليقول شيئًا، لكنها لم تمهله..

- الأصل أن الخِطبة لا تجوز فوق أختها، وأنت الكبير الذي ينبغي أن يردّها من الكلمة الأولى، لا أن ينتظر حتى يُقال له افعل أو لا تفعل. هذا لا يليق بالكبار..

شعر بوخزةٍ، وهمّ أن يقول شيئاً لكنه عدل عن ذلك. رمى الحصاة نحو هدفٍ مجهول..

- لن يحدث إلا الخير يا أم محمود، لن يحدث إلا الخير..

- ولدي حيٌّ يا فرج، ولدي لم يمت في الحرب كما تظنّون، وسيعود ليتزوج من فاطمة، شاء من شاء وأبى من أبى. ينبغي أن تعوا هذا الأمر جيدًا وإلا تركتُ لكم هذه الدنيا وحمّلتكم الوِزر..

وقامت من مكانها دفعة واحدة. ترنّحت من فرط حماستها حتى كادت تقع على حجره، لكن عندما اعتدلت في وقفتها بصعوبة اضطر أن يقف، ويضع وجهه في وجهها للمرة الأولى. لم يقل شيئاً ولم تقل. سادت فترة قصيرة من الصمت لم يعكّر صفوها إلا نهيق حماره المتصاعد في الجوار كلما رأى كومة البرسيم والقصب ملقاةً على الأرض. داهمها النشيج فألجمته. قررت ألا تُظهر ضعفها العجائزي في هذه اللحظة بالذات، عليها أن تدّخر ذلك إلى وقت آخر، كسلاحٍ أخير إن لم يُجدِ الكلام. مسحت على وجهها بكفيها المعروقتين، المرتعشتين..

- استغفر الله العظيم..

- إطمئني يا أم محمود، ما يزال الوقت مبكرًا على كل هذا الحديث..

لم تكن نبرته واثقة، وكذلك هي لم تثق بكلماته، وكأنهما يشتركان في دفع شيءٍ واحدٍ لكن في اتجاهين متعاكسين. أم محمود كانت تعرف أن معركتها لن تكون مع فرج وحده، ربما ستضطر إلى خوضها ضد كثيرٍ من الأحفاد في مقبل الأيام، وأن خوضها متفرّقة، مرة مع هذا ومرة مع ذاك قد يهوّن عليها كثيرًا، قد تكسب نقاطًا مهمة على امتداد هذا الطريق الذي لم تكن تعرف كيف سينتهي. لذلك، وفيما هي تستدير عائدة قررت أن تترك شيئاً في ذهنه، ربما يحدث في إثره شيءٌ صغير يغيّر كل شيئ لاحقًا..

- فاطمة لن تقبل هذا الأمر، هل فكّرتم في هذا؟

مشت ولم تنتظر جوابًا. تابعها قليلاً ثم فضل الصمت وعاد ناحية حماره. كان يمشي وهو يلعنُ اليوم الذي وضعه في هذه الخانة المرهقة، خانة الكذب والمواجهة مع الضعفاء التي لم يتمناها مطلقًا.

فهو لم ينسَ ألم الضعيف حين يحسّ عجزه أمام قويّ. وهو رغم اعتزازه بالزعامة التي وصل إليها، ضعيف أمام أوجاع المتألمين. بذل جهداً مضنيًا طوال عقدين ونيف لأن يجنبهم بعض ذلك، نجح قليلاً وأخفق كثيرًا، ولذلك راح يبحث عن وسائل تمكّنه من تحقيق أحلامه. لكن ومنذ أن تقدم ذلك المأمور لخطبة فاطمة بدأت الأمور تتغير، إذ قرر رفاقه في مجلس كبار الأحفاد -لأمرٍ غامضٍ- أن يذهبوا في هذا الشوط إلى نهايته غير عابئين بوجع أم محمود. «وجعٌ واحدٌ أهون من أوجاعٍ كثيرة عمرها عشرات القرون»، هكذا قالوا له. أما فرج فقد كان أكثرهم تعاطفاً معها، تحسّب كثيراً لغضبها، بل ورتّب في ذهنه جُملاً واسعةً فضفاضة، ربما تجعل الأمور عائمة ريثما يقضي الله أمرًا، لكن الكلمات هربت منه في اللحظة الأخيرة، استعصت عليه حتى بدا صغيرًا أمامها. فكّر وهو يضع حزمة البرسيم أمام حماره، كيف سيواجه سادة عجايب، ودهاقنة القبائل حين تبدأ المعركة الحقيقية؟ قرّر أن يخطط للأمر جيدًا. هذه مجرد خطوة أولى ستليها خطوات أخرى أهم، وإلّا لن تحدث المعجزة المنتظرة. وضع ما بقي من حزم القصب والبرسيم أمام حماره بضجر، ثم دخل إلى داره..

(11)

ريثما يبدأ دوامه في المدرسة اعتاد الأستاذ أن يُمضي بعض الوقت في المقهى كل صباح. يشرب قهوته، يدخّن ويستمع الى الأخبار. فهو لا يتخلّى عن هذه العادة اليومية. جلس في ركنه الأثير وجاءه سمرة بقهوته التي يفضلها بالزنجبيل الحار، ومعها منفضة

السجائر. كان يطالع صحيفة «الوحدة» التي تصدرها سلطات الاحتلال. قرأ فيها شيئًا مقتضبًا عن فرج السّقا وعن الأحفاد. خمسة أو ستة أسطرٍ مبتسرة غير واضحة الأهداف. حاول أن يكملها في ذهنه، من واقع معرفته بما يجري في بلدته. رأى شيئًا من التضخيم في ما عرضته الصحيفة، واستبعد أن يكون الأمر على هذا النحو. مهما يكن، الأحفاد بضع عائلات، وفي أحسن الأحوال قبيلة..

ومثلما تحدث الأشياء بمصادفات غريبة فإنه في اللحظة التي قفز فيها الرجل إلى ذهنه جاء، يسيل على وجهه بهاءٌ لافت. دخل مع رهطه إلى المقهى، فابتسم الأستاذ لهذه الصدفة. كانوا أربعة، جلسوا على طاولة مقابلة لطاولته. كان الرجل قبالته وجهًا لوجه، وآخران عن يمينه وواحد عن يساره. حينما التفت نحوه ابتسم له ابتسامة لطيفة ما زاد انتباهه له أكثر. إنه حقاً باذخ الهيبة، نظيف الهندام، يتحدث بهدوء ويستمع باهتمام، وينظر إلى محدّثه بمودّة. وظلّ بين وقتٍ وآخر يشمله بنظرة ودودة وكأنما ينتظر الفرصة ليقول شيئًا..

رغم طول السقّا ونحوله البائن، إلا أن وجهه الأسمر يمنح الناظر إليه إحساسًا بالراحة. خداه المنتفخان قليلاً، تتوسطهما ثلاثة خطوط دقيقة من الشلوخ في كل جانب، وتحدّهما من الأسفل لحية سوداء رفيعة خالطها بعض الشيب، أذناه صغيرتان نافرتان قليلاً تحت ثقل عمامته التي ترسم فوق جبهته الصغيرة زاوية حادة. أما عيناه فطيّبتان، يحني رأسه إلى الأسفل حين ينظر إلى محدّثه، فيرتفع حاجباه قليلاً وتبدو العينان واسعتين، يظهر فيهما الود. بعد تبادل عدة نظرات ابتسم له ودعاه إلى طاولتهم، ولم يجد بُدًّا من قبول الدعوة..

- من حسن حظنا، أن نرى كبير الأحفاد في المقهى اليوم..

قال الأستاذ ضاحكًا وهو يسحب الكرسي ليجلس. وضحك السقّا أيضًا ضحكة قصيرة رائقة. بانت أسنانه المنتظمة، وطغت وسامة وقورة على وجهه الرحب، وعلى نبرة صوته.

- طالما أني تصدرت لخدمة الناس، عليّ أن أكون حيثما يكونون يا أستاذ، سواء في السوق أوالمسجد أوالمقهى، أو في أي مكان. ولو أنك طلبتني في المدرسة عندك لن أتردد. وضحك مرة أخرى ضحكته القصيرة.

كان يتحدّث ويحرِّك يده اليمنى في الهواء، يؤشر بها إلى كل الأماكن التي مرّ عليها في حديثه، ثم وضعها فوق أختها على عصاه ومسح عليها، وصاحباه مطرقان، ساكنان عن الفعل والكلام، كما لو كانا يفسحان لهيبته أن تكبر في المكان، فيما كان الأستاذ يفكّر في تفاصيل لم تكن مهمة في الماضي.

قال السقّا:

- أهلاً بك على كل حال، سعداء بعودتك إلينا، قل لي كيف وجدت عجايب بعد كل هذه السنوات؟ أما زالت كما تركتها؟

- لا بأس، الدنيا كحالها والناس كما تركتُهم، بسطاء، طيبون وإن كان الزمن قد غير فيهم وفيها أشياء كثيرة، لعلها طباع الحواضر زحفت إلينا..

ضحك السقّا من جديد ضحكته الرائقة..

- يبدو أن بداوة أهلك ما زالت تمور في دمك..

ثم ربّت على يده بمحبة، وكأنما أراد أن يخفف من نبرة السخرية التي صبغت كلامه، ويعتذر على طريقته، ثم قال:

- البداوة ليست شرًا محضًا، فهي إن شئت الطور الأول للدولة،

و«الحضارة إنما هي تفنّنٌ في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، فصار طور الحضارة في المُلك يتبع طور البداوة، ضرورة لضرورة»، هكذا قال ابن خلدون عليه رحمة الله..

قال ذلك بتواضعٍ وأدب، أدهش الأستاذ فوق ما أدهشته معرفته بابن خلدون، وهو السقّاء الذي لم يتجاوز تعليمه خلاوي القرآن، فاندفع في الكلام..

-أوتعرف ابن خلدون؟ وتقرأ له أيضًا؟

ضحك..

- صحيح أنني لم أدخل مدرسة في حياتي، لكن الكتب لا تحتاج إذنًا من المُدرّسين كي تدخل البيوت، المعرفة ملك مشاع، أليس كذلك يا أستاذ؟

- أعذرني لم أقصد ذلك..

صمت قليلاً، وهو يتأمل ما حوله..

- لا عليك، إنما هي دعابة لا أكثر. عجايب كلها تقدِّر ماقمت به في تعليم أولادها من دون أن تفرق بينهم.

لا أحد -في عجايب أو غيرها- يعلم من اختار فرج السقّا لهذه المهمة ولماذا؟ كما أن أحداً لم يعترض أو يستنكر، ما اكتشفته عجايب وربما البلاد كلها، أن السقّا وخلال أكثر من عشرين سنة خلت لم يتوقف عن الكتابة إلى الحكومات المتعاقبة، وإلى أعلى مستويات فيها، رغم أنه لم يتسلم ردًا على أي من رسائله.، لكن ذلك لم يصِبه باليأس أو الإحباط في أي مرحلة. ذلك ما قرأه الأستاذ في الصحيفة قبل قليل، مصحوبًا بصورة قديمةٍ للسقا في حجم صورة جواز السفر. وكما تقول الصحيفة، استمر تدفّق الرسائل في اتجاه واحد، ومع ذيوع

أخبار الأحفاد في البلاد سرّب مسؤولون إلى الصحافة بعض تلك الرسائل، وقد وعدت الصحيفة بنشر بعضٍ منها تباعًا، لكن ماذا كتب السقّا إلى الحكومة؟

كان يتحدث إلى أصحابه بصوتٍ خفيض، ثم، وكأنما تذكر شيئًا مهمًا، أو أنه انتبه إلى وجود الأستاذ، نظر إليه من تحت حاجبيه نظرة محيطة..

- نسينا أن نسألك يا أستاذ؟ بعد كل ما سمعت ورأيت، هل تظننا على حق أم شطط؟

كان سؤالاً مباغتاً، لكن أنقذه سَمْرة من المباغتة حين جاء ليضع الماء والقهوة أمامهم على الطاولة، ما أتاح له لحظات للتفكير:

- مالي ولهذه الأمور، هذا شأن الزعماء والأعيان..

ابتسم كلاهما معًا.

- أنت واحدٌ منا، بل أنت من وجهاء البلد، ولا بدّ أن لك رأيًا في ما يجري، ثم إنك تُعلّم أولادنا، ولاشك أنهم سيسألونك يومًا عما يحصل. وحتى ولو لم تقل لهم رأيك اليوم، ستضطر إلى ذلك غدًا..

خطر لإسماعيل أن يحدثه بشأن ما قرأ في الصحيفة، مدّ يده لكنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، فطواها ووضعها جانبًا، إلى جواره في المقعد وقال:

- أظنكم على حق، لكنكم تفعلون أشياء لا أفهمها..

أومأ له باهتمام ليتابع، فيما بدا القلق في عيون صاحبيه. تردّد الأستاذ قليلًا ثم أكمل:

- ما علاقة كل ما يجري بفاطمة؟ لماذا طفح كل شيئ إلى السطح فجأةً مع خبر زواجها؟ كأنكم تقايضون بها، أو تصيحون

على بضاعة؟ ما لهذه المسكينة وصراعاتكم، وكيف ترضى وأنت تطمح إلى التخلّص من الظلم أن تقدَّم تلك المسكينة كأضحية، وأن تنتزعها من حياتها التي تعرفها ليُرمى بها في حياة لا تعرف عنها شيئًا؟

ضحك السقّا ضحكة قصيرة، وطرق بعصاه على أرضية المقهى طرقاً خفيفًا. اتصلت ضحكته من جديد بذات النبرة الهادئة وتحفّز في جلسته، إلى الأمام قليلًا:

- إسمعني جيدًا يا أستاذ، لعلي لن أقول هذا لأحد، أو ربما لن يفهمه أحد كما أتوسّم ذلك فيك، وأرجو أن تحتملني قليلًا.

- ليس الأمر كما تعتقد، ولعلك معذور، في قساوة حكمك لأن محمود، عليه رحمة الله، صديقك، ولو أنه موجود لما زوّجناها لغيره صدّقني، لكنها إرادة الله، كل شيئ في هذا الوجود يسبح في ملكوت الواحد الديان، يحرِّكه كيفما يشاء، يضعه لحكمة ويرفعه لحكمة، وحكمته تدركها البصيرة لا الأبصار كما يقول مشائخنا..

أومأ صاحباه على يمينه برأسيهما يؤكدان، وركز الأستاذ نظره في وجه محدّثه وقال:

- لن أقول لك ما يتداوله الناس بشأن حقيقة استشهاده يا شيخ فرج، هذا أمر تعرفه. لكن أود أن أذكّرك بأن خاطبها الجديد في عمر أبيها تقريباً، وهذا ظلم لا يقل سوءاً عما تشتكون منه من ظلم.

ارتشف السقّا من فنجانه رشفةً طويلة هادئة، وبعد أن أعاد الفنجان إلى مكانه على الطاولة، وضع ذقنه على كفيه فوق عصاه وتلفّت حوله.

- سيأتي يوم تتضح فيه كل الأمور ولاشك، وستحكي لتلاميذك عن كل ما جرى. تململ وأضاف: لعلّ في وجودك بيننا حكمة أيضًا..

ثم رفع ذقنه عن العصا، واستقام وأضفى على وجهه طيف خشوع، وأردف:

-ظاهر الأشياء غير جوهرها يا أستاذ، إنما لو تأملت هذا الكون كله ستجده يحفل بحقيقة واحدة تدور حولها نواميسه الأخرى. وفاطمة، إنما هي ناموس، وكذلك أنا وأنت والناظر والمأمور والشجر والحجر والأحفاد والأوتاد والاحتلال، وكل شيئ. لا غالب في هذه الدنيا. إرادته فقط هي التي لا غالب لها، وسنذعن لها جميعًا في نهاية المطاف شئنا أم أبينا..

وسكت. ظنّ إسماعيل أنه يعطيه المجال ليتكلم. فقال:

- ونعمى بالله، لكن...

إلَا أن السقّا لم يكن ينتظر تعليق الأستاذ، فأكمل حديثه مقاطعًا:

- لم يكن بمقدور الأحفاد أن يتخففوا من عبء الزمن من غير ثمن، وعبء الزمن مخاتل كما تعلم، يتراكم مع الوقت مثلما تتراكم ذَرّات الغبار ثم تصبح تلّاً عظيمًا يومًا ما. قد يبدو الزمن هادئًا يسير في خطّ مريح، لكنه يتحول في لحظة غادرة إلى كتلة من الأحمال التي لا تُطاق، ثم تحدثُ معجزة، تذيب الأشياء في بعضها، تماهيها في ما حولها، تحوِّلها وتخط تاريخًا آخر، ثم يبدأ عَدٌ جديد ليحدث ذلك التغيّر في الزمن، ذلك الذي تسمونه -في كُتبكم- التحوّل العظيم..

الحوار، وكلام السقّا، لفت كل مَنْ كان في المقهى. حتى سَمْرة جلس في الجوار يسترق السمع، وجاء شباب آخرون وتحلّقوا

بالقرب منهم. اتسع المجلس حول طاولة السقّا على نحو قلّما يحدث. ولعل السقّا وجدها فرصة ليسترسل وليقول أشياء كثيرة طالما أن اللحظة منحته فرصة قد لا تتكرر بسهولة، هي فرصة الحديث إلى الشباب. فأكمل بصوتٍ هادىء واضح:

– هل رأيت يا أستاذ كيف يدخل النمل بيته صفًا متراصفًا وليس أفواجًا؟ وهل رأيت كيف أن عسل النحل لا تصنعه نحلة واحدة وإن أوتيت من القوة مهما أوتيت؟ هل رأيت كيف تهاجر الطيور أسرابًا في السماء فتطير خلف قائد وحيد؟ يميل إلى اليمين فتميل معه، ويميل إلى اليسار فتلحق به، وإلى الأعلى والأسفل. يضبط إيقاعها ذلك الطائر المفرد في الأمام، الذي علّمه الله جغرافيا البلدان وأحوالها ومناخاتها. هل خلق الله ذلك كله اعتباطًا أم لحكمة؟

وهذه الأرض التي تفور حينًا وتجدب حينًا، وذلك الغيم الذي يرمي مطرًا حيناً ولا يرمي أحيانًا أخرى، وفي قلب المطر صواعق وبروق، أليس هذا جدير بالتأمّل؟ الحياة لا تستقيم إذا قامت على الأخذ دائمًا، وليس عدلاً أن يظل طرفٌ فيها يعطي ولا يأخذ، حتى النبع يا أستاذ، حتى النبع كلما نضحَ عَذُب، كذلك الأحفاد، عاشوا وسط ذلك كله، صابرين محتسبين في الرخاء والشدة، لقد منحهم التاريخ دورًا جاحدًا وضئيلاً، وقد جاء الوقت الذي تتغير فيه الأدوار..

عَلّمْ أبناءنا أن الحرية لا تأتي بغتة، إنما وميضها هو الذي يظهر في لحظةٍ في الأفق، لحظة خاطفة لا تدركها إلا بصيرة نافذة علّمها الله، تمتلئ بها كما يمتلئ قلب العاصي بنور الإيمان فجأة، ثم يتلبّسه ويتّحد مع روحه التائهة فتهتدي. لكن هذا وحده لا يكفي، إذ يجب أن يصل الضحايا إلى لحظة عدم الخوف من الجلّاد، حتى إذا الجلاد

رفع سوطه ذات يوم ولم يرَ خوفًا في أعينهم أو رعشة في جلودهم، عندئذٍ، وقتها، في ذلك الوقت الذي لا يخطئه أحد، حتى الجلّاد نفسه، لن تحتاج سوى أن تبذر نبتة التغيير كما تبذر النوى في الحقل. تملأ قبضتك وتنثر في كل اتجاه، في الطريق، في حافلة عمومية، في حديث عابر، في طابور للخبز، في عزاء أو جنازة، ثم تراها بعد حين، تكبر وتورق وتثمر..

الأهم من المعجزة ذاتها يا أستاذ هو الرغبة في حدوثها، هو الإيمان بأن الأشياء العظيمة قد تنبت وسط أشياء تافهة فجأة. حين قاد الناظر حسين وأنداده من زعماء القبائل ثورة الفلاحين والرعاة كانوا يقصدون ذلك، وحين رمى «عَوَاتي» أول طلقة في الثورة من بندقيته العتيقة الصدئة كان يؤمن بهذا أيضًا ولا شك. نحن نفعل الآن ما فعلوا، وما فعل غيرهم من قبلهم. القفزات العظيمة يا أستاذ لن تحدث إلا حين نؤمن أنها ستحدث..

تداخلت أصوات الشباب بعد ذلك، يناقشونه في ما يجري، كلٌ حسبما فهم، وكان يرد على كل واحدٍ منهم بلا كلل. كانت أصواتهم تتزاحم في ذهن الأستاذ وقد سرح بعيدًا وهو ينظر إلى نقطة عميقة في فنجان قهوته. حتى أنه لم ينتبه إلى السقّا حين ألقى عليه التحية مودّعًا.

تداعت أمام عينيه مشاهداتٍ كثيرة لحياة بعض الأحفاد، يذكرها الآن باهتة، كما لو كانت تتحرك خلف طبقة كثيفة من الغبار، شيئ منها في طفولته بصحبة محمود، وفي صباه وفي شبابه. وهو فوق كل ذلك مدرس للتاريخ، قرأ وسمع وعلّم وتعلّم، كان يحاول أن يصنع من كل ذلك صورة بانورامية متصلة، ممتدة، عابرة للسنوات..

كان صوت فرج السقّا يرنّ في أذنه، وفي باله خواطر كثيرة أثارتها كلمات السقّا..

(12)

كلما انضم يومٌ إلى سابقه من دون أن يحدث شيئ كانت أم محمود تشعر بمزيد من الطمأنينة. لعلّ ما بذلته من جهدٍ مضنٍ خلال الأسابيع الفائتة قد بدأ يثمر، خاصةً أن الأحفاد ساكتون عن الفعل والكلام بخصوص هذا الأمر بالذات. ومع أنها لم تطمئنّ تمامًا، إذ إن أحدًا لم يعدها بشيئ ملموس، إلّا أن سيرة إبنها محمود التي عادت حاضرة في البلدة، خففت عليها شيئًا من وطأة هذه الأيام..

مرّ ما يقرب من شهرين منذ أن تقدم ذلك المأمور الحكومي الرفيع لخطبة فاطمة، وهي مدةٌ كافية لأن تحوّل خبرًا صغيرًا تافهًا إلى حدثٍ يشغل بلدة كهذه، فكيف بخبر زواج المأمور بفتاة من الأحفاد؟ كم مرةً ستمنحهم الأيام أخبارًا عظيمة تشغلهم حينًا من الزمن؟ فإذا كان تلَفُ محصولٍ لا قيمة له، أو ولادةُ جَملٍ أعور قد تشغل مجالسهم من ساعة بذر الأرض حتى حصادها، فكم مرةً سيتقدم مسؤول حكومي بهذا المستوى ليخطب إحدى إمائهم، ثم لا يهتمون؟ علموا جميعًا بالخبر، وانتشر مثل النار في الهشيم في أيامه الأولى ثم ما لبث أن خَمَد. لم يغب كليًا، لكنه ظل خاملاً خلف طبقة كثيفة من الاهتمامات الأخرى لا مجال لتأجيلها. لذلك فإن طمأنينة أم محمودكانت تصاحبها شكوك كثيرة حول الأسباب.

في مثل هذا الوقت من كل عام تبدو البلدة العجوز صبيةً ناضجةً. تغسلها أمطار يوليو فتنتعش كلها دفعة واحدة. الحقول والأنعام والبيوت والمتاجر على السواء، وكأنها تحيا معًا وتموت معًا. يعود إلى النهر هديره وكأنما هو يهدر في عروق أهلها لينفث فيهم طاقة هائلة يفرغونها في أعمالهم، المـزارعُ في حقله والراعي خلف قطيعه والتاجر في تجارته، وتفتح المدارس، وتتحرّك القوافل.. كلّ شخص يحتفل بمعنىً من معاني الحياة على طريقته. في هذه الأشهر من السنة تُضرب المواقيتُ لعقد الزيجات. وتتسابق الخاطبات على أبواب الصبايا، و يُختن الأولاد والبنات. تُهدم بيوت وتقوم على أنقاضها بيوت جديدة ودور أكبر وأوسع. يضاف إلى القطيع قطيعٌ آخر وإلى المتجر متجرٌ جديد وإلى الزوجة زوجة أخرى. لا يُضيّقُ الدائنُ على المدين ولا العائلُ على من يعول. تبدو الحياة هيّنةً مُقبلة، وزاد على ذلك أن هذا العام آتت الأرض أكلها ضعفين، وامتلأت الدور والمتاجر بالقطن والحبوب والسمن والأقمشة والبضائع والبصل والتوابل، واكتنزت الجيوب بالخير والمال كما لم يحدث من قبل..

أمام دكان حاج حامد، تحلق أربعة من الأوتاد على قهوة الصباح، بعد أن أتمّوا بيعةً. حزمةٌ من النقود انتهت إلى يد أحدهم بعد جدلٍ قصير. حزمها جيّدًا وعدَّها مرتين حين رأى صبي المتجر واقفًا فوق رأسه كما لو كان يطلبه ديْناً. قبّل حزمة النقود وضرب بها جبينه ثم حشرها في جيبه:

- هذا العام لم يأت مثله منذ عشرين سنة، بعت فيه عشرة قناطير من القطن وشاحنتين من الذرة وأكثر من مئة وثلاثين جوالاً من البصل ومثلها من الطماطم والحبوب..

التفت ناحية الصبي وقد ساوره القلق مجددًا، ليكتشف أن الصبيّ لم يكن مهتمًا لما يفعل أو يقول، وإنما بصاحب المتجر الذي جاء لتوّه يسير -بصعوبةٍ بالغة- متوكئاً على عصاه. خفّ إليه الصبيّ بالكرسي والماء وحمل عنه العصا والعمامة والشال الذي على كتفه، فقال وهو يهم بالجلوس..

- قل الحمد لله يا ابراهيم، لا يحسد المال إلا صاحبه..

- الحمد لله على كل حال، الخير فعلاً كثير يا حاج حامد. لا بد أن وليًا صالحًا دعا لعجايب هذا العام..

ضحك الحاج حامد ضحكة قصيرة. كان اهتمامه ومنذ أن وصل منصبًّا على جمعٍ صغيرٍ على الجانب الآخر من الشارع العريض الذي يفصل دكاكين السوق إلى صفّين متوازيين في جهتي الشمال والجنوب. هناك أمام متجرٍ للتوابل كان فرج السّقا ومعه ثلاثة من الأحفاد في ثيابٍ نظيفةٍ ناصعة. كانوا يقفون أمام المتجر، يتلفّتون، كما لو كانوا يترقّبون وصول أحد. زفر حاج حامد زفرةً طويلة كأنما يؤكد لمجالسيه أنشغاله بما يفعلون..

- طول عمرنا نحن وشيوخنا ندعوا بالخير وسعة الرزق وراحة البال، لكننا أبدًا لم ندعه بأن يحطّ من أقدارنا ويساوينا بتابعينا! لم نتخيل أن الله ادّخر لنا كل ذلك إلى عامنا هذا، وكأن الدنيا وصلت إلى نهايتها ونحن نشهد انقلاباتها المفاجئة.

ثم نظر إلى الجهة الأخرى فانتبهوا حينئذٍ إلى ما يجري على الضفة الأخرى من الشارع. لم يكن جمع الأحفاد يتبادل الحديث، كان السقّا ينظر إلى ساعة جيبه بقلق، بينما توزعت أنظار مرافقيه على جهتَيْ الشارع العريض، ما يؤكد أنهم يترقّبون مجيئ شخص.

جيئ بقهوة حاج حامد، رشف منها رشفةً صغيرة ثم أعادها إلى مكانها فوق الطاولة. خلع نعليه ثم وضع رجليه بصعوبة فوق مقعدٍ مقابل، إذ منذ أيام يعاني من ألمٍ حادٍ في المفاصل. جاءه الصبي بعلبة صغيرة من دهن الفيكس وراح يمسِّد له رجليه من وسط الفخذين الضامرين إلى أسفل القدمين بتمريراتٍ بطيئةٍ متقنة، وهو يتابعه بنظراته، وبتقلصاتٍ على وجهه كلما مرر الصبي يديه القويتين على مواضع الألم، لكن انتباهه لم ينصرف مطلقاً عن السقّا وجماعته على الطرف المقابل. بعد قليل توقفت عربة صغيرة يجرها حمار ونزل منها إخوة فاطمة وفي يد أحدهم حقيبة، سلّمها إلى فرج السقّا بمجرد أن نزل، ثم توجّهوا جميعًا إلى داخل المتجر. التفت حاج حامد إلى مجالسيه..

- يكاد الأحفاد يشترون كل محاصيل هذا العام إن لم أكن مخطئاً. هل الدنيا مقبلة على قحط أم أننا نعيش في حصار؟

لم يُجبه أحد، فعاد مجددًا إلى الاهتمام بتدليك ساقيه، وطلب من الصبي أن يدعك جيدًا حول مفصليْ ركبتيه وكاحلَيه، ثم حرك ساقَيه في الهواء ببطء ليختبر أثر التدليك. أسدل سرواله الطويل وجلبابه فوقهما ثم طلب من الصبي أن يغير له قهوته التي بردت..

حاج حامد، أحد أشهر تجار عجايب وأقدمهم ربما. ورث تجارة الأقمشة والعطور عن أبيه وأجداده، كابرًا عن كابر. يملك إلى جانب بيوته وأطيانه التي لا يعلم أحدٌ مقدارها دكانًا كبيرًا لبيع الأقمشة والعطور، هو الأكبر في عجايب والقرى التي تحيط بها، يتألف من

أربعة دكاكين كبيرة مفتوحة على بعضها في قلب السوق القديم. لم يحدث أن خُتن صبيّ أو أقيم عرس أو شُيّع ميت في عجايب أوالقرى التي حولها إلا وكان لهذا الدكّان نصيبٌ في ما لُبِسَ أو أُهدي. (الثياب النسائية كما الرجالية في أرفف متقابلة. الأقمشة التيترون الرجالية بألوانها البيضاء والبيج والزرقاء على اليمين، وأقمشة الدمور والدبلان وأقمشة الصديريات والسفاري الثقيلة الملمس إلى اليسار، وفوقها العمائم والشالات المطرَّزة معلقة كما تعلَّق الأعلام والأوشحة، تقابلها أقمشة «الهِرِد» و «الكاني» التي تستورد من الهند، وكذلك الفوَط والثياب النسوية بألوانها الصارخة وتشكيلاتها المشجرة الفاقعة. وفي ركن خاص العطور الشعبية والباريسية بفواحها المختلط المركّز)..

جاء إخوة فاطمة ومعهم أحد المقرَّبين من فرج السقّا يحمل الحقيبة الصغيرة تحت إبطه. وقفوا فوق رأس حاج حامد كما لو كانوا يضمرون شرًا. نظر إليهم من مجلسه ثم استعاذ بصوتٍ مسموع. لكنهم لم يكترثوا..

- نريد بعض الأقمشة والعطور..

قال سالم بصوتٍ عدوانيّ خشن. نظر إليهم الحاج حامد مجددًا بازدراء، ثم نادى على الصبي ليبيعهم. تبعوه إلى داخل المتجر وانشغل هو مجددًا بمجالسيه..

وماهي إلا ساعة حتى خرجوا وقد اشتروا كمية كبيرة من المعروض في الدكان. وضعها الصبي في سلال كبيرة أمام المدخل وسلّم سيده حزمةً من النقود، وضعها الأخير إلى جواره على الطاولة وهو يضحك..

- سبحانك مقسِّم الأرزاق، هل جاء آخر الزمان؟

قهقهوا جميعاً بمرح. في الأثناء توقفت عربة نقل صغيرة يجرها حمار هزيلٌ أبيض. حمّل عليها الأحفاد مشترياتهم ثم انطلقوا من دون أن ينطقوا بكلمة..

(13)

«من أين يأتي سقاءٌ معدم بثورةٍ تقلب عقودًا من الصبر والرتابة في هذه الصحراء المنسية. الصبر وصية الصحراء لأهلها، كلمة السر التي تودعها مُهَجهم. للصحراء أبدًا، عداءٌ دائمٌ مع التباينات، مع تعدد الأصوات. يقول السقّا إنه ليس نبياً، وهو ليس كذلك، ولكنه يقول إن القدر وضعه على حافة لحظة في التاريخ، لا يملك أن يتجاهل وجودها أو موقعه فيها. ثمة إشارات تلتقي وتفترق في هذه الصحراء مثل رياحها القاحلة، وتظهر وتختفي مثل نجومها البعيدة، لكنها موجودة، يعرفها العارفون من أهلها، وتعرفها الإبل، وقبائل الجن، وأرانب الخلاء بين الصخور. لن تنزلق إلى الأفق الآخر قبل أن تبدل مكان عجايب في خرائط التاريخ. هذه الإشارات ستشدها إليها برباطٍ غير مرئي».

دوّن الأستاذ هذه الأسطر في مفكّرته الضخمة، مصحوبةً بأحداث اليوم الّذي دوَّن تاريخه في أقصى يسار الصفحة كما اعتاد دائمًا، يكتبها ويضع هوامش صغيرة وحواشي يكتب فِيهَا أسماء الأشخاص وأدوارهم، يكتبها بجملٍ صغيرة مقتضبة كأنما هو ينتظر نتائجها ليعود إليها وقد ظهرت نهاياتها. يحتل فرج السقّا معظم الحواشي تقريبًا. فهو موجود في قلب الأحداث التي تختلف مواقعها حسب الحدث، أحيانًا

في الأمام وأحيانًا في الخلف. كان الرجل قد استغرقه تمامًا، زاد اهتمامه به على نحوٍ خاص، يراقبه صاعدًا نازلاً بين تجمّعات الناس، في الأسواق والمقاهي والمناسبات العامة والأفراح والأتراح..

يدرك الأستاذ الآن أن السقّا لم يبدأ نضاله هذا مع تفجّر الصراع الأخير مع الأوتاد، وإنما منذ حادثة مصنع النسيج منذ ما يقرب من ثلاثة عقود استطاع خلالها أن يضيف في كل مرحلة كسبًا إلى كسبه المتراكم. كان الأحفاد وحتى وقت قريب لا يحق لهم امتلاك الأرض سواءٌ للزراعة أو للسكنى، وكانوا يعملون بالسخرة. يزرعون في أرض غير أرضهم ويحصلون مقابل ذلك على طعامهم ومأواهم. يعملون في ذلك المصنع وراء الجبل ويسكنون في مساكن شاحبة قريبة منه. استطاع السقّا وفي سنوات وجيزة إلغاء هذا القانون الشفاهي الغامض، وأصبح الأحفاد يأكلون من عرق جبينهم ويبنون بيوتهم بما توفّر لهم، وصار الميسورون منهم، وبعضهم من خارج عجايب، يشترون بعض المزارع والبيوت والمتاجر التي تفرّق أصحابها بسبب الموت أو النزوح أو الميراث، وخلقوا أرضًا يقفون عليها في مواجهة ما قد تحمله الأيام، والأهم من ذلك أنهم بنوا في طرف الصحراء عجايب جديدة..

إضافة إلى عجايب، حصر السقّا بـدأبٍ كل العائلات المسحوقة في القرى التي تنتشر حولهم، من حدود الجبال إلى سواحل البحر، لا تهمّ الأنساب، ولا صلات الدم بقدر ما تهمّ الحالة، حتى بنى في هدوء نظامًا تراتبيًا محكمًا، أفقيًا ورأسيًا، ينظم العلاقات فيه مجلسٌ صغيرٌ للشورى، تتمثّل فيه كل قرية بصوتٍ أو صوتين حسب حجمها أو تأثيرها. يجتمع المجلس -سرًا- مرة كل شهر في

مزرعة يملكها أحد أثرياء الأحفاد. طوال ذلك التاريخ، كان الأوتاد يعاملون أتباعهم الأحفاد بمنتهى السوء، رغم أن الأوتاد ذاتهم كانوا يعانون من قهر نظام الإقطاع في وقتٍ ما، لكنه قانون الصحراء الذي لا يؤمن أبداً بالندّية، فقانونه الغلبة وإبداء مظاهرالقوة، وإن كانت من أجل قطرة ماء..

تردّد الأستاذ على الحاج أبو بكر، أحد أكثر العارفين بالأنساب والأحداث. سمع منه الكثير مما سيساعده على فهم المستجدات في عجايب ومحيطها. سجّل في هوامشه:

«طوال التاريخ وإلى وقت قريب، كان الأحفاد وغيرهم من المسحوقين، يعيشون في ظل سادَتهم، لا يملكون صوتًا بين القبائل في رأي أو مشورة، لا يستقبلون ضيفًا ولا يجيرون مستجيرًا، حين يولد الطفل الذكَر فيهم فإن مولاه من الأوتاد يختمه بوشمٍ أخضر دائري برسم خفِّيْ الجمل، أعلى ظهره وبين كتفيه. ختم بحجم الجنيه الأسترليني المعدني، وحين تولد أنثى فإنها تُختم بالوشم ذاته في صدرها، بين نهديها. وإذا قـُتل منهم رجل لا يأخذون عليه أكثر من نصف ديّة، خمسين ناقة من غير الإبل «الأنافية» أو «البشارية» الصهباء التي لها السهم الأكبر في هذه الصحراء الممتدة من الهضاب الحبشية إلى حدود مصر، وإذا قَتلوا أحدًا فإن عليهم أن يقدموا عشرة من الرجال ليُقتلوا بدمه. الأحفاد لا يُزوِّجون ولا يتزوَّجون من دون موافقة أسيادهم، وإن حدث -ولو سرًا- فإن الرجل منهم يُنفى والأمَة تُطلَّق ثم لا تجد من يطؤها..

قبل خمسين أو ستين عامًا، في أيام الشدة، أيام المجاعة، حين ضربت هذه الأنحاء موجة قحطٍ امتدت لما يقرب من خمسة

أعوام، ما كانت ستُحتمل لولا وجود هؤلاء الأحفاد، بمدَّخراتهم من الزروع والحبوب التي خرجوا بها إلى الناس من باطن الأرض فجأة، كما لو كانوا قبيلاً من النمل. هؤلاء الناس من طينة مختلفة، عجنتهم الصحراء بالصبر وزرعت فيهم حذر البدويّ الذي نسيه الأوتاد..

«خبر زواج فاطمة، أحدث هزة ولا شكّ. ولو أن الخاطب غير ذلك الحاكم لأُجبر على تركها ثم عاشت ما بقي من عمرها منبوذة. لعلها محظوظة، أو لعل الزمن قد اختارها لتلعب دورًا فوق طاقتها. منذ أن خرج الصراع مع الأوتاد إلى العلن بسبب هذه الزيجة الغامضة، صار السقّا يكسب كل يوم أرضاً جديدة مقابل ما يخسره غرماؤه على الجانب الآخر».

تلك هي الخلاصة التي سجّلها الأستاذ من أحاديثه مع أبو بكر، وقد لاحظ تعاطف كثير من الشباب مع رغبة السقّا في خلق كيانٍ جديد، وبناء منظومة إنسانية جديدة، فيما كانت جهود عواجيز الأوتاد أضعف من أن تقنع حتى شباب الأوتاد الذين قاتلوا مع الثورة أو يدعمونها.

الفصل الثاني

(1)

الناظر محمد متزوِّجٌ من ابنة خاله منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وله منها أربع بنات وولدان، أكبرهم نجاة وأصغرهم حسين، لكنها، وعلى عكسه، كانت طويلة، نحيفة، تشبه شجرة يابسة، لها وجهٌ شاحبٌ ممصوص، مع أسنان علوية كبيرة بارزة خلف شفتين عطشتين على الدوام، وأنف صغير دقيق، وعينين قابعتين في حفرتين تحت جبهتها. ولا يظهر لها نهدان، بل مجرّد صدر مسطّح. جسدها كله قائم على هيكل عظميّ لم يترك لبقية الجسد هيئةً أخرى يتشكّل عليها، وعندما يراها المرء يحسِب أنها قامت من وعكةٍ طويلة..

هيئة الناظر الضخمة وهيئتها على النقيض منه، كانتا على الدوام مثار تندّر أهل عجايب، وخاصة النساء، فما أن يرينها حتى يُصدرن أصواتًا مشفقة من جوانب أفواههنّ، ويَقلنَ سرًا وجهرًا «ستموتُ تحت ثقل جثته الضخمة ذات يوم». أما نورا الخياطة فتقول «هي التي تعتليه عندما يأويان إلى فراشهما وإلا كيف عاشت كل هذا الوقت؟»، ثم تضحك ضحكةً خليعة.

لم تكن هيئتها كذلك حين تزوجها، ولم يترك الناظر طبيبًا ولا شيخًا إلا وعرضها عليه، لكن دون أن يتغير شيئ. جرّب كل أنواع الأدوية والأعشاب والأبخرة ولم تجدِ نفعًا، حتى إنه عرضها ذات مرة على مرجان إبن الشيخ جابر الذي يسكن وحيدًا فوق تلة تجاور المقبرة. استدعاه سرًا، فملأ البيت أبخرةً، وأمره أن يذبح في الليل تيسًا أسود لتعبر زوجته فوق دمه المسفوح، ثم قال له «إن امرأةً من أقاربها عملت لها عملاً ودفنته في مقبرة ولا بدّ أن نقيم لها زارًا لنطرد الأرواح التي تسكنها»

أقام الناظر -مُرغمًا- خيمةً كبيرةً في الصحراء، رقصت فيها زوجته وجُلدت مع نساءٍ أخريات ودفعت مالًا وذبحتْ خمسة شياهٍ وعددًا من الديوك. بعد حفلة الزّار انفتحت شهيّتها للأكل لما يقرب من أسبوع، لكن من دون أن يزداد وزنها رطلًا واحدًا..

لم يكن بمقدورالناظر أن يتزوج عليها من امرإةٍ أخرى. لقد كان عهدًا قطعه على نفسه أمام خاله الذي مات منذ عامين. غالب رغبته في الزواج عامًا كاملًا بعد موته ثم لم يحتمل، وظل طوال العام التالي يبحث عن عروسٍ أخرى، حتى رأى فاطمة في الطريق. شغلت تفكيره بعد ذلك، واضطرب كيانه كله، لكن ماذا يفعل؟

أسرّ بأمره إلى صديقه المقرب الشيخ أحمد ليفعل شيئًا، فأصابته الحيرة وقال:

- أن تتزوّج فهذا حقّ أقرّه لك الشرع. أما فاطمة! فإنها من الأحفاد!

- أعرف يا صديقي، وإلا لما لجأتُ إليك.

ضحك الشيخ أحمد في وجهه ضحكةً اغتاظ منها الناظر.

- ناظرنا عاشقٌ إذن!

لكن الناظر فضل الصمت. فما كان يدفعه ليس عشقه لفاطمة، وإن كان يتمنّاها لنفسه، إنما إرباك الأحفاد ومقارعة المأمور. ولم يكن استعداده للتخلّي عن فاطمة أَنَفة فهو مصمّمٌ على الحصول على امرأة ترضي رغباته التي أجّلها كثيرًا. إنما كان يفكر كيف يمكنه أن يربح الأمرين معًا، الجمال والمجد.

(2)

لم يستوعب فرج السقّا الأمر من الوهلة الأولى، واحتاج إلى وقتٍ طويل حتى يستجمع متناقضاته العديدة. فكر أن يسأل الأسئلة المعتادة في مواقف كهذه، لكنه تجنبها في اللحظة الأخيرة إذ ستكون الإجابات معتادة أيضًا. فهو في صراعٍ مع الوقت ولا يمكنه أن يطيل الأخذ والرد، فقرر أن يبدأ من النقطة المربكة:

- وماذا ستقولون للناس، أقصد الأوتاد؟

الشيخ أحمد، وإن كان يتوقّع أمرًا كهذا، إلّا أنه ارتبك، ثمّ فضل تأجيل بحث هذه المسألة المربكة، فقال:

- دع هذا لوقته.

ابتسم السقّا وقد أدرك مرمى وحرَج الشيخ، فقرر أن يكون الكلام بأوضح ما يكون، وأن يكسب نقطة لصالحه قبل أن يعِد بدفع الثمن..

- بل هذا وقته يشيخ أحمد، إن لم يكن أمام الجميع فأمامي على الأقل. أنا أيضًا عندي من سيكون عليّ إقناعهم..

أسند الشيخ أحمد ظهره إلى الوراء. فكّر قليلًا، ثم عاد إلى وضعه الأول ونظر في عيني محدّثه:

- سأكون واضحًا معك، ما تسعون إليه لن تستطيع الحكومة أن تمنحكم إياه من دون مشقة. وحتى لو استطاعت لن تعيش الحكومة معكم، لتشارككم المسكن والأرض والتجارة، ما نملكه نحن لا تملكه الحكومة، وأظنك تفهم الأمر جيدًا..

هزّ السقّا رأسه، كأنما يوافقه الرأي في هذه المساومة العجيبة، لكنه في الحقيقة كان في حالة تفكير عميق، يقلب وجوه المسألة الغريبة والمفاجئة، ويجري مقارنات سريعة ومتعددة للأمر من كل جوانبه. نظر في وجه محدّثه وقد ارتسم على وجهه ما يشبه طيف ابتسامةٍ، لكنه بدّل هيئته سريعًا.

- كلامك طيب، لكنه لا يمنحني شيئًا ملموسًا في يدي أدفع به حجج الأهل، ولعلك تعذرني.

ضحك الشيخ أحمد ضحكة قصيرة، ثم قال وكأنه يعتذر عما خالط ضحكته من نبرة احتقار:

- لا عليك، لن تحتاج لتقول الكثير، لأننا لا نرغب في أن يأخذ الأمر وقتًا طويلًا يجعله عرضة للقيل والقال. إذا وافقتم اليوم ستكون العروس في بيت الناظر الجمعة المقبل، وبعد أن يحدث ذلك سيجد الجميع أنفسهم أمام الأمر الواقع وعندها سيقبلون أي شيء، وأظنك بالرجاحة التي لن تخطئ التقدير..

لم يزد الشيخ على ذلك لم ينتظر جوابًا. هبّ واقفًا، ودفع الباب الموارب بعصاه ثم خرج مسرعًا، تاركًا فرج السقّا في حالةٍ بين الحيرة والقلق.

بقي السقّا يقلّب الأمر في ذهنه طوال اليوم، ثم حمله معه إلى فراشه. يقلّبه على كل وجه. خطر له احتمال أن الأمر غير بريءٍ، وأن

الناظر بدهائه الذي لا يخطئه عقل يريد أن يعطّل مسعاهم كله. وأن زواجه من فاطمة سيضطرهم إلى التسليم المطلق له، وسيكونون بعد ذلك مجبرين على قبول عطيته، تعظم أو تصغُر، فهُم قد لا يملكون حق رفضها، لأنهم سيصبحون في يده، وسيتسع نفوذه بعد ذلك ليشمل القبيلتين معًا، بعد أن تقوّضت سلطته بالتدرّج خلال السنوات الفائتة..

ومن ناحية أخرى، فكر في ما قاله له الشيخ أحمد، فالحياة الهادئة التي لطالما تمنوها واستقلالهم الذي ناضلوا من أجله قد لا يتحققان ما لم يتعاون الأوتاد معهم، أو يتركونهم وشأنهم على الأقل. لكنه يدرك في قرارة نفسه أن هذا لن يحدث، ولن يتنازل لهم الأوتاد إلى حد منحهم نظارة، بينما يمكن للحكومة أن تمنحهم ما يطلبون، وأن تضع بالقوة، وبالقانون، حدودًا لكل طرف، وأن تمنحهم وطنًا بديلاً خارج عجايب إن اقتضى الأمر.

ثم عاد واسترجع الفكرة الأولى فوجدها الأنسب. خطوة كهذه ستسجّل سابقة مهمة، ستلغي نظام الفصل الاجتماعي الذي ساد طوال التاريخ ولن تكون لأحدٍ حجّة بعد ذلك، فالناظر هو مَنْ هو بين الأوتاد وبين القبائل الأخرى، وزواجه العلني بفاطمة اعتراف لا يمكن التراجع عنه.

وفكر بأنهم في هذه الحالة ربما يخسرون دعم الحكومة؟ «لكن المأمور الذي في منصبه اليوم قد يغادره غدًا وعندها قد يحتاجون للعودة إلى العرض الثاني. إنما ما الذي يضمن بقاءه على الطاولة؟ الشيئ الوحيد المضمون في هذه المقامرة الكبرى هو منصب الناظر، فهو باقٍ طالما أن روح صاحبه لم تغادر بدنه الضخم..» هكذا كانت أفكاره تذهب وتعود..

أرهقه التفكير في الأمر، ثم استقرّ على ألّا يُسقط شيئًا. أن يذهب في الطريقين، طالما أن أحدهما سيحقق الهدف، وطالما أن ذلك سيمنحه خيارين بدل خيارٍ واحد.

يعرف أن الأحفاد سيرفضون الأمر في البداية، لكنه سيعمل على إقناعهم، وسيوضح لهم حسنات هذا الخيار.

فكر في فاطمة « هل هي أعطية السماء فعلًا جاءت لتنقذه، أم أنهم يظلمونها؟ وأين كفاحه كل هذه السنوات ليحقق حلمه في أن يصبح ناظرًا؟».

(3)

كان صعبًا على الناظر محمد أن يعلن عن رغبته، أو يطرح الأمر مثلما أشار عليه صديقه الشيخ أحمد، ولكن لم تكن تنقصه الحيلة لكي يتفادى مأزقاً كهذا، ولا الحكمة لكي يستثمر بعض جوانب الأزمة لصالح هذه الرغبة الجديدة، ولصالح الأزمة نفسها، خطر له أنه بذلك سيصيد أسماكًا كثيرةً بطُعمٍ واحد، وقد رتب الأمر في ذهنه جيدًا، ثم دعاهم. جاء الشيخ أحمد والعم أبو علي وحاج حامد وأحمد عميراي إلى مجلسه الكبير، كان في انتظارهم متخفّفاً من عمائمه وشالاته وهيبته أيضًا، حليقًا حافيًا، منتعشًا وودودًا..

طاف بالحديث طويلًا، في التاريخ، والأنساب، وتطور الصراع مع الأحفاد ومآلاته المحتملة، وكان في كل مرةٍ يوشك أن يصل بهم إلى نتيجةٍ، يضع -عمدًا- عراقيل في طريقها ليصرفها في اتجاهٍ مغاير، أو يرصد تداعياتٍ مخيفةً تعقبها. وفي الحالتين كان يضخم تصوّراته

ويضفي عليها مسحة من التهويل. جيئ بالتمر والقهوة، وطافت عليهم أنخابها مثنىً وثلاث ورباع، ولم يصلوا معه بعدُ إلى ذروة الفكرة التي ظل يحوم حولها لما يقرب من ساعة، وهم منصتون. قال لهم أخيرًا، إنه يفكر في طريقة مختلفة لمعالجة قضية الأحفاد، فتهيأوا جميعًا وركّزوا أنظارهم عليه.

- كما ترون، لا شيئ مما ذكرنا نتيجته مضمونة!

هزّوا رؤوسهم، وقال حاج حامد..

- دعنا نسمع. مزاجك اليوم يبدو في أحسن أحواله..

ضحك وهو يسترخي في مقعده إلى الوراء، ثم قال وهو يمرّر يده على بطنه الضخم..

- أفكر في تزويج فاطمة إلى إلى واحدٍ منّا..

وأشار بيده كأنما يشملهم باقتراحه، تلفّت كلّ منهم إلى الآخرين وقد فاجأهم الكلام، وكأنّ الناظر، أو الأوتاد على وجه العموم يملكون من الأمر شيئاً. فالأحفاد الذِين يبنون أحلامهم كلها على زواج فاطمة من ذلك المأمور المقرَّب من سلطات الاحتلال، هل يتنازلون بهذه البساطة؟ ومتى كان الأوتاد يتزوّجون من الأحفاد أصلًا؟ ما هذه الثقة الغريبة التي يتحدث بها الناظر؟

لكن الناظر واصل حديثه:

-زواج فاطمة من واحدٍ منّا سيخرجُ الحكومة من اللعبة كليًا وهذا هو المهم، ومن ثَم سيجعل الحل في أيدينا نحن، ولن يكون الثمن كبيرًا، فكروا في الأمر..

سأله أحمد عميراي:

-لنفترض أننا قبلنا هذا الأمر، وتنازلنا عن كل أعرافنا، ما الذي

يضمن لنا أنهم سيوافقون؟ ولو أنهم رفضوا، أي قبلةٍ في الأرض ستحتمل جباهنا الممرّغة في التراب؟

ضحك الناظر وتقدم في جلسته إلى الأمام:

- نحن نواجه أخطر صراعٍ في تاريخنا كلِّه. صدِّقوني، وجودنا ذاته أصبح مهددًا أكثر من أي وقتٍ مضى وليس أعرافنا أو مكانتنا بين القبائل، وإذا خرجنا من هذا الصراع بأقل خسارة ممكنة فإنه انتصار. لا تستهينوا بفرج السقّا أو ما يفعله، إنه أقرب الناس إلى الحكومة الآن، ولديه المال والرجال، والأثيوبيون مهتمون جدًا بالزعامات الصاعدة، فإما أن نطفئ هذه النار بأي ثمن أو سنواجه حريقًا لا قِبَلَ لنا به، انظروا حولكم جيدًا تفهمون ما أقول!

عندما نظر في وجوههم، واحدًا بعد الآخر، شعر بشيءٍ من الإطمئنان لحيرتهم وإطراقهم. لعلّه قطع نصف الشوط نحو الهدف، إلا أن صمت العم أبو علي وإطراقه العميق أقلقه كثيرًا، فقرر أن يوجه الكلام إليه مباشرةً بعد أن كان يتجنب النظر في وجهه:

- العم أبو علي يدرك أكثر من غيره نجاعة مثل هذا الالتفاف، كل زعماء القبائل الكبرى، بمن فيهم أجدادنا رحمة الله عليهم، لجأوا إلى المصاهرة حين أعيتهم الحيلة، أليس كذلك؟

بقي العم أبو علي صامتًا، مشغولاً بمسبحةٍ بين أصابعه، زاهدًا في الكلام، وحينما شعر بالنظرات تحاصره دمدم:

- صحيح..

قالها بحياد، ولم يزد عليها، فاضطر الناظر لأن يكمل..

إسمعوني جيدًا، الزمن تغير والأحوال تبدّلت، ونحن وهؤلاء القوم أمام لحظة فاصلة، آن الأوان أن نسبقهم في الطريق،

أن نختار معركتنا ووقتها وساحتها، أن يكون الفعل من طرفنا وليس رد الفعل..

قاطعه أحمد عميراي:

- ماذا تعني؟

تهيّأ الناظر للرد لكن حاج حامد قرّر دفع الناظر لإعلان ما يريد عل نحو واضح، فأخذ الكلام:

- قل لنا ماذا تقترح بالتحديد؟

لم يكن الناظر يريد أن يصل إلى اقتراحه من الجلسة الأولى، كان يفضل أن يحدث ذلك بالتدرّج، أنْ يلقي الحجر في الماء، وعندما يجلس معهم غدًا أو بعد غد، يتقصّى أثر ذلك. فقال:

- سنتحدث في المقترحات في لقاء قريب، لكن ميلاد نظارة أخرى مقابل نظارتنا في هذا البلد، هكذا نِدًا لند، أمر ليس بالهيّن. لن أوفّر جهدًا من أجل ألّا يحصل ذلك حتى لو اضطررت إلى أن أتزوج فاطمة بنفسي!

مع آخر جملةٍ في حديثه تململ العم أبو علي وتهيأ للمغادرة وقد بلغ منه الحنق مبلغًا عظيمًا. وعندما خرج لبس حذاء حاج حامد من دون أن يعي، وانصرف..

شعر العم أبو علي أن الجميع -بمن فيهم الناظر- يخونون ذلك التاريخ. الأمر في ذهنه كَبِير ولا ينبغي استسهاله بهذه الطريقة التي يتبعها الناظر. حاول أن يقطع عليه هذا الطريق أول الأمر، وهو يفهم تمامًا الآن ما يرمي إليه الناظر بهذا الالتفاف الطويل، لكنه سئم لعب دور العجوز المشاغب الذي فرضته عليه الأيام لذلك بقي صامتًا وفضّل أن يغادر..

وحين قام حاج حامد لم يجد بُدًا من ارتداء حذاء العم أبو علي المهترئ، فضحك وأضحكهم جميعًا، حتى أحسّ الناظر بأنه قد تخفّف من عبءٍ ثقيل..

(4)

«الناظر، ومنذ اليوم الأول، يعرف أن الرمال تتحرك تحته، وأن دابة الزمن تأكل منسأته بدأب. يعرف ذلك بالتجربة وبالحدس. التغيير شأن الحياة، إن لم يكن اليوم فغدًا. الوقوف في وجهه، والصدام معه، حماقة قد تعصف بكل شيئ. يعرف أن الأحفاد لن يفوّتوا هذه الفرصة. حدث ذلك مع أبيه حين حارب الإقطاع، فالأوتاد كذلك لم يكونوا بهذا الاستقلال الذي ينعمون به اليوم، كانوا فوق الأحفاد طوال التاريخ هذا صحيح، لكنهم في ذات الوقت كانوا تحت سلطة فوقها سلطة أخرى ثم سلطة أكبر.. وهكذا. وقد جاء الوقت لكي يعيد التاريخ لعبة تغيير المواقع من جديد، لكي يفهم الجميع أن حول كل دائرة في هذا الكون دائرة أكبر، قد تكون مرئية أو غير مرئيّة»..

الناظر يدرك المغزى العميق لما يجري، ويدرك أنه لن يستطيع أن يحول دون حدوثه بأي حال، ويدرك أنه على الأوتاد ألّا يقفوا مكتوفي الأيدي، أو يحاربوا بالأدوات التقليدية. يجب أن يكونوا أكثر حكمة، فإمكانية تغيير وجهة نظر الحكومة والضغط عليها سواء بالمصالح أو التأثير، خياراتٌ عديمة الجدوى بعد قرار المأمور بالزواج من فاطمة. وفاطمة ليست امرأة يسهل التخلّي عنها. عليهم أن يجرّبوا

أن يتقدموا خطوة على عدوهم من طريق آخر، فهذا خير لهم من أن ينتظروا وصوله على ذات الدرب، هكذا كان يحاول إقناع من حوله لكنه لم ينجح كما ينبغي، إذ كانت تلاحقه الشكوك حول وقوعه في حب فاطمة، وهو ما عجز عن إنكاره، وعجز عن الاعتراف به على نحوٍ صريح. أما الأمر الآخر الذي كان يشغله فهو الإنتخابات، وهذه أُقرّت واقترب موعدها والناظر يفكّر في ما سيواجهه إن هو اضطرّ لمواجهة السقّا الذي سيترشّح ولا شك، وهي معركة غير مضمونة إن تكتّل الأحفاد خلف السقّا، وكم سيكون صعبًا عليه أن يذهب السقّا إلى أديس أبابا ويظهر اسمه في الصحف ويُدعى إلى القصر الأمبراطوري.. في حين يبقى هو في عجايب يجترّ مع العم أبو علي أمجادًا تسير نحو الأفول.

على الدوام كان الناظر محمّد عاقلاً في نظرته للأمور، فهو ليس من ذلك النوع الذي يتعجّل خوض المعارك، أو يقابلها بحمية البداوة المفرطة في الخشونة. بل كان يزنها، ويفكر فيها، ثم يقرر أنسب الوسائل للتعامل معها، فهو -إلى جانب سماته الشخصية- درس عامين في الجامعة في أديس أبابا، لكن مقتل والده المفاجئ، وخلوّ منصبه المهم أجبراه على ترك كل شيئ والتفرّغ لهذه المهمة المعقدة والتي لا مجال لتجاهلها أو الإعراض عنها، وهي في كل الأحوال مهمّة ممتعة تمنح صاحبها زعامة، وإن كانت صغيرة، إلّا أنها طوعيّة وممتدة في التاريخ وتحتاج إلى حكمة وتمنح صاحبها زهوًا لذيذًا.

أمثال أحمد عميراي والعم أبو علي وحاج حامد عقّدوها فوق ماهي معقدة أصلًا، أكثر المعترضين وأشرسهم كان العم أبو علي، إذ

لم تقنعه كل الحجج التي ساقها الناظر حين عرض عليهم فكرة الزواج من فاطمة.

العم أبو علي من ذلك يعتبر أن موقع الذي الأوتاد حصلوا عليه بعد كفاح، كان مقدَّرًا لهم، وأنه لن يكون مقبولًا التخلّي عنه، أو مشاركته مع أحد مهما تكن المبرّرات، وزواج الناظر أو أيّ من وجهاء الأوتاد من فتاة من الأحفاد سيعني كسرًا لهيبتهم. وهو بعد سنواته التسعين الطويلة يدرك أن ما يطلبه الناظر سيخلق -طوعًا- قطبين متكافئين في البلد في نهاية المطاف. وعلى الرغم من المبرّرات التي يقدّمها الناظر حول حتمية وجود قطب آخر فإنه يرى أن إنكارهم له ومقاومته، أفضل من وجوده مع اعترافهم وتسليمهم، ويستطيع الأوتاد أن يستغلوا هذه النقطة الرخوة لسنواتٍ أخرى، فما سيحصل عليه الأحفاد من الحكومة سينقصه اعتراف الأوتاد، وهو شيئ معنوي مهم، ما يعني أنه ستبقى للأوتاد اليد العليا لسنوات لاحقة مهما حصل، وعندهايخلق الله ما لا تعلمون.

لكن العم أبو علي عجز عن إقناع الناظر الذي ظلّ يدافع عن موقفه، وبقي الأمر في نقطة وسطى، لم يتبنّوه ولم يصرفوا النظر عنه.

فرج السقّا قرّر أن يطرح الموضوع بشكل مباشر وأن يدافع عن وجهة نظره أمام الاجتماع الأسبوعي للأحفاد. وقد افتتح الاجتماع بالقول:

- جاءني الناظر محمد بأمرٍ غريبٍ قبل أيام، وما كنت لآخذه على محمل الجد، لولا أن الشيخ أحمد نقله لي بنفسه.

- وماذا يطلب الناظر؟

سأل عدد منهم بصوتٍ واحد. فضحك وقال بنبرة بين الجدّ والمزاح:

- إنه يطلب يد فاطمة لنفسه، ويعدكم بأن تضع الحرب أوزارها من دون أن تطلقوا فيها سهمًا واحدًا!

رأى ذُعرًا في عيونهم وتذمّرًا في حركاتهم، فأضاف:

-أرجو الّا تستعجلوا قراراتكم، وتبصّروا، فنحن أمام أخطر لحظة، لذا فكّروا جيدًا.

السقا نظر إلى ما هو أبعد من الْجَمِيع أوتادًا وأحفادا. فقد رأى أن زواج الناظر من فاطمة سيكسبهم التاريخ والمستقبل في آن، سيظهر على أنه اعتذار متأخر وندية مطلقة. لذلك سعى بأقصى طاقته من أجل أن يأخذ الأحفاد هذا الخيار، لكنه هو الآخر ووجه بالرفض من العجوز بخيت ومن إخوة فاطمة أيضًا الذين أبدوا معارضة شرسة.

فالعجوز بخيت، ومعه أخوة فاطمة، عدا أنهم رافضون للمبدأ من أساسه، مقتنعون أنّه لم يعد للأوتاد سلطة، وما كان بأيديهم في ما مضى صار لا يعدو الآن كونه سلطة باهتة. سلطة ضعيفة وسط سلطات عدة متداخلة تملكها الحكومة بينما قوة الأحفاد قوة جديدة صاعدة، وعليها أن تأتي بأدواتها المستقلة وزمنها الذي لا يشبه ما قبله، خاصة وأن كفة الغلبة في المال والكثرة والقوة تميل لصالحهم. صحيح أنه ينقصهم التاريخ، لكن الزمن كفيل بتصحيحه، مثلما حدث للأوتاد ذاتهم

الأمر الآخر الذي كان الناظر قد وضعه في حسبانه، وكان يمكن لفرج السقّا أن يستغلّه لكنه خشي أن تنقلب الحجة ضده، هو الانتخابات. كان الأحفاد قد قرروا ترشيح السقّا للانتخابات إذا نالوا

اعتراف الحكومة بكيانهم، وأصبح السقّا ناظرًا مثل خصمه الناظر محمد. وكانوا يرون أن عجايب الجديدة معظمها من الأحفاد، والكفة التي يميلون إليها سترجح دون أدنى شك. لكن السقّا الذي يعرف أن الأحفاد لم يصبحوا بعد كيانًا متماسكًا، وأن هذا الكيان يحتاج إلى تاريخ، فلم يكن يرى أن نتائج الإنتخابات مضمونة. فكر السقّا أن يجعل موضوع الانتخابات على الطاولة أيضًا وأن يقايض به مثل الأمور الأخرى، لكنه خشي أن يرفض الأحفاد تصوّره بشأنها كما رفضوا مصاهرة الأوتاد، وقرر أن ينتظر، فما يدور بخاطره لن يُطلع عليه أحدًا من الأحفاد حتى يأتي الوقت المناسب..

«مع تصاعد الأحداث سلك الخصمان اللدودان -الناظر والسقا- طريقين متقاربين قد يلتقيان في أية لحظة. لعله جمال فاطمة الذي يربك نظام الأشياء»..

(5)

سالم وسلمان وسليمان، ثلاثة توائم وُلدوا قبل فاطمة بسبع سنينٍ تقريبًا، هم إخوتها من جهة أبيها. ماتت أمهم أثناء ولادتهم ذات ليلةٍ ساكنة معتمة لم يُرَ فيها قمرٌ أو نجمٌ ساطع، ولم يُسمع فيها نباحٌ أو خوارٌ أو ثغاء. هكذا قالت القابلة خديجة ونساء أخريات شهدن ولادتهم، لكن القابلة أضافت بعد ذلك أنهم ولدوا بين يديها سودًا تمامًا وأخرجتهم من بطن أمهم واحدًا تلو الآخر كأنما تخرج قطعًا من المطاط. لم يصرخوا لحظة ولادتهم مثل سائر المواليد، ولم يرضعوا، ولم تتبدل ألوانهم إلا بعد طلوع الشمس، لكن أيًا من النسوة اللائي كُنّ

معها لم تؤكد هذه الأمور الغامضة، في حين تقول أم فاطمة أن ثلاثتهم لم يمشوا أو ينطقوا إلا بعد أن تجاوزوا سن الثالثة بقليل، واستطاع أبوهم بعد ذلك أن يخرج بهم إلى الناس، يمشون مجتمعين بهيئةٍ واحدة وملبسٍ واحد وطريقةٍ متشابهة في المشي والكلام كما لو كانوا نسخة واحدة.

حين ماتت زوجته أخذهم والدهم إلى قريةٍ بعيدةٍ عن عجايب، أخفاهم هناك لدى قريبةٍ له ستصبح أمّا لفاطمة ابنته فيما بعد، لئلا يصبحوا مثارًا للسخرية أو التشاؤم. تعهّدتهم أم فاطمة ثم تزوّجت من والدهم الذي كان من أكثر الرجال وسامة وعطفًا، فأنجبت إلى جوارهم فاطمة الجميلة، قبل أن يعودوا جميعًا إلى عجايب ويتوفى الوالد بمرض غامض تقول أم فاطمة إنه أصابه بفعل سحرٍ صنعته له أم أحمد عميراي مولاهم. ولذلك قصة لم تروها أم فاطمة لإبنتها. المهم أن التواءم الثلاثة تزوّجوا في سن الخامسة عشرة تقريبًا بعد موت الأب بسنواتٍ قليلة. تزوجوا من ثلاث أخوات وسكنوا في بيتٍ واحد في ثلاث غرفٍ منفصلة داخل حوش كبير ملاصقٍ لبيت فرج السقّا، لكن أيًا منهم لم يرزق بذريةٍ تخلفه. يعيشون مع زوجاتهم اللائي لا يخرجن مطلقًا ويعشن في عزلةٍ عن العالم، لا يزورون أحدًا ولا يزورهم أحدٌ إلا نادرًا. يلقّبهم الناس بحراس الكنز تندّرًا، لوجود فاطمة الجميلة بينهم، لكن أحدًا لا يستطيع أن يناديهم بذلك اللقب جهرًا..

فاطمة ومنذ أن وعت على الدنيا رأتهم يعيشون هكذا، من دون صداقات أو علاقات من أيّ نوع. يسلكون طريقًا واحدةً كل يوم إلى سوق عجايب حيث يملكون مخزنًا كبيرًا لبيع جوالات الخيش الفارغة، يخرجون إليه من بيتهم في وقت ثابت كل صباح ويعودون

منه في وقتٍ معلومٍ أيضًا يمكن للمرء أن يضبط عليه الساعة. يتجنّبهم الناس لطباعهم ولا يقولون في حضورهم ما يحطّ من قدر الأحفاد أو أنسابهم وإلا انقضّوا عليهم وجعلوهم عبرةً لغيرهم. وقد رأت فاطمة من ذلك الكثير لدرجة أنها صدقت أنهم محروسون بقوةٍ غامضة كما يظن أهل عجايب، قوّة تسندهم وتدفعهم إلى العراك دونما خوف، وكانت تطمئن لوجودها بينهم.

نشأت فاطمة في كنف أمها وتحت رعايةٍ غير محسوسة من إخوتها الذين فرضوا عليها طوقًا خشنًا من كل اتجاه. إلا أن الغريب أنهم رغم قسوتهم الظاهرة لم يضربوها قط، ولم ينهروها قط، بل كانوا على الدوام يغدقون عليها المال. وكل ما تحتاجه أو تطلبه يكون حاضرًا بين يديها بمجرد أن تطلبه أو توحي به. يفعلون ذلك بطريقة غريبة ليس فيها من الود شيئ، وكأنهم يؤدّون وظيفة. حتى علاقتها بمحمود كانوا يغضّون الطرف عن كل ما جرى بشأنها لأنها فقط تريد ذلك وإن كانوا لا يطيقون وجوده على وجه الأرض..

أما وقد كبرت، ونال جمالها صيتًا غير مسبوق، فقد زادوا من شدّة اهتمامهم بها، أو ربما خوفهم عليها، ورغبوا أكثر في إبعادها عن عجايب بزيجة عاجلة كما لو كانوا يودّون الخلاص من لعنة جمالها التي أصبحت حديث الناس. أما معركتهم الكبرى فكانت تثبيت كيان الأحفاد، وقد تقاطع موقفهم هذا مع رغبة زعماء الأحفاد بهذه الزيجة الغريبة، الغامضة. لكن رغم كل شيئ كانت فاطمة نقطة ضعفهم الوحيدة والمنطقة الرخوة في حياتهم كلها وإن لم يُظهروا لها ذلك..

لفترة طويلة، لم تخرج فاطمة من البيت إذعانًا لرغبة إخوتها. لكنها ملّت العزلة فقررت أن تزورهم وتتحدث إليهم. لم يكن في ذهنها

فكرةٌ محددة بشأن زواجها من ذلك المأمور الذي لم تره قط، وهي لم تقرّر القبول ولا الرفض، ولا النقاش بشأن تفاصيل لم تكن تهتم لها. منذ أن جرى ما جرى قررت أن تتعامل مع الأمر بطريقة قَدَرية مثلما اعتادت دائمًا وإن كانت الرغبة في رؤية الزوج المحتمل تلحّ عليها بين وقتٍ وآخر، لكن من باب الفضول لا أكثر. وحتى هذه الرغبة لم تسعَ إلى تحقيقها بل تركتها للظروف مثل أمورٍ كثيرةٍ في حياتها.

قرّرت أن تراهم مثلما يحدث في أوقاتٍ متباعدة. دخلت إلى البيت الذي لم تزره منذ وقت طويل، لكنها لم تلحظ أي تغيير يذكر منذ آخر مرةٍ رأته فيها، وكأنها لم تغب عنه سوى أيام قليلة، الغرف الثلاث المتقابلة -والتي لم تدخل أيًا منها في حياتها- لا تزال على حالها بلا لون أو حياة، بينها سقيفة واسعة من السعف والأخشاب الجافة، مائلة إلى الأمام قليلاً ووطيئة السقف، تحتها ثلاثة أسِرةٍ صغيرة ومواقد وطاولة عريضة متداعية عليها بعض أواني الألومنيوم والأكواب الخزفية..

ثلاث طاولات صغيرة أمام كل سرير طاولة، مع ثلاثة مقاعد من الحبال، وفي ركن الحوش ثلاث معزات وإلى جوارها زيران كبيران من الفخار لتبريد الماء. كل شيءٍ محسوب في هذا البيت بعدد ناسه إلا هذان الزيران. جلست على أحد أسِرة إخوتها الذين سرعان ما خرجوا إليها ثلاثتهم في لحظةٍ واحدة وكأنما يتحرّكون وفق برمجةٍ مسبقة. اكتشفت أنها تجلس على سرير أخيها الأصغر سليمان فانتقلت مباشرةً إلى سرير أكبرهم، سالم، فأحاطها بذراعه. لمحت في وجهه لأول مرة توتّرًا غريبًا كما لو أنه يريد أن يبكي لكنه يُغَالِب ذلك. أشاح عنها قليلاً ثم عاد إليها بملامحه المألوفة وإن كان نبعٌ من الدمع قد بدأ يزحم عينيه رغمًا عنهما..

- كيف حالك يا فاطمة؟

قال بصوتٍ متحشرج، متهدّج، ثم كرّر الآخران السؤال نفسه.

- بخير الحمد لله. قالت.

صمتوا جميعاً بعد ذلك، وظلّت فاطمة مطرقة إلى الأرض تطقطق أصابعها. لاحظت بطرفي عينيها أقدام زوجاتهم الثلاث واقفات الواحدة بجانب الأخرى كما لو كنّ ينتظرن إشارةً ما، ثم رأتهن يتحرّكن ناحية المواقد وطاولة الأواني وزيرَي الماء. كلٌ منهنّ تتحرّك في اتجاه، كأنّ لكلّ منهنّ وظيفة محدّدة. كل شيئ هنا يجري بحساب، حتى الكلام. كان سالم وحده من يتكلم، وسألها:

- هل أعجبك جهاز العرس؟

ردّت بإيماءةٍ خجولةٍ من رأسها. التقط سالم صديريته المكوّمة فوق الوسادة وأخرج منها حزمة من النقود وضعها في يدها، فرمقته بنظرة شكر صامتة. فترة أخرى من الصمت مرّت، تكلّم سالم بعدها:

- لا ترددي في طلب أي شيئ، ولا تقلقي من حديث الناس، أهل عجايب لا عمل لهم غير النميمة والخوض في أعراض الناس، أنت أمانة أبينا عندنا ولن نتأخر في أي شيئ يسعدك، وثقي أننا سنقيم لك عُرسًا لم يحصل مثله في كل هذه الأنحاء.

ابتسم لها فهزت رأسها بامتنان، ثم جاءت زوجاتهم بالماء والقهوة والشاي وجلسن، واحدة على رأس كل سرير، مع مرور الوقت، أو ربما بتأثير من كلمات الأخ الأكبر، سالم، تخفف الإخوة الثلاثة من ثقل اللحظة، ومن قيود طباعهم. ومع تتابع صبّ القهوة وهبوب نسمة مسائية منعشة، تبدّل جو الجلسة فلاحظت فاطمة اختلافًا بين إخوتها خاصة حين ضحكوا. ملامحهم التي تكاد تتطابق ذابت فجأة وظهرت اختلافات بينهم.

سالم عريض الفم قليلاً ورخو الشفاه، أسنانه عريضة متلاصقة بينما يبدو سلمان أكثر وسامة، بأسنان صغيرة متفرقة، وخدٍ ممتلئ قليلاً وعينين خضراوين ناعستين بدا معها أكثرهم شبهًا بها، أما سليمان الصغير فوجهه جامد، حين يضحك يفترّ فمه فقط كما لو كان مثبتاً في وجه تمثال، لكن مع ذلك تجمع الوسامة وجمال الخلقة بينهم..

لأول مرة لاحظت أن نظام حركتهم المضبوط قد اختلّ قليلاً، استلقى أحدهم على جنبه والآخر على ظهره والثالث بقي جالسًا. ومع الحديث عن ذكريات صباهم وطفولة فاطمة ومواقف عديدة من أيام عجايب الماضية تمددت ضحكاتهم واتسعت. اكتشفت فاطمة خلال هذه الساعة القصيرة قدرًا من المرح في حياة إخوتها التي لم تسبرها يومًا وكأنها تعيد اكتشافهم..

تصاعدت موجة الضحك حتى شملت زوجاتهم أيضًا. اعتدلت فاطمة في جلستها وسحبت قدمَيْ شقيقها سالم المستلقي على ظهره إلى حجرها وبدأت في تدليكهما برفق بأصبعها الرقيقة ويديها البضتين، فظهرت على وجه سالم حالة من السعادة العميقة تمدّدت لتشمل سلمان وسليمان وحتى الزوجات، واستمرّ الحديث ودودًا كأنهم يحرصون على التعبير عن مدى حبّهم لأختهم.

كانت الضحكات تتعالى على نحو لم تكن فاطمة تتصوّر أنه صادر عن أخوتها أو زوجاتهم. وكانت فاطمة تفكّر بهذه الصورة الجديدة التي رأت إخوتهاعليها، فشعرت في داخلها بندمٍ عميق، لأنها تأخرت كثيرًا في اكتشافها. كيف فات عليها طوال السنوات الماضية أن تحظى بجلسة عفوية حميمة كهذه مع إخوتها؟ كيف استسلمت مثل الآخرين لتلك الصورة التي رسمتها عجايب عن إخوتها الأشقياء؟

وقررت في داخلها ألّا تنقطع عنهم، وأن تبقى إلى جوارهم قدر ما تستطيع لتعوّض جفاف المرحلة الماضية، ولأنها هي أيضًا تحتاج إلى ذلك الجوّ المرح تخفيفًا لحياة الوحدة التي تعيشها.

(6)

في لحظة واحدة غادر الجميع إلى غرفهم إلّا سالم الذي أخذ الحديث فمازحها وداعبها كثيرًا، وتصرّف كأنه يؤكد لَها سعادته بجلوسها الطويل عندهم وتدليكها لرجليه. زمن طويلٌ مضى على آخر مرةٍ تبادلا فيها الحديث. ملأه إحساس مختلط من محبة الأخ والأب، فهو الذي ربّاها بعد رحيل أبيهما، وما زالت ذكريات طفولتها حاضرة في ذهنه، خاصة وأنه لم يرزق بأولاد بعد.

ابتسم في وجهها ابتسامةً عريضة، وأبدى لها إعجابه بالأسورة الذهبية الرفيعة التي تطوّق معصمها الأيسر، وقد وضعت كفها مبسوطةً في باطن كفّه بزهوٍ وهو ينظر بودٍّ إلى الكف والأسورة معًا. أبدى إعجابه أيضًا بفستانها الأخضر الفستقي الذي ترتديه تحت ثوبها الشفاف، وأثنى على اهتمامها بنفسها وجمالها، وبالأخصّ ذوقها في اختيار الأقمشة والألوان. لم يكن واثقًا مما يقول، فهو يعرف تمامًا أن خبرته متواضعة في أمورٍ كهذه، لكنه كان يحاول أن يضاعف من إحساسها بفرحة وجودها معه أكثر، وبالرضا الذي لم تخطئه عيناه في وجهها. سعدت فاطمة لذلك كثيرًا، ووجدتها سانحة لتسأل كل تلك الأسئلة المحيّرة التي ظلت تدور بخلدها منذ أن علمت بأمر خطبتها من ذلك المأمور، ولم تجد لها جوابًا..

قل لي يا سالم، هل هو وسيم؟ أقصد هل هو أبيض وطويل القامة؟ هل هو شاب أم كهل؟ هل يملك قصرًا كبيرًا وخَدَمًا؟ قل لي ماذا تعرف عنه؟

كانت تمطره بالأسئلة، وتتحدث بلهفة. تشير بيدها في الهواء وتنظر إلى الأعلى بفرح، إلى نقطةٍ مرتفعةٍ في الفراغ، بطول قامةٍ افتراضية تخيلتها لخاطبها، وتضمّ فمها مثل طفلة.

نظر إليها بحنوّ.

- الرجال يتزوجون النساء لجمالهن يا فاطمة، لكن العكس ليس ضروريًّا. الرجال يبحثون عن جمال المرأة بدافع من رغباتهم. هذه الرغبات لا يجب أن تكون موجودة عند المرأة. وإن وُجدت فإنها تسبب المشاكل.

قاطعت فاطمة حديثه وتساءلت بفزَع:

- هل تقصد أنه ليس وسيمًا؟

- ليس تمامًا، ليس هذا ما قصدته، الرجل مثله مثل معظم الرجال في البلد، لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح. لكنه مسؤول كبير في الحكومة، هل تعرفين معنى ذلك؟

نظرت إليه وقد أصابها إحباط، فتابع:

معنى ذلك أن له منصبًا وهيبةً ومالًا ونفوذًا. وسامة الرجال تقاس بمثل هذه الأمور..

نظر إليها من جانب وجهه ليرى تأثير كلامه فيها، فرآها مطرقة ساهمة. ضمّ كفّها التي لا تزال في كفّه وشدّ عليها ليستعيد انتباهها، لكنها ظلّت مطرقة. أحسّ بشيء من الحزن، فحاول أن يقول كلمات ظنّ أنها ستفرحها:

- أنت جميلة يا فاطمة، أنت أجمل بنت في هذه النواحي كلها، وتستحقين زيجةً تليق بجمالك هذا، زوجك يملك مالًا ويملك نفوذًا وهذا أقصى ما تتمناه أي فتاة.

ثم زفر زفرة طويلة من عمق صدره، وضمّ يدها من جديد ليطمئنها، لكنها لم تطمئن. شعرت بأن شيئًا ما في هذه الزيجة غير مريح، أحسّت أن هناك غموضًا في الكلام. لا بدّ أنهم يخفون عنها شيئًا، بل أشياء كثيرة. حتى أمها لم تحدثها في الأمر، وأحسّت أن أمها تتجنّب الخوض في الموضوع، وأنها بكلامها عن العهد لمحمود إشارة إلى عدم رضاها. تذكرت حديث نورا الخياطة عن هذا المأمور، حين قالت لها إنه مقاتل قديم من أيام الإنجليز، وخاض معارك كثيرة في الحرب التي جرت مع الطليان لا تزال بعض آثارها على جسده. حسبتْ في سرها سنوات ما بعد الحرب فوجدتهنّ تفوق العشرين سنة ببضع سنين، ما يعني أنه لو كان قد شارك في تلك الحروب فأنه الآن فوق الخمسين سنة على أقل تقدير. ثم ماذا قصدت بأن آثار المعارك لا تزال على جسده؟ هل هو معاق مثلاً؟ أو مشوّه؟ جزعت من ذلك، وقررت أن تسأل نورا حين تراها في المرة المقبلة، «فهي تعرف الكثير عن الذي أجهله» قالت لنفسها..

وخطر لها محمود، بقامته الطويلة الفارعة، ولونه الحنطي الصافي، وشعره المنسدل المتدلي فوق جبينه العريض، تذكرت نظرته الممتلئة بالعطف والطمأنينة، ذلك الصفاء الذي يمور في عينيه الناعستين. تذكرت صوته الهادئ العميق وطبعه الوادع المحبَّب، وضحكته الرائقة الصافية، ونبعت صورته العذبة في خيالها حتى امتلأت بها، ثم قارنت بينه وبين تلك الصورة التي تخيّلتها لخاطبها

فشعرت بالأسى من جديد. التفتت إلى سالم فوجدته وكأنه ينتظر سؤالها، في عينيه النظرة الودودة ذاتها وإن شابها شيئ من القلق..

- أريد أن أسألك، وأخشى أن تغضب مني!

- قولي، لا تخافي..

فركت أصابعها ببعضها..

- قل لي يا سالم، لِمَ لَمْ تأتِ الثورة برفات محمود كما فعلت مع صالح إبن المغنية حوّاء فالول؟

صمت سالم وتبدّل شيء في قسَماته. فتوترت فاطمة، وخشيت أن يتحول ذلك الود الرحب الذي شمله بها إلى النقيض فيفسد كل شيئ، تحرّكت تعبيرًا عن رغبتها بالانصراف، لكنه أجاب من دون أن ينظر إليها:

- كل الرفات التي جلبتها الثورة لم تُعرف أصلًا، ولأن المعركة جرت في مكان قريب من هنا، فقد آثر الثوار أن يدفنوا رفات الذين استشهدوا بين أهلهم، وهي رفات لأجساد متحللة لم تكن مدفونة. أما محمود ورفاقه الذين استشهدوا في المعارك البعيدة فإنهم دُفنوا هناك، والمدفونون لا تُنبش رفاتهم..

تململت في جلستها..

- لكن.. لكنّ أحدًا ممن كان معه في تلك المعركة لم يؤكد استشهاده أو دفنه؟

صمت قليلاً، وحاول أن يحافظ على نبرة الود في صوته..

- هذه الأمور يا فاطمة تعرفها الثورة أكثر مني ومنك، وطالما أنهم أبلغونا باستشهاده فهذا يعني أنه قد استشهد بالفعل..

- .....؟

قطّب حاجبيه، وعادت إلى وجهه ملامحه الجامدة التي تعرفها وتخاف منها..

- يؤسفني أن أقول لك يا فاطمة إن أمر محمود قد انتهى، وأن عليك أن تهتمي بنفسك الآن وتستعدي لحياتك المقبلة، شهر أو أكثر بقليل ويكون زواجك على الأبواب..

قال وكلماته ونهض في إشارة إلى استعداده لمرافقتها إلى منزلها.

الفصل الثالث

(1)

رذاذ لطيف همى عليه وهو نائمٌ في وسط الحوش الصغير فاستيقظ. أزاح الغطاء عن وجهه ومطّ ذراعيه ورجليه. قطرة ماء مرحة، سقطت على عينه اليمنى ثم تناثرت على وجهه، ضحك لها ثم ملأ صدره بنفَسٍ عميقٍ أنعش روحه المتعبة واستوى جالسًا. فكّر في بداية مختلفة ليوم العطلة الأسبوعية. لن يذهب إلى القهوة، فهو مدعو إلى إفطار لمناسبة ختان في بيت الحاج أبوبكر. طوى فراشه بنشاط وقرّر أن يتّجه صوب النهر..

بمجرد أن اجتاز باب البيت أشعل سيجارة. سحب نفسًا عميقًا ثم نفث الدخان إلى الأعلى. السماء فوقه داكنة، مثقلة بغيمةٍ ممتلئة كانت الريح تدفعها بصعوبة فوق قمة الجبل. الهواء رطب تخالطه برودة منعشة. كان يسلك طريقًا ضيّقة بين الأشجار تنتهي إلى النهر. ما إن وصل حتى بدأ المطر يتساقط بغزارة ولا شيئ يحتمي به غير الأشجار الكثيفة المتشابكة. جلس تحتها قليلاً يستمع إلى صوتِ الماء

من حوله وهو يراه يتجمع في جداول صغيرة تجتمع وتتفرّق في طريقها باتجاه النهر. كان يفكّر كيف أن المياه لا تغير مجاريها مهما تبدلت الأحوال حين سمع صوت موسيقى واهن يأتي من خلف الأشجار. ثم انتبه إلى خيطٍ من الدخان يتصاعد قرب حافّة النهر. خمّن أن تكون إحدى سقائف المزارعين التي تتناثر على طول الضفتين لحراسة المزارع أو لأعمال الفلاحة المختلفة، فقام يقصدها على مهل. كانت سقيفة لحظيرة صغيرة من الشوك مقسّمة إلى قسمَين، على اليسار القسم الأكبر وفيه ثوران وحمار وثلاث معزات تلاصقت منكمشة على بعضها بسبب المطر، فوق كومٍ هائلٍ من الروث وبقايا الأعلاف، وعلى اليمين مسكن المزارع. ليس فيه سوى ملابس رَثّة وزنابيل معلقة على جنباته، وسرير من الحبال والخشب وشبح شخص مستلقٍ على الأرض، وصوت ربابةٍ يصدر نغماتٍ واهنة تمور بالأسى. أسى غير منسجم مع فرح زخّات المطر وإيقاعها اللاهث الذي يشحن الدنيا من حولها. خيّل إليه كما لو أن أصابع العازف ترتجف. حركتها على الأوتار مضطربة، متهدّجة، مثل نشيجٍ مكبوت..

أزاح أغصان الشوك التي تملأ المدخل ثم عبر الفناء الصغير بخطواتٍ قليلةٍ حذرة حتى وقف أمام الرجل. كان الرجل مستلقيًا فوق حصيرٍ مهترئ، فوقه مخلاة من الخيش بلون الأرض، واضعًا رجله اليمنى فوق ركبته اليسرى، وعلى صدره ربابة عتيقة يعزف عليها، ويستدفئ بنار صغيرة وضع عليها إبريق قهوة. لم يتنبّه الرجل لدخوله، فأصوات الرعود كانت تهزّ أرجاء المكان، أو بدا كأنه مدركٌ لكنه غير مكترث، فهو يحتفل بسقوط المطر على طريقته. جلس الأستاذ قبالته على مقربة من النار فوق حصيرة وجدها في المكان. بدأت نغمات الربابة تتناسق شيئًا فشيئًا،

بمهارة عجيبة كانت أصابع الرجل تستعيدها مع كل نغمة حتى بدت لأذنيه مدوزَنةً ومملوءةً بحنينٍ غريب. سرى الدفء إلى جسده مع تتابع نغماتها وحرارة الجمرات القليلة المكوّمة أمامه. رفع إبريق القهوة عن النار وصبّ فنجانين له وللرجل. ارتشف الرجل بعض رشفات القهوة. وفجأة، انطلق من حنجرته صوتٌ أصابه برعشة..

في كل عام،،
حين ينزل المطر، ويخضوضر العشب،
حين تشبع الشياه وترقد متخمة
في كل عام،،
حين تعود الطيور من رحلة الصيف
ويفيض النهر محمّلاً بجذوع الشجر
وخشاش الأرض،،
في كل عام،،
حين تشهق الأرض فرحًا تحت زخات المطر
وتنساب الجداول موجاتٍ صغيرة حالمة،،
في كل عامٍ
كنتِ يا أمي رمزًا لكل هذا الشجن
ولكل هذا الفرح الذي تضجّ به الحياة

بدا كأنّ الصوت لم يكن له. صوتٌ عجيبٌ في غيابه عن المكان وعن أصوات البروق والرعود ومهرجان المطر. الأغنية ذكّرت الأستاذ بأمّه لبرهةٍ فذرف دمعة. حينها فقط التفت الرجل إلى وجوده. توقف عن

الغناء والتفت إليه. وجهٌ مليء بالأسى، عيناه غائرتان مدفونتان تحت جبهة عريضة بارزة وعظمتَي خدَّين ناتئتَين. أنفه قائم حاد، وأذناه كبيرتان نافرتان عن رأسه الأصلع، وجسده نحيل يختبئ داخل معطفٍ واسعٍ من الصوف. افترت شفتاه الرقيقتان لبرهة عن ابتسامة سرعان ما أطفأها وعاد الحزن إلى وجهه الأمرد، وأطلق من حنجرته فجيعةً أعمق..

صوتي رمادٌ
نواحٌ يهيل الموت على الحياة
في كل عامٍ يا أمي، في كل عام؟
لماذا يستيقظ الجرح؟
لماذا لا ينام؟

ثم توقف الرجل عن الغناء فجأةً وسوّى جلسته. مسح على ربابته برفق، ووضعها بحرصٍ في كيس من القماش كمن يضع سيفًا متوارَثًا في غمده. عاد يرتشف قهوته في صمت. فنجانًا تلو الآخر، وعيناه مركزتان على موضعٍ ما حول النار..

- هل هذا الغناء لك؟

سأله الأستاذ، لكنه لم يجب. خرج إلى الفناء وهو يعرج على رجله اليسرى عرجًا خفيفًا. وقف وقد وضع يديه على جنبيه يتأمل السماء التي هدأت إلا من رذاذٍ متقطع. بدا له شخصًا غير سويّ. فقرّر الأستاذ أن يغادر..

تقدم خطواتٍ قليلة في الممر الضيق بين حافة النهر ومنابت الحقول فإذا به يسمع وقع خطواته العرجاء خلفه..

- هذا النهر المجنون مستودع أسرارنا العظيمة!

تملّكته الدهشة من كلامه الغريب. أبطأ في سيره وظلّ صامتًا.

- أتعرف؟ أجدادك الحمقى، أعياهم جبروتهم وحماقاتهم في زمانٍ بعيد، ولم يُداوِها إلا هذا النهر العنيد!

ثم ضحك ضحكة ساخرة وأردف:

كان لهذا النهر ثورات مزلزلة بين حين وآخر. يغرِق البيوت ويقتل الزروع ويزهق الأرواح. وفي صيفٍ بعيد، قرّر أجدادك الأوتاد أن يواجهوا جبروت النهر بجبروتهم. جاؤوا إليه ذات ليلة، وكان الأفق مشحونًا بنذرٍ لم يفهموها. حملوا كبيرًا منهم غرّته شجاعته، أو قُلْ حماقته. حملوه على سرير من الخيزران، وهو في كامل زينته وجبّته المحلّاة في أطرافها بالحرير المذهّب وسيفه المرصّع بالفضة والعقيق، ثم وضعوه في قلب النهر وربطوا السرير بحبل في جذع شجرة، وقالوا له «نتحداك بأشجعنا وأكرمنا وأحسننا». ثم جلسوا بعصيّهم وسيوفهم على الشط ينتظرون ما سيفعله النهر حتى طلوع الفجر..

ثم قهقه حتى فرقعت ضحكته المجنونة، فقال الأستاذ:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- تسأل ماذا جرى؟ وهل تنتظر هزيمة النهر أنت الآخر؟ أقسم أن الحماقة تجري في دمائكم..

-أقصد ماذا فعلوا؟

-حين استيقظوا في الصباح، كان النهر قد ذهب بكبيرهم. أوسعوا الماء ضربًا بالعصيّ وطعناً بالسيوف حتى التهم منهم ما وسعه أن يلتهم..

ضحك الأستاذ وهو ينظر إلى الأعرج، الذي ما إن خلع ملابسه حتى ظهر ختم خفي الجمل، ختم الاسترقاق المستدير، في أعلى ظهره تحت الرقبة مباشرة، وعرف أنه من الأحفاد. لكن الأعرج لم يكن يكترث لشيئ، خَلع جِلْبابه وتعرّى إلا من سروال فضفاض. ربط جلبابه بإحكام في وسطه الضامر ثم نزل إلى النهر وغاب فيه كما لو كان أحمق آخر..

جلس الأستاذ على حجرٍ قريبٍ من الحافة يتأمّل النهر، ويتخيل ما قاله الرجل. لاحت له صورة جدّه على سريره العتيق، ورجاله الحمقى يوسعون الماء ضربًا. ضحك في نفسه.

خرج الأعرج من الماء فجأة، يضحك، ضحكته الموتورة ذاتها..

- أتريد شيئاً من جدك المسكين؟ إنه هنا في الأسفل يلعنكم بلسان كل آلهةٍ عبدها البشر!

قفز عاليًا كما تفعل الأسماك المرحة، ثم غاص بطوله في الماء واختفى. وقف الأستاذ يترقّب خروجه مجددًا لكنه لم يفعل. ثم سمع صرخة على الشط الآخر ورآه يلوّح له. أحس بالسخرية في ضحكته النحيلة التي كانت تأتيه مع أصوات الموج واضحةً، ساخرة..

(2)

«إلهي يا إلهي،، وامددنا بفيضِ الميرغني..
يا حَنّان يا مَنّان،، ربي وارونا بكأسِ الهاشمي..
بحقِ الذاتِ والأسماءِ،، طُراً وأملاكٍ ورسلٍ أفضلِ..

عاد الأستاذ من النهر وتوجّه إلى بيت الحاج أبوبكر. كان

الدرويش سريراي ينقر على طاره بحماسة أمام البيت، يتقافز مجذوبًا وهو ينشد بصوتٍ أخرقَ نحيل كأنه يصيح على بضاعة، كما هو دأبُه في الأفراح والولائم، وصاحب الدار مغتبطٌ، بشوش، يعلو صوته بالترحاب كلما استقبل فوجاً من المدعوّين. لقد خَتَن الحاج أبوبكر حفيدَيْن هذا الصباح، وأوْلَمَ لهما. تفرّق المدعوّون رجالاً ونساءً في حوش البيت والبيوت المجاورة..

في الصالون الكبير أعيان البلد، الناظر محمد، الشيخ أحمد، العم أبو علي، وبعض من آل عميراي وحاج حامد.. وقد اصطفّوا على المائدة الكبرى..

كان العم أبوعلي -وهو الذي خدم جزءًا من شبابه جنديًا في قوات «الإسكاري» التابعة للجيش الإيطالي- يحدّثهم بزهوٍ عن ضابطٍ إيطالي ذكي حكم هذه الأنحاء. كان يحكي لهم قصته مع عجوزٍ تزوّج عليها بعلُها بأخرى تصغرها بثلاثين عامًا. كانت العجوز قد كافحت طوال عمرها حتى أصبح لعائلتها الأرض التي يملكونها، وأحسّت بالإهانة من تحويلها إلى خادمة لامرأةٍ ليس لها من الحسَب والنَّسب سوى صغر عمرها وطراوة لحمها، فطلبت الطلاق وطالبت بالأرض التي يملكها لها ولأولادها مهدّدة بقتلها وقتله. فشلت محاولاتُ ثنيها عن ذلك من طرف الشيوخ والأقارب والأعيان، فجيئ بها إليه، ربما يجد حلاً، فقد كان عارفاً بأمورٍ كثيرة..

سألها:

- هل لديك وثيقة زواج؟

- لا، ليس لدينا وثائق..

- وكيف تزوجتما؟

- زوّجنا الشيخ حامد؟
- وأين هو الآن؟
- توفّي منذ سنواتٍ طويلة..
صمت قليلاً كما لو كان يفكر، ثم قال:
-حسناً، إذهبي الآن وعودي إليّ في الصباح..
وجاءت في الصباح. نظر مليًا في أوراق كثيرة بين يديه، ثم رفع رأسه ونظر إليها:
- أعتذر منك، لا شيئ يمكنني أن أقدّمه لك، لعلّ ما يعقده الشيخ المُبارك لا يُفتح لنصرانيٍّ مثلي!

وانفجر المجلس مقهقهًا. ثم اعتدل أبوعلي في جلسته، واستعد ليروي حكاية أخرى عن عشيرتين اختلفتا حول ملكية أرض..لكن في الأثناء دخل وفدٌ من الأحفاد يسبقهم سريراي بطبله وقفزاته. جاؤوا في جلاليبَ وعمائمَ نظيفةٍ. نصفهم تقريبًا يراهم الأستاذ لأول مرة. سلموا جميعُهم على الحاضرين واحدًا بعد الآخر، ثم جلسوا في مقاعد مقابلة لمجلس الأوتاد، في الجانب الآخر من الصالون الفسيح..

تعكّر مزاج العم أبو علي، وتوقّف عن الحكي، ينظر إليهم بامتعاضٍ تارةً ثم إلى شيئٍ مجهولٍ عبر النافذة تارةً أخرى..

كان واضحًا من طريقة سلامهم وحديثهم أن أشياء كثيرة قد تغيرت، لم يحدث مطلقًا أن اجتمعوا مع أعيان البلد وكبارها في مكانٍ واحدٍ طوال تاريخهم، إلّا حين يخدمونهم. أما هذه المرة، فقد كانت عيونُهم في عيون سادتهم السابقين. عيون شاخصة متمعّنة لا انكسار فيها. وقد جلسوا كما يجلس الآخرون، ينتظرون مائدتهم كما ينتظرون. كانوا مثلهم تمامًا. وحده العم أبو علي كان يتململ منزعجًا.

بادر فرج السقّا بفتح الحديث قائلًا:

- سامحنا أبو علي، قطعنا عليك حديثك..

ضحك أبو علي ضحكة مبتورة، ساخرة، وهو يتشاغل بلملمة ثوبه ويلوّح برأسه:

- لا عليك، كنا نتحدث عن أحوالنا التي تبدلت، الدنيا كما ترى لم تعد كما كانت يا شيخ فرج..

- لا دائم إلا وجهُه..

- صدقت والله، صدقت..

سادت فترة من الصمت، إلا من صوت عصا الناظر وهي تطرق الأرض طرقًا خفيفًا متباعدًا، ثم قال الشيخ أحمد..

- رأيتُ الجمعة الماضية رتلاً من العربات أمام بيتكم يا شيخ فرج، لعله خيرًا..

- خير إن شاء الله، تعرفون طبعًا أن زواج «بنت هُمّد» عمّا قريب، ونحن نتحضر لنرسل الدعوات ولنرتّب أمورنا..

لم يستطع أبوعلي أن يكتم غيظه..

- ما شاء الله، لقد فتح الله عليكم يا رجل..

قال فرج بغضبٍ مكبوتٍ:

- نشكر الله. نحن بشر، نُزوِّج ونتزوّج، أم ترى ما يمنع يا شيخ أبو علي؟

- أستغفر الله، ليس هناك ما يمنع، لكنكم أعطيتم كلمة لبخيتة وابنها، واتّباع الأصول واجب؟

- محمود مات، الله يرحمه والحي أبقى من الميت..

- أمّه تقول إنه حيّ..

- هذا في علم الغيب، ونحن علينا بالظاهر. الثورة قالت إنه مات وليس لدينا ما يحملنا على تكذيبها، على العموم أصبح هذا الأمر من الماضي..

كاد الوضع يتوتر بين الرجلين، لولا أن الحاج أبوبكر وأبناءه دخلوا بموائد الطعام، لهؤلاء وأولئك..

سادت فترة من الصمت لا يُسمعُ فيها سوى صوت المضغ والبلع، وصوت الحاج أبوبكر يلحّ على هذا وذاك ليأكل أو يشرب. كانوا متقابلين، على يسار ويمين المجلس، يتبادلون نظرات صامتة. إمتلأ الصالون الفسيح بصمتٍ ثقيل، وامتدت اللحظة بين طرفيه ساكنة، جامدة، وطفحت على الوجوه مغارم التاريخ. مزيج من الألم والزهو ينطق به صمت الأحفاد ونظراتهم، يقابله حنقٌ عظيم في وجوه الأوتاد الواجمة..

(3)

انتهت المواجهة في صالون الحاج أبوبكر على خير، ووقف الجميع. أزيز العربات والشاحنات ونهيقُ الحمير ملأ الفضاء. شعر الأستاذ بالرغبة في العودة إلى الطبيعة التي غسلها المطر هذا الصباح. سار في طرقات القرية باتجاه المزارع والحقول مرةً أخرى. كان المطر قد توقف، لكن لا تزال بقية رذاذ منعش تتساقط. مسارب المياه في الأزقة والشوارع جرفت الرمال من مجاري المياه النحيلة الملتوية، وبدا الحصى الأحمر المكوّر يتموج مصقولا تحت المياه النقية. جنبات الحوائط وسياج البيوت نصف جافة ونصف مبللة، وصوت أقدامه على

الرمل المبلل يوحي بالنظافة وينقل إليه إحساسًا كما لو أنه يمشي فوق جليدٍ هش. خلع حذاءه وحمله في يده ثم مشى حافيًا لمسافة طويلة حتى وصل إلى مكانٍ مرتفعٍ وجلس يتأمّل. الحقول أمامه، ومن ورائها يظهر النهر ويختفي خلف الأشجار المعمّرة. أسقف البيوت والعمران ممتدة إلى حدود الجبل المقابل، تحوم فوقها سحابة تنطلق من دخان القدور المنصوبة في دار الحاج أبوبكر حيث سيستمرّ تقديم الطعام. رائحة الأراك النفّاذة تعبق في المكان، مختلطة برائحة الطين القادمة من الحقول وروث البهائم ورائحة سمن بلدي. رأى طفلة تجري خلف معزات تتقافز أمامها في رشاقة ومرح، خرجت من بين البيوت متجهةً إلى أطراف الحقول..

تذكّر فوزية التي لم يستطع أن يلتقيها منذ خروجه من السجن. في هذا المكان عينه كانا يجلسان، يحكي لها طويلاً عن أحلامه الغريبة، عن الحرية التي ستأتي لا محالة. عن الثورة وحتمية انتصارها، وعن حقّ الطبقات المسحوقة في الحياة الكريمة. عن حق الأريتريين في الاستقلال وتحقيق حلم الدولة الأريترية وخلق ظروفٍ اجتماعية واقتصادية مريحة للناس، وعن وحدة عمال العالم ومحاربة الجشع والرأسمالية... وفوزية، لصغر سنّها، لم تكن تفهم كثيرًا مما يقول لكنها تعتقد أنه يقول كلامًا كبيرًا ومهمًّا يشعرها بالزهو إلى جانبه..

وكانت هي تحدثه أيضًا عن رغباتٍ غريبة على فتاة في تلك البقعة من العالَم. وتكرّر دائمًا «سمعت في الإذاعة... تحلم أن تجلس في مجالس الرجال وتتكلم، وتقول رأيها من دون أن تخاف أو تخجل. تتحدّث عن الظلم الذي تتعرّض له النساء وعن حقوقهن التي لا يفهمها الرجال، وتتحدث عن نساء يقدنَ الرجال في مجالات كثيرة...

يضحك ويبدي لها سعادته

مرّة في غمرة حماستها في الكلام عن حق المرأة بالمساواة، قال لها:

-حسنًا أنتِ الآن في مكان الناظر محمد، هيا أخبريني ماذا ستفعلين؟

-أول شيئ سأفعله، سأعطي تمثيلاً للنساء في مجلس البلد، نصف للرجال ونصف للنساء..

-ثم ماذا؟

-سأصرّ على حقّهنَ بالتعليم، سواء بسواء، فعقل المرأة لا يقلّ عن عقل الرجل. وعلى حقّ المرأة بأن تصل إلى أعلى المراكز في السلطة، فالمرأة أكثر رأفة بالعباد..

-ثم؟

-لن أوافق على أي قرار يخصّ النساء قبل أخذ موافقتهن..

-وبعد

-سأمنع تعدّد الزوجات.. وبالمناسبة هناك الكثير من الرجال يرفضون تعدد الزوجات..

وقبل أن تكمل كلامها قاطعها:

-لكن هذا يخالف الشرع؟

-نعم سأخالف الشرع حين يكون في الشرع ظلمٌ لفئة من البشر!

ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

-والله إنك ستخربين البلد..

فتضحك ضحكة صادقة، ويضحك هو أيضًا ويضمّها إلى صدره.

كان محلقًا في خيالاته مع أطياف فوزيّة الندية المرحة، عندما سمع أصوات أقدام تقترب، ونبراتٍ مبحوحة خافتة. اقتربت الخطوات أكثر وبدت الأصوات أكثر وضوحًا. صوت ذكوريّ، وآخر أنثوي رقيق بدا في خياله وكأنه صوتها..

رجل وإمرأة من أهل البلد يسيران جنباً إلى جنب. يتحدثان بحميمية ويضحكان بين وقتٍ وآخر. همهم في صدره:

- فوزيييييية!

***

عاد إلى القرية، وقد راح عنه انقباضه.

صوت موسيقى عسكرية كان يهدر من مذياعٍ في أحد البيوت، أعقبه صوتٌ موتور ٌ يُحذر الإرتريين من التعاملِ مع قطّاع الطرق -هكذا كانت سلطات الاحتلال تسمّي الثوار- لكن الثورة كانت قد انتقلت من مرحلة المناوشات والعمليات الفدائية المتفرّقة إلى خوض معارك كبيرة منظَّمة. اقترب عدد جيش التحرير الإريتري من عشرة آلاف مقاتل مسلحين تسليحًا متوسطًا وثقيلاً بفضل ما غنموه خلال المعارك مع جيش الاحتلال، وتواترت الأنباء عن انتصاراتٍ مهمّة للثوار، وحملت الأيام الماضية أخبارًا طيبة إذ نصبوا كمينا -في موقع «عَقامَتْ» القريب من مدينة «أَفْعَبَتْ»- لقوات الكوماندوز الإثيوبية أسفر عن مقتل العشرات من جنود الإحتلال، ولم تقع خسائر تُذكر في صفوف الثوار، وهي مواقع لا تبعد كثيرًا عن عجايب. وعلى الرغم من استياء الأستاذ من تصرفات قادة الثورة بشأن أمورٍ كثيرة إلا أنه في دخيلته كان يشعر بالفرحة لمثل تلك الأخبار..

وكان كلّما فكّر بالثورة تحضر أمامه صورة صديقه ورفيق عمره محمود! أين أنت يا محمود؟

وتعود إليه بعض ذكرياته مع محمود، خاصة ذكريات نقاشاتهما المرحة حول مَنْ هي أجمل فتيات عجايب: فاطمة أم فوزية..

(4)

الإحساس بأن ثمة شيئًا غامضًا، هو الذي يتحكم في ما يجري، لم يفارق الأستاذ منذ أول يوم، يأتي بالأحداث من منبعٍ غامض ثم يسوقها نحو أفقٍ أكثر غموضًا، ماذا لو نشبت الحرب بين القبيلتين فجأةً؟ أي قوةٍ في هذا العدم الممتد سيكون بإمكانها وقف جنونٍ كهذا؟ وأي ثمنٍ باهظ سيدفعه هؤلاء البائسون من وراء كل هذه الحماقات؟ سأل نفسه كثيرًا مثل هذه الأسئلة، لكن وكما في كل مرة، كان يرعبه التفكير في المآلات، فسلطة الاحتلال إن تدخّلت فإنما ستفعل ذلك وفق مصلحتها، والأرجح أنها ستؤجّج الصراع لتُظهر تخلّف الأريتريين وعدم قدرتهم على فضّ نزاعاتهم. والثورة عاجزة، مشغولة بما هو أهم.

جاءه زيدان وبعض الشباب يستأذنونه في إقامة اجتماعٍ في أحد فصول المدرسة بهدف المناقشة والإعلان عن جمعيةٍ أهلية. لم يكن راغبًا في الموافقة، ولا في حضور هذا الإجتماع، فأوضاع البلدة لا توحي بالطمأنينة.

لكنه، وافق تحت إصرار الشباب الذين نقلوا إليه مشاعر الحماسة التي ذكّرته بنفسه قبل سنوات.

بفي موعد الإجتماع قرّر أن يحضر وقد فوجئ بأن الصورة هنا مختلفة كليًا، وكأنّ ما يحدث في هذه القاعة يحدث في كوكبٍ آخر وفي زمنٍ مختلف. شبابٌ أغلبهم ما بين العشرين والثلاثين، يحملون وجوهًا تقرأفيها -ومنذ اللحظة الأولى- ذلك المعنى البسيط للحياة، تلك الرغبة الواضحة في أن تستمر وتتقدم وتزحم الآفاق بضجيجها وأحلامها العريضة التي لا تنتهي. العيون التي حوله كانت ملأى بالحيوية والحماسة، والأفواه تقول كلامًا بأوضح ما يكون الكلام، أن ثمة طريقًا ثالثًا ينبغي أن يُرى في زحمة ما يحدث، وتعبّر عن الرغبة في تغيير مجرى الأحداث..

ومثلما فهم من النقاش الطويل والمرهق الذي امتدّ لما يقرب من ساعتين أن الجمعية المقترحة ستطلب من الأهالي تقديم جزء بسيط من محصولات الأرض، وستطلب وضع رسم بسيط على سيارات النقل التي تدخل سوق عجايب لتفريغ حمولتها أو شحنها، كما ستسعى للحصول على تبرّعات من الميسورين والتجّار، وتدفع جزءًا من عائداتها في النهاية إلى تجار عجايب وموزّديها ليقدموا أنواعًا من السلع الغذائية الضروريّة لبعض فقراء البلد وفق قائمة مدروسة بعناية. وسيعمل شباب الجمعية على مساعدة الفقراء والمحتاجين في بناء بيوتهم أو ترميم تلك الآيلة للسقوط منها، بالإضافة إلى مساهمات خيرية أخرى متنوّعة. وأن هذه الجمعية لا علاقة لها بالأحفاد أو الأوتاد، بل هدفها تجاوز هذا الصراع والدفاع عن عقلية المساواة. شعر في دخيلته بحماسة شديدة لهذه الفكرة المنسجمة كلياً مع نزوعه الاشتراكي القديم..

عشرات المقترحات المتسلسلة والمترابطة وفق ترتيب زمني دقيق تلاها زيدان، رئيس اللجنة، أمام الحضور الذين ضاقت بهم جنبات

الفصل الواسع رغم حرارة الطقس، حتى أن بعضهم كان واقفًا على الباب وخلف النوافذ. وقد ناقش الحضور كافة البنود والمقترحات بمنتهى الجدّية والإخلاص..

كانت الأمور تسير بذات الحماسة والإيقاع السلس الذي بدأت به، إلى أن جاء أربعة من الشبان يتقدمهم شاب طويل القامة، عريض الصدر إسمه إبراهيم، وهو أحد أبناء أحمد عميراي. وراحوا يدفعون الواقفين بالباب ليدخلوا. فأشار زيدان للواقفين ليفسحوا لهم، وقام بعض الشباب من أماكنهم ليُجلسوهم. في البداية فرح الشباب بحضورهم إذ ظنّوا أنهم جاؤوا للمشاركة في نشاط الجمعية. لكن الفرحة تلاشت بسبب ما كان يرتسم على وجوههم من تعبيرات غير مريحة، حتى إذا وصل النقاش إلى اختيار اللجنة التي ستشرف على جمع الأموال وتوزيعها، وقف ابراهيم معترضًا..

- هذه اللجنة لا تمثلنا، معظم أفرادها من الأحفاد وهذا فيه إقصاء لنا..

التفت إليه الحضور بنظرات مرتابة، وهمّ بعضهم بالحديث، لكن زيدان رئيس الجلسة حسم الأمر بجُملٍ قاطعة:

- نحن نجتمع هنا منذ أسابيع ودعَوْنا الكل، وها نحن نكمل العمل مع من استجاب لدعوتنا، لا نميّز بين أحفاد وأوتاد وغيرهم، كلنا أبناء عجايب ونسعى لخيرها..

نفخ الشاب صدره، ثم رفع صوته:

دعك من هذا الكذب، أنت تقول هذا الكلام لأنك من الأحفاد، وعليك أن تعرف أن الأوتاد أصل هذا البلد وأي أمر يتجاوزهم لا شرعية له ولا يمكن قبوله.

- لكن ها هو الأستاذ اسماعيل معنا، وخليل عضو في اللجنة وهناك غيرهما، إلَا إذا كنتم تعتبرون أنكم وحدكم الأوتاد، وفي كل حال نحن نرحّب بكم لتنضمّوا إلى الجمعية، بل يسعدنا ذلك.

لكن ابراهيم أصرّ على عدم شرعية الجمعية، ووقف رفاقه يؤازرونه، ووقف آخرون يخالفونه، واحتدم النقاش بينهم وبين المنصّة، وساد هرجٌ ومَرَج. قِلّة في صفهم وكثرة ضدهم. تداخلت الأصوات وارتفعت الأيدي وغاب النظام..

ومن مكانه لمح اسماعيل خلف رؤوس الواقفين على النافذة مجموعة قادمة وقد تسلّحوا بعِصيّ وقضبان حديد يلوّحون بها، ثم سمع صراخًا من خلفه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ورأى مجموعة أخرى تطلق صيحات الغضب. فرّ الواقفون على الأبواب والنوافذ، وأيقن الأستاذ أن المكان مقبل على فوضى وربما دماء..

قبل أن يفكّر في طريقة لتهدئة الوضع رأى إبراهيم ورفاقه يتجهون نحو المنصة. وبدأ العراك بالأيدي، ثم وصلت المجموعة التي تحمل قضبان الحديد والعصيّ فتطوّر العراك وظهرت سكين تلمع في يد ابراهيم..

خرج الأستاذ بصعوبة، ووقف في فناء المدرسة، ثم انضمّ إليه آخرون. وفجأةً خرج أحدهم يصرخ..

- طعنوا زيدان بالسكين..

وكان آخر يصرخ..

- ضربه الأوتاد.. ضربوه بالسكين..

عندما سُمع أزيز سيارات الشرطة، تدافع كل من في الداخل إلى الخارج. كان إبراهيم ورفاقه وآخرون يجْرون ناحية السور القريب

حيث اعتلوه وفرّوا. لم يبق في المكان إلّا بعض الجرحى وبعض أعضاء اللجنة يصرخون في الباقين لنجدتهم. وصلت أوّل سيارات الشرطة، ونزل منها خمسة شرطيين، ثم جاءت سيارات أخرى، ولحقت بها سيارات الإسعاف...

تمّ إجلاء الجرحى إلى مشفى البلدة، وقبضت الشرطة بعد ذلك على إبراهيم ورفاقه، وعلى أعضاء لجنة الجمعية أيضًا، وتحفّظت عليهم جميعًا لتبدأ تحقيقها في الصباح، واستُدعي الأستاذ للتحقيق. وعندما كان الأستاذ في مركز الشرطة علم أن زيدان مات، وأن زيدان هو إبن شقيق فرج السقّا..

(5)

كان مشهد الموكب مهيبًا وهو يهدر ناحية المقبرة البعيدة في وقت الضحى، أوّل موكب التشييع وصل المقبرة وآخره كان عند بيت فرج السقّا قرب النهر. يتقدّم الموكب المأمور وإلى جانبه فرج السقّا بوجهٍ متوتّرٍ محموم، ومعهم إخوة فاطمة وكل أعيان الأحفاد وبعضهم جاء من خارج عجايب. أما من زعماء الأوتاد فلم يخرج إلى الدفن غير الشيخ أحمد.

اتخذ الاستاذ مكاناً يستطيع منه أن يرى ما يجري. رأى نهرًا من البشر يتلوّى بين البيوت الواجمة، كان الموكب صامتًا، تحوم فوقه سحابة هائلة من الغبار. وقع الخطوات الموتورة الغاضبة وخشخشة الأحذية على الرمل أضافت إلى مشهد الموكب إيقاعًا مهيبًا، وهو يقترب من المقبرة الكائنة في طرف الصحراء..

كان الوجوم مسيطرًا عندما انطلق هتافٌ خجول: يا أحرار نريد الثار. ثم تصاعد هدير الهتاف بسرعة، وانداح من أول الموكب إلى آخره كما تنداح الموجة، وتضخم مع رجع الصدى القادم من بطن الجبال..

- «الثار الثار يا أحرار.. يا أحرار نريد الثار».

«وكما لو أن الكون كله في تلك اللحظة كان ينصت لهذا الهتاف المرير، كانت الآفاق الممتدة ساكنةً إلا من صداه الهادر، سَرَت في الأجساد المتدافعة قشعريرة كريهة كانت لها رائحة الدم والعرق والانتقام».

نزل اسماعيل سريعاً يجري بين الحشود ريثما بلغ أول الموكب من جديد، هناك وقف فرج السقّا ليتدارك الأمر، رفع رأسه فلم يرَ غير أول الموكب، وحتى حين حاول الحديث لم يسمعه غير المتزاحمين على صفوفه الأولى، فصعد بصعوبة فوق مظلةٍ من الطوب شُيّدت للصلاة في طرف المقبرة..

وقف لبرهة يتأمّل الموكب الذي انضمّ آخره واستدار حول مكان وقوفه، مسح الجمع بنظرة شاملة أكثر من مرّة ليتأكد من صمت الجميع. كانت عيونهم جميعًا معلّقةً بالنقطة التي يقف فيها. أشار إلى البعيدين كي يقتربوا، وعندما لمح بعضهم يحاول التحرّش بالشيخ أحمد صرخ فيهم مهدِّدًا، وأشار إلى إخوة فاطمة وآخرين أن يصنعوا حوله طوق حماية. وبعد أن اطمأنّ، استند بيديه على عصاه وبدأ حديثه بصوتٍ هادىء لكنه عالي النبرة:

- إسمعوني يا أحفاد، إسمعوني جميعًا. ليس المقام مقام انتقام، إننا في مقبرة لإكرام ميّتنا بجنازةٍ لائقة ووداعٍ خاشع، أما غير ذلك فلا مكان له ولن نسمح به، هذا أولاً، وثانيًا..

قاطعه بعضهم..

- الثار.. الثار

سيطر على انفعاله بصعوبة وقد خفض بصره إلى يديه المتكأتين على العصا، يحرِّك أصابعهما بتوتّر. انتظر ريثما صمتوا، ثم رفع رأسه ليتحدث من جديد لكنه رفع عصاه لتساند صوته هذه المرة. كانت عصاه تلوّح وهو يصرخ بأعلى صوته:

إسمعوا يا أحفاد، لسنا رعاعًا نأخذ حقّنا بأيدينا، وإنما مؤمنون وعاقلون، لدينا الحكومة (وأشار بعصاه إلى المأمور المطرق إلى الأرض) ولدينا قانون وشرطة، وفوق ذلك لدينا حكمة وصبر وإيمان..

خرج أحدهم من وسط الجمع، يحمل سيّفا على كتفه، وعصًا غليظة في يده اليسرى، وقف تحته مباشرة وعيناه تنظران إلى الشيخ وتقدحان شررًا، وصرخ:

- أي شرطة وأي قانون؟ الحكومة متواطئة.

لكن السقّا أسكته بإشارةٍ صارمةٍ من يده وأكمل:

- إسمعوا يا أحفاد. إسمعوني كلكم. الذي يتعرض لأحدٍ من الأوتاد أو ممتلكاتهم أو أرضهم فقد اعتدى عليّ، وأقسم بالله ثلاثًا سيجدني في وجهه، وعليه أن يقتلني قبل أن يمسّهم بسوء.

قال كلماته الأخيرة بلهجة صارمة قاطعة، ونزل من مكانه وتوجّه نحو باحة الصلاة. وجيء بالجنازة ووضعوها أمام الجمع الذي اصطفّ للصلاة عليها، فطلب السقّا من الشيخ أحمد أن يتقدم المصلّين. همهم البعض معترضًا، وتردّد الشيخ أحمد معتذرًا بخجل، لكنه تقدم في النهاية وصلّى بهم..

لم تكن مراسم الدفن طويلة. ما إن وضعوا قتيلهم داخل قبره حتى قرأوا الفاتحة على روحه، وردّدوا «آمين» خلف الشيخ أحمد، ثم وقفوا ينتظرون توجيهات السقّا الذي طلب منهم، وهويغالب دموعه، أن يتوجهوا جميعًا إلى المسجد لإقامة مجلس العزاء. فاتخذ الموكب طريق عودته نحو القرية بهدوء..

جلس الأستاذ تحت شجرة يلقي نظرة أخيرةً على الموكب المقفِل نحو عجايب بفوضى وصمت، حتى تلاشى آخره خلف الشجيرات وبين البيوت..

عندما وقف ليغادر تناهى إلى سمعه نشيجٌ خافت من ناحية القبر. فإذا به يرى أحدهم فوق قبر زيدان. كان جاثيًا على ركبتيه ورافعًا يديه إلى السماء، ورأى رايةً ملقاةً على الأرض وطبلاً وإبريقًا فعرف على الفور أنه سريراي، لكن ما الذي جاء به وحيدًا؟

نزل من مكانه حتى وقف في مواجهته تمامًا. لم يُعره سريراي أدنى اهتمام. كان وجهه معلقًا بالسماء، وعيناه تذرفان، ولسانه يلهج، وصدره يرتفع ويحطّ بنشيجه المكتوم..

جلس الأستاذ فوق حجرٍ على الجانب الآخر من القبر ينتظر فراغ سريراي مما هو فيه، ثم سمعه يدعو..

- يا حنّان، يا منّان، إنه زيدان، إبن أمتك الصالحة آمنة، وابن ابن عبدك الصالح عثمان، تعرف قدرهما وتعرف محبّتهما، فأنزله برحمتك منزلتهما، واقسم له من محبّتك وعدلك، يا غفور يا رحيم، وسّع له في قبره بجاه الحبيب، وحق محبة سيد الختم، الحبيب النسيب، واسقه من نهرك الذي تسقي منه العابدين والسالكين والذاكرين، آمين..

بعد أن انتهى من دعائه نظر إلى الأستاذ نظرة فارغة ، ثم حمل إبريقه ورشّ ما فيه من ماءٍ فوق القبر، ثم حمل متاعه وانصرف، لكن إلى الناحية الأخرى، إلى الصحراء..

وقف يرقبه وهو يجتاز بين القبور والأضرحة حتى صعد تلّةً رملية صغيرة تقوم على الجانب الآخر من المقبرة، وغرقتْ رايته خلفها رويدًا، رويدًا..

(6)

ما إن انتهت أيام العزاء الثلاثة، حتى فوجئتْ عجايب بخروج جميع المتهّمين من السجن، ورآهم الناس في السوق والشوارع. وكان خبر خروجهم قد وصل إلى مجلس الأوتاد حتى قبل أن يقوموا بمساعيهم. فسأل الناظر محمد الرجل الذي نقل الخبر:

- هل هربوا؟

نظر الرجل إلى الحاضرين في المجلس الواسع واحدًا بعد الآخر، العم أبو علي، الشيخ أحمد، حاج حامد، أبوبكر التاجر، أحمد عميراي، إدريس شيكاي، عثمان أخ أحمد عميراي، يوسف الإبن الأكبر للحاج حامد.. وآخرين، حتى انتهى إلى الناظر، ليرى وقع الخبر عليهم..

- كلّا، لم يهربوا، كفلهم جميعًا فرج السقّا..!

صوتٌ ما خرج من فم الشيخ أحمد، وارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه عميراي، لكن نظرة خاطفة من عيني الناظر محتها من وجهه تمامًا، وأطرق الجميع بعد ذلك إلى الأرض..

وحده العم أبو علي كان يتمتمُ بحديثٍ مبهم، كما هو حاله عند الغضب. انتعل حذاءه على عجلٍ، وانصرف..

شعر الناظر بارتياحٍ لمغادرته، فالتفت إلى مجالسيه يسألهم ما العمل؟ لم يجد جوابًا، زفر والتزم الصمت، يخطط بعصاه على الأرض خطوطًا طولية متوازية، كمن يحدّث نفسه..

ظلّ هذا المجلس منعقدًا، بزيادة في الحضور أو نقصان، منذ أن أُعلن مقتل زيدان. قرَّر من بين ما قرَّر ألا يشارك أي منهم في مراسم الدفن خشية أن يتعرض لهم الموتورون من الأحفاد بحماقةٍ أو ثأر، ولم يخالف القرار إلا الشيخ أحمد. وخلصت مشاوراتهم أيضًا إلى أن يذهب الناظر برفقة حاج حامد والشيخ أحمد إلى مجلس العزاء لأداء الواجب من دون أن يسوقوا في معيّتهم ناقةً أو ثورًا أو حتى معزة. وكان من عادة القبائل في هذه الصحراء عندما تدفن ميتًا أن تتدافع القبائل الأخرى بما تيسر لديها من الأنعام قبل أن يجفّ القبر أو يُرفع مجلس العزاء كنوعٍ من التضامن في وجه الموت، أو رشوته كي لا يأخذ عزيزًا آخر. لكن الأوتاد لم يعتادوا أن يفعلوا ذلك مع أتباعهم الأحفاد طوال التاريخ، إنما يعزّونهم وحسب. ولم يفعلوا شيئًا غير ذلك هذه المرّة خشية أن يُفهم الأمر على أنهم يقبلون ندّيتهم بشكلٍ ما. تقرّر ذلك رغم اعتراض الناظر محمد الذي كان يرى أنّ المشاركة في العزاء، وتقديم الأنعام، قد يخفف من وطأة غضبهم ويمنح الأوتاد خطوةً متقدمة حين يجلس الغرماء من أجل حل الأزمة، لكنه لم يجد بُدّاً من التظاهر بمسايرة رأي الجماعة، واتّقاء غضب العم أبو علي..

وبعد أن غادر العم أبو علي، طرح عليهم فكرةً أخرى وهي زيارة السقّا في بيته وتعزيته بشكل خاص. كان يفكر في أمرٍ ما لكنه لم يرَ

وجاهةً في طرحه للنقاش، لكن أول من رفض ذلك الاقتراح كان حاج حامد..

- قمنا معهم بالواجب في العزاء، ولا أرى حكمة في الذهاب إلى السقّا. ماذا جرى لعقولكم؟

سحب الناظر عصاه ووضعها قائمةً بين ساقيه، ثم رفع رأسه وسأل:

- لماذا أخرج السقّا كل المتهمين على كفالته الشخصية؟ هل فكرتم في هذا الأمر؟

لم يُجبه أحد، فرجع بظهره حتى استقر في ظهر المقعد، وارتاح في جلسته..

- كان بإمكان السقّا أن يترك للقانون فسحةً أكبر، وهو يعلم أن إبن عميراي وأصحابه سيُدانون آجلًا أم عاجلًا. لكن الأحفاد يوَدّون التفوّق عليكم أخلاقيًا. غدًا ستجلسون أمامهم وأمام ممثّلي الحكومة من أجل الحَل، وحينئذٍ لن تجدوا بُدًا من الإذعان لكرَمهم بكرمٍ مقابل. فهل أنتم مستعدون لدفع الثمن؟

تلفّت حاج حامد حوله يسأل عن العم أبو علي، وعندما أخبروه أنه غادر طلب من أحد صبية الناظر أن يذهب إلى بيته ويدعوه، وقال أحمد عميراي غاضبًا:

- لم أكن أتوقع أن تدين إبني مثلهم يا حضرة الناظر. صحيح أنه شارك في المشاجرة وأنه متّهَم، لكن لا يوجد دليل على أنه القاتل، والله لو كنت أعلم أن هذا رأيك لما جلست معك في مجلسك هذا..

وقام يبحث عن حذائه لينصرف، فأمسكه حاج حامد من يده محاولاً ثنيه عن ذلك، لكن الناظر أشار له ليتركه، ثم قال له بحزم:

- إسمع يا حاج عميراي، إبنك قاتل وأنت تعلم هذا. وحين جاءك يرتعدُ من الخوف وولولتْ زوجتك أمامك، أشرتَ عليه أن يدفن سكّينه وقميصه المدمّى. ولولا أن الحكومة تشتبه في أن المجتمعين في المدرسة خلية سرية لدعم الثورة لكان حالنا، وحالك، أسوأ.

صمت قليلًا، ثم أضاف:

- وحتى لو لم يكن إبنك هو القاتل فإن القاتل من الأوتاد، والمحرِّض على القتل كذلك، وعلينا أن نتدبّر الأمر..

بان التوتر على وجه عميراي..

- هذه فرية؟

نظر إليه الناظر نظرةً صارمة، فقد كان غاضبًا منه لسببٍ آخر أيضًا، إذ نمى إلى علمه أن ثمة وباءً بدأ ينتشر بين عمّاله في مصنع النسيج، وأن حالات إغماء وضيق في التنفس وسعالٍ مصحوب بالدم انتشرت بين العمال وأنه منح عشرةً منهم حالاتُهم متفاقمة إجازاتٍ مفتوحة ريثما يتدبر الأمور التي قد تخرج عن السيطرة. همّ الناظر أن يكاشفه بذلك وأن يبحث في العلاقة بين مقتل زيدان وما جرى في المصنع، لكنه قرر أن يؤجل ذلك لوقتٍ آخر..

- قل لإبنك ألّا يخرج من البيت، أو أن يذهب ليختبئ عند أخواله حتى لا يرتكب أحد الأحفاد حماقةً أخرى، ريثما نتدبّر الأمر.

خرج عميراي غاضبًا كأنه لم يسمع، ولم يعترض طريقه أحد، فتابعه الناظر ريثما ينصرف، ولم يستأنف حديثه إلا بعد أن سمع أزيز محرِّك سيارته. فأخذ نفسًا عميقاً ثم التفت إليهم:

- أسأل الله أن يمنحنا طاقة وصبرًا على ما يأتينا به آل عميراي..

هزّ رأسه ثم تابع:

إسمعوني جيدًا، السقّا يريد أن يواجهكم في المجالس لا المحاكم، وأنا شخصيًا لستُ مستعدًا لكي ألهث وراءه، إما أن تكون يدي هي العليا أو أعيد الأمر برمّته إلى المحاكم وليحدث ما يحدث. هذا الثوب الذي ورثته من أجدادي لن يغفرٍ لي أمرًا كهذا..

في الأثناء وصل العم أبو علي وهو يلهث، خلع حذاءه وتهالك في أقرب مقعد. انتظروه ريثما استجمع أنفاسه، والتفت إليه حاج حامد ممازحًا:

- ألا تحتمل غياب ساعتين عن زوجتك الجديدة يا رجل؟ وتتركنا وحدنا دون استئذان؟ وها هو عميراي انصرف غاضبًا ولم نعد نعرف كيف نتدبر أمرنا..

مسح وجهه بباطن كفيه، واستغفر بصوتٍ هامس وقال:

- قابلته في الطريق، لا أعرف ماذا قلتم له، ولا أعرف أيضًا أين وصلتم في غيابي، لكن أحوالكم كلها لا تعجبني!

ضحك الناظر ساخرًا:

- دعك من هذا الآن أيها العجوز الخَرِف، السكين فوق رقابنا جميعًا والأحفاد لن يرحمونا بكل تأكيد، أفكّر في الذهاب إلى السقّا وأريد أن أسمع رأيك..

- وماذا ستفعل عنده؟

لم يجب الناظر، وفي الحقيقة لو أنه تكلم سيكون مضطرًا إلى الكشف عن تفاصيل كان قد قرّر ألا يناقشهم فيها، فقال العم أبو علي..

- صلوا على رسول الله..

- عليه الصلاة والسلام..

ردّوا جميعًا واستعدوا لينصتوا إليه..

- إن ذهبتم أم لم تذهبوا فالنتيجة واحدة، ليس في مصلحة الأحفاد تصعيد الصراع معنا في أي اتجاه ريثما يبلغوا غايتهم، هذا الأمر سينتهي إلى صلح وإلى دفع ديةٍ لأهل القتيل، لكن هل سندفع نصف دية مثلما اعتدنا طوال التاريخ أم أننا سندفع دية كاملة؟ هذا ما يجب أن تفكّروا فيه..

اعتاد الناظر ألا يجادل العم أبو علي كثيرًا، فالعجوز عاصر جده وأبيه وحضر معهما مواقف مشابهة كثيرة، بل هو يخشى رأيه مخافة لسانه المُر، فالعم أبو علي فوق كل ذلك لا يضع اعتبارًا لأحدٍ أيًا كان إذا تعلق الأمر بشأن الأوتاد ومكانَتهم، وقد حدث أن أحرجه في مواقف عدة، لذلك فضل الناظر ألا يقول شيئًا، فتحدث حاج حامد..

- بل ندفع ديةً كاملة ونطوي الأمر برمّته..

صمت قليلاً ثم أضاف بتهكمٍ لم يعجب العم أبو علي..

- هذا إن قبلوها..

عندئذٍ غضب العم أبو علي..

- أولاد الكلب، أقسم بالله أنهم لن يطولوا هذا وأنا حيّ، نصف دية أو ليفعلوا ما يشاؤون..

ظهر التوتر على وجه الناظر، وتململ في جلسته، كان يعرف أن ما قاله حاج حامد هو القول العاقل، لكنه لا يريد استثارة العم أبو علي أكثر من ذلك، فحاول أن يأخذ هدنة يستجمع خلالها أنفاسه ويبدأ المحاولة من جديد..

- طالما اتفقنا أنهم لا يرغبون في تصعيد الأمور فذلك مكسب، دعونا نلتقي بعد صلاة المغرب، لعلّنا نجد حلاً.

وقف الجميع استعدادًا للمغادرة، لكن العم أبو علي بقي جالسًا. أدرك الناظر أنه يود أن يحدثه على انفراد، فأزداد قلقه..

(7)

رتبت فاطمة أقمشة فساتين وأثواب العرس لتذهب إلى نورا الخياطة، لم تكن في حاجة لتتسلل من البيت خلسة كما كانت تفعل سابقًا بين وقتٍ وآخر، أو تتذرع بحججٍ واهية. إنها فساتين العرس، ولا بد أن تشرف بنفسها على كل شيءٍ يتعلق بهذا الموضوع، «قد تأخذ الزيارة يومي كله»، هكذا قالت لأمها..

حزمت أقمشتها وبعض أغراضها الأخرى في حقيبة من الجلد وزنبيلين كبيرين، لعلّ الخياطة تساعدها في تنظيمها أو تقسيمها على نحو متناسق، واستأجرت عربة كارو صغيرة يجرها حمار، ثم سبقت العربة في الطريق إلى بيت الخياطة..

لا تزال الصورة مشوّشة في ذهنها بشأن خاطبها منذ أول يوم، وازدادت غموضًا بعد كلام أخيها سالم عنه. كيف ستتصرف إذا لم يكن كما تخيلته وسيمًا فارع القامة وذا هيبة؟ كيف ستحتمل همزات ولمزات نديداتها في عجايب؟ فاطمة الجميلة تزوجت عجوزًا قصيرًا ودميمًا؟

كانت تزعجها مثل هذه الخيالات ولم تعد تعرف ما تفعل، خاصة وأنه لم يعُد لديها أي صديقة حميمة في عجايب بعد موت صديقتها الوحيدة آمنة بمرضٍ غريبٍ منذ ثلاثة أعوام، وبعد ذلك لم

تستطع أن تعثر على صديقة أخرى تعوّضها عن فقدها، وتلجأ إليها حين تتعقد الأمور لتساعدها في البحث عن حل، وقد كان أمرًا غريبًا، حتى هي نفسها لا تعرف سببًا لهذه المسافة التي باتت تتسع يومًا بعد يوم بينها وبين مَن هنّ في سنها من البنات، حتى شعرت وكأنها تعيش في عزلة، كلما فكرت في الأمر لم تصل إلى شيئ، واكتفت بتلك العلاقة الغريبة مع الخياطة نورا التي تكبرها بنحو عشرة أعوام والتي لها من السُّمعة ما لا يرضي أخوتها.

رأت في الطريق موكبًا من ثلاث سيارات تنطلق بسرعة، ولمحت بعض الجند في السيارتين اللتين أمام وخلف السيارة الـ «أوبّل» الكبيرة كما لو كانوا أفراد حماية..

كانت السيارات تمشي بسرعة كبيرة وتطوي المنعطفات بحدة، ثم عبرت الساحة مثيرة فورةً كبيرة من الغبار. هجس في نفسها أنه موكبه، أشارت إلى سائق العربة الكارو ليسبقها إلى بيت الخياطة وتبعت هي اتجاه سحابة الغبار. ما إن انعطفت ناحية الساحة حتى رأت السيارات تقف أمام دار الناظر محمد. سحبت طرفًا من ثوبها وتلثّمت به، ثم اختبأت خلف النيمة العملاقة التي تقبع في طرف الساحة.

خافت أن يتعرف عليها بعض الصبية الذين كانوا يلعبون تحتها، ولكنهم سرعان ما تركوا لعبهم وانصبّ اهتمامهم على وجودها وهيئتها الغريبة، غادرت المكان بخطوات قصيرة سريعة قاصدة بيتًا تحت الإنشاء يجاور دكانة صغيرة تقبع غير بعيد عن بيت الناظر، ولمحتْ بين فرجات لثامها إخوتها الثلاثة فوق عربة أخرى يجرّها حمار جاءت عجلى من جهة السوق، لكنها اتجهت مباشرة إلى بيت فرج السقّا في آخر الشارع، قرب النهر..

رجحّت أن يكون خاطبها داخل بيت الناظر، وقررت أن تفعل المستحيل من أجل أن تراه اليوم حتى ولو كلفها ذلك الانتظار ساعات النهار كلها، وصلت إلى البيت المهجور ووقفت خلف نافذة فيه تتيح لها رؤية مدخل بيت الناظر على نحوٍ جيد، من هنا يمكنها أن ترى من يدخل أو يخرج بمنتهى الوضوح..

بعد قليل خرجت صبية من الباب الخلفي لبيت الناظر، تجري جريًا ناحية الدكانة، قطعت عليها فاطمة الطريق بعد أن نزعت عنها لثامها، ابتسمت في وجه الصبية، ثم سألتها:

- أنت إبنة الناظر أم قريبته؟

نظرت إليها الصبية باستغراب..

- أنا ابنة عائشة!

- من عائشة؟

- التي تعمل في بيت الناظر..

- مَنْ ضيوف الناظر اليوم؟

رفعت الصبية كتفيها..

- لا أعرف لكنني سمعت سيدتي آمنة تقول لأمي «لدينا رجل من الحكومة، جهِّزي بعض العصير المبرَّد وأعدّي القهوة»

أعتقتها، وانصرفت الصبية تتقافز وتتلّفت إلى الوراء، كل خطوتين أو ثلاثة حتى غابت داخل الدكان وعادت هي إلى مخبئها

لما يقرب من ساعتين ظلت فاطمة في مكانها تنتظر خروج الضيف المهم، شعرت بالحَرّ والعطش، وأقلقها تأخّرها على الخياطة. ولو أن أمها جاءت أو أرسلت في طلبها قد تقع في مشكلة، لكن عَزّ

عليها أن تنتظر كل هذا الوقت ثم ترجع دون أن تراه، فقد لا تمنحها الأسابيع القليلة المقبلة التي تبقّت على العرس فرصةً أخرى..

انشغلت قليلًا بعصفورين يتصارعان فوق شجرة يابسةٍ مغروسةٍ أمام البيت، كان العصفور الذكر شبقًا وملحاحًا، بينما كانت العصفورة تتمنع، ما إن يحطّ حتى تطير إلى الناحية الأخرى من الشجرة، وما إن يقترب حتى تبتعد قفزةً أو قفزتين، لكنّ العصفور الذكي غافلها، أمهلها قليلاً حتى تطمئن ثم انقضّ عليها فلم تجد بُدًا من الاستسلام الحميم. نسيتْ فاطمة ما كانت فيه لبرهة، وبقيت تتابع مرحهما بسعادة غامرة، وراحت العصفورة تلاحقه مثلما كان يفعل هو معها، واستمرت المطاردة الحميمة بين الشجرة وسقف البيت والحائط القريب، يزقزقان بمرح، ويطيران ويحطان بسعادة، وفاطمة ترقبهما مثل أم..

خطر لها محمود، ونظرت إلى النيمة البعيدة حيث كانا يجلسان أغلب الوقت، هناك كانت تجري ويجري خلفها، يدوران حول جذع النيمة مثل هذين العصفورَين، ثم حين يتعبان يمسك يدها ويسيران ناحية البيوت، دون أن يخفض عينيه المليئتين بالعطف والحب عن عينيها الخجلتين. وفي مراتٍ يذهبان ناحية النهر، أو يذهبان إلى شجرة السدر الكبيرة القائمة في سفح الجبل، أو يصعدان الجبل، فينظران إلى عجايب من علٍ. يضمّها إلى صدره وتتمنع، فيضحك ضحكته الرائقة، الصافية. أين تلك الأيام؟ وأين تلك الضحكة؟ وأي رجلٍ هو زوجها المنتظر؟

لا تزال تلك الضحكة ترنّ في أذنها الآن كما لو أنها سمعتها للتو، أغمضت عينيها قليلًا وأسلمت نفسها لها. ملأت روحها بذبذباتها العذبة، حتى أيقظها فجأة أزيزُ محركات سيارات..

كان الجميع قد خرج، ولاح لها وجه الناظر وهو يودّعهم عند الباب. استداروا ليصعدوا إلى سياراتهم، فرأت بينهم رجلٌ طويل القامة، حسن البنية، خالط شعرَه الأسيب الممشط إلى الخلف بعض الشيب. له شاربٌ كثٌّ تحت أنفٍ قائم ووجه طويل بلونٍ برونزي صاف، يرتدي بذلة سفاري بيج لامعة. مشى بخطوات ثابتة إلى حيث سيارة الـ «أوبيل»، فأفسحوا له وفتحوا الباب ليصعد، ثم صعد الجميع من بعده إلى سياراتهم وانطلقوا، في ذات الطريق التي سلكتها العربة التي كانت تقلّ إخوتها، إلى بيت فرج السقّا، فأيقنت أنه هو، ليس في ذلك أدنى شك..

لكن لم يمكثوا طويلاً عند السقّا، ففي اللحظة التي همّت فيها بمغادرة المكان، رأت سياراتهم تقترب من الساحة. سحبت اللثام وغطّت وجهها بالكامل ثم استدارت لتعطيهم ظهرها ريثما يعبرون..

اتجهت ناحية بيت الخياطة وقد غمرتها السعادة. أخيرًا رأته، أخيرًا اطمأنت إلى شكله، وإلى وسامته التي لا تشوبها شائبة. أخذت نفسًا عميقًا كما لو كانت تطرد الهواجس التي لازمتها لأشهر، أزاحت الثوب عن رقبتها لتمسح بعض العرق، وقعت يدها على العقد، عقد العقيق. ما يزال على صدرها، وهو كل ما بقي من محمود، مدت يدها تتحسّسه بهدوء، وقد عاودها تأنيب الضمير ليخلط أحاسيسها من جديد..

(8)

أمام دكان الحاج أبوبكر، وبعد أن خفّ الزبائن مع اقتراب منتصف النهار، جلس الحاج أبوبكر والعم أبوعلي يتنادمان على إبريق

قهوة. جاء إدريس أيضًا فأفسحا له وجلس. لم ينقطع الحديث إلا لردّ السلام، ثم أكملا ما كانا يتحدثان بشأنه..

- هذا أكثر ما نخشاه على هذه الثورة، أن تُقسم إلى فرق، وأن تحمل كل فرقة راية قبيلتها بدل راية البلد الموحّدة ثم لا تقوم لها قائمة..

هكذا قال العم أبو علي وهو يضرب بيده على فخذه مع آخر كلمة. كانا يتحدثان عن مسار الثورة، وعن الصراعات بين قياداتها وقادة المناطق فيها في أعقاب قراراتٍ تم اتخاذها بشأن إعادة تقسيم المناطق وتعيين قادة لها حسب انتماءاتهم الجهوية. ثم تذكر العم أبو علي موقفًا له مع أحد زعماء الثورة، كان يهم بحكيه لولا أنه انتبه فجأة إلى غصة تصعد وتهبط في حلق إدريس وهو يحمحم في الجوار. لم يعجب حاله العم أبو علي فلكزه على صدره بعصاه..

- تكلم، لا تجعل الكلام يخنقك..

- لا شيئ..

هكذا قال، ثم حاصرته نظراتهما وإلحاحهما، فلم يجد بُدًا من الكلام..

- أمس خرجتُ في الليل لأقضي حاجتي قرب النهر...... ورأيتُ فوق الجسر الترابي ...

وسكت، فنهره العم أبو علي بضيق..

- مالك تتكلم مثل الأطفال، تحدث أو اسكت..

أطرق إلى الأرض يداعب سعفةً في البساط الذي تحته، إلى أن تمكن من خلعها من مكانها بقوة، أظهرت توتره..

- رأيت فوق الترس بقرب النهر، الناظر محمد وفرج السقّا يتحدثان حديثًا طويلاً استمرّ حتى قرب طلوع الفجر..

- وماذا كانا يقولان؟

قال الحاج أبوبكر بلهفة..

- لا أعرف، كمُنتُ بين الشجيرات لكنني لم أستطع أن أسمع شيئاً، حاولت الاقتراب أكثر لكن خشيتُ أن يشعرا بوجودي..

سكت قليلاً ثم أردف بعد أن تطلّع في وجهيهما بخوف..

- كان الحديث ودودًا على ما بدا لي.

رغم ضيق صدره وغضبه الدائم، إلا أن العم أبو علي لا ينقصه الدهاء، ولا الحكمة في بعض المواقف، فهو لا يزال يعتبر إدريس وأمثاله من الوافدين الجدد على عجايب، دخلاء على الأوتاد وحديثي عهد بشؤون إدارة القبائل وأحوالها، كما أن الأمر حسّاسٌ للغاية. رجع في جلسته إلى الوراء ثم ضحك مفتعلًا السخرية:

- أوقعت قلوبنا يا رجل، ظننا أن لديك جديدًا، فهذا أمر جرى ترتيبه منذ أيام..

- كيف ذلك؟

قال إدريس بذعر، ولهفة..

- نود أن نحلّ إشكالنا معهم من دون أية شوشرة ولذلك اتفقنا أن يلتقيا سرًا..

وغمز له بودّ.

- لا تأتي على سيرة ذلك مجددًا أمام أحدٍ من الناس..

حمّل العم أبو علي نبرته شيئًا من الأهمية، والإيحاء بأن إدريس الآن مطّلعٌ على سرٍ عظيم. لم يُقنعه ذلك، لكنه خشي غضب العم أبو علي فسكت. شعر العم أبو علي مجددًا بقلق ادريس وقدّر خطورة الموقف، وحاول أن يخفف من وطأته، فتوجّه إلى إدريس قائلًا:

- إسمعني يا إدريس. الناظر محمّد زعيمنا، وسليل زعمائنا منذ أن خلق الله الأوتاد على وجه الأرض، وتأكد أنه لن يسعى في شيئ يمرِّغ جباهنا في التراب، الأمر لا علاقة له بوضع الأحفاد إنما بحادثة مقتل زيدان ولا بد من تحجيمها وطيّها بأسرع ما يمكن، حتى لا تؤثر على الأمر الكبير. نحن إنما نخفض الجناح في هذه حتى لا نخسر تلك، هل فهمت؟

أومأ إدريس برأسه إيجابًا لكن من دون أن يغادره الشك، وخف إلى إبريق القهوة كي يداري ارتباكه، لكن الخبر أشعلت في جوف أبو علي بركانًا من الغضب كان يغلي في صمت. حتى أحسّ بأنه غير قادرٍ على إخفاء غضبه.

استأذنهما متعللًا باقتراب وقت الصلاة والقيلولة. لبس حذاءه وانصرف، يفرغ غضبه على الأرض بعصاه وبصاقه لم يتوقف حتى غاب عن ناظريهما..

لم يحدث أن اتخذ الناظر الشاب موقفًا أو فكّر في أمرٍ من الأمور الكبرى التي تهم الأوتاد إلا وشاورهم فيها، وخاصة العم أبو علي والشيخ أحمد. أحدهما أو كلاهما، كانا بمثابة مستشارَيْن له ولأبيه من قبله، وذوي دراية وخبرة ولا غنىً عنهما. لكن ما فعله بالأمس لم يجد له العم أبو علي مبرّرًا مقنعاً كلما أداره في رأسه. حتى الشيخ أحمد أخبر أبو علي أن بعض الشكوك بدأت تساوره هو الآخر بشأن بعض التصرفات الغريبة التي يقوم بها الناظر، وأنه حين كان يسأله يعمد الناظر إلى تهدئة مخاوفه بكلام عام. وأنه يشعر هو أيضًا بتقاربٍ غامضٍ بين الناظر والسقا لكنه قرر ألا يستبق الأحداث. أما العم أبو علي فإنه ما عاد يستطيع الانتظار إذ بلغ به الغضب مداه،

وبدل أن يذهب إلى بيته توجّه إلى دار الناظر وراح يطرق الباب بعصاه بعنف..

خرج إليه أحد صبية الناظر ليخبره أن الناظر لم يعد بعدُ من السوق، فاتجه من فوره إلى بيت الشيخ أحمد، فلم يجده أيضًا، وخمّن على الفور أنهما معًا، وأنهما يدبّران أمرًا بمعزلٍ عنه، هجس في نفسه أن تَقدُّم العمر هو الذي أسلمه إلى هذا التهميش وهذا التقاعد البغيض.

كان يمشي مُكبًا على وجهه تحت وهج الشمس، يتصبب عرقًا، وترتعد أوصاله من الإعياء والظمأ، حتى شعر بحلقه يابسًا، وبألمٍ حادٍ في صدره، وضيقٍ في تنفسه، ودوار خفيف في رأسه، كلما تقدم خطوة..

وقف قليلاً يستجمع أنفاسه، حتى انقشعت غُمة عن عينيه، ثم تابع سيره بجهد، لكن سرعان ما شعر مجددًا بإجهادٍ أكبر وبأنّ ساقيه العجفاوين ما عادتا تحملانه، وأطبق ظهره على صدره..

اتكأ بكلتا يديه على عصاه، رفع رأسه بصعوبة فوق ظهره المحدودب ليسحب نفسًا عميقًا، لكنه شعر بدوار شديد، وبعجايب تدور حوله، كما لو كان معلقًا في أرجوحة جامحة، وشعر بالدنيا تظلم أمام عينيه، وأغمي عليه..

***

لم يستعد وعيه بعد ذلك إلا في المشفى، فتح عينيه ببطء، فرأى الناظر محمد، والشيخ أحمد، والحاج أبوبكر وجمعًا من أعيان عجايب يقفون حوله من كل اتجاه. لم يُمكّنه الإجهاد من تبيّن وجوههم جميعًا وهو يمرّ عليها سريعًا إلى أن استوقفه وجه فرج السقّا. فار الغضب في

جوفه من جديد، وحاول أن يقول شيئًا لكنه اختنق وبدأ يسعل بحدة حتى وضع الناظر يده فوق صدره، وسمعه ينادي على الطبيب..

جاء الطبيب مسرعًا ترافقه الممرّضة الشابة، وطلبا من الجميع أن يُخلوا الغرفة في الحال، فقد دخل المريض في نوبة إغماء جديدة..

(9)

بعد أيام من دخول أبو علي المستشفى، حدثت مصيبة أخرى أزعجت الناظر كثيرًا مع أنه كان يتوقّعها بسبب جشع أحمد عميراي ومعه أخوه عثمان. داءٌ غريب أصاب خمسة وعشرين عاملاً من عمال مصنع النسيج الصغير، وانتقلت العدوى سريعًا بين العمال الذين يعملون في ظروفٍ صحيةٍ سيئة. مات أحدهم ونَقَل عميراي ثلاثةً منهم إلى مشفى كبير بعاصمة الإقليم من دون أن يُعلم بقية العمال. تمرد العمال واضربوا عن العمل، وخرجت الأوضاع عن السيطرة.فجاء أحمد عميراي إلى الناظر محمد لكي يساعده في حل المشكلة.

أخذ الناظر الشيخ أحمد في معيته وتوجّها إلى المصنع في الصباح من دون أن يُعلما أحدًا، لعل الأمر ينطوي من دون ضوضاء. وجدا العمال المنهَكين المكدودين جالسين في ظل خيمة الزنك العملاقة الصدئة التي يقوم المصنع القديم داخلها، وسعالهم الحاد الذي ينخفض ويرتفع بين فينة وأخرى بوتيرة ثابتة يكشف سوء الحال التي وصلت إليها أوضاعهم دونما حاجة إلى حديث..

وقف الناظر يتأمل المشهد الموجع، ووقف خلفه الشيخ أحمد وأحمد عميراي. رفع العمال رؤوسهم لبرهة، نظروا إليهم

نظرة كريهة ثم اقتربوا من بعضهم وتجمعوا في الظّل. تهامسوا قليلاً ثم أداروا ظهورهم لهم، لا يرغبون في الكلام. اقترب الناظر حتى وقف خلفهم مباشرةً، ورغم الإحتقار البائن في ردة فعلهم إلا أنه كان يشعر بالاستياء والاشمئزاز من الحالة التي رآهم عليها، ويشعر بالتعاطف معهم. أحس براحةٍ أيضًا وهو يكلمهم من دون أن ينظر في وجوههم البائسة:

-لستُ هنا لأواسي أحدًا أو أحدّثه بسوء الأوضاع التي يعيشها والتي يعرفها كل واحدٍ منكم أكثر مني. بلغني ذلك للأسف لكن متأخرًا، وها أنا أقف بينكم الآن، لا لأقول لكم عودوا إلى عملكم ولكن لأقول لكم لقد اتخذتم القرار الصحيح!

بدا الذعر في عيني أحمد عميراي، والتفت بعض العمال ينظرون إلى محدِّثهم يتأكدون مما يسمعون، ومن حقيقة مَن يكلمهم..

-إسمعوني جيدًا، ما حدث غير مقبولٍ بالمرة، ولا يمكنني ألّا أقف عنده، والله لا يستحي من الحق..

صمت قليلًا ثم تابع..

- ينبغي على السيد عميراي أن يوفر لكم البيئة الصحية المناسبة، والأجر العادل لكل منكم. وأقول لكم أيضًا لا تعودوا إلى العمل حتى يتحقق ذلك، وسأقف إلى جانبكم حتى أرى ذلك واقعًا..

لم يصدق أحمد عميراي ما يسمع، وظل الشيخ أحمد ساكنًا ونظره نحو الأرض، واستدار العمال في أماكنهم ليواجهوا الرجل الذي ظنوا أنه سيقف في صف ربّ عملهم الجشع والمقيت. ثم إن أحدهم، وكان كبيرًا في السن، أصلع أشيب، ضعيف البنية، يسعل بين كل كلمةٍ وأخرى، وقف متحدثًا -بصعوبة- إنابةً عن زملائه:

شكراً لك حضرة الناظر على مجيئك ووقفتك الشجاعة إلى جانب الحق، لكنّ هناك أمورًا أخرى مهمة ينبغي أن تعلمها أيضًا. كنا في ما مضى أكثر من مائتين وسبعين عاملاً وكان المصنع يعمل بطاقة جبّارة ليل نهار، ومع مرور الوقت وتردّي الأوضاع الصحية والمالية لم يبق سوى تسعين عاملاً كما ترى، لا أحد من هؤلاء العمال يملك أي نوع من الضمان الصحي أو الاجتماعي أو التقاعدي. فالذي يمرض يُفصل من العمل، والذي يموت لا يُعوَّض ذووه، الحلول بالتجزئة جرّبناها من قبل ولم تجدِ نفعًا، إما أن يكون حلّا شاملًا أو لا حل..

همّ أحمد عميراي بالكلام لكن الناظر أسكته بإشارةٍ صارمةٍ من يده:

-سيحدث كل ذلك بإذن الله، فقط إمنحوا الرجل الفرصة ليقوم بما ينبغي عليه القيام به.

تحدث عميراي بصوتٍ أقرب إلى الاستجداء عن المصاعب التي يواجهها وعن الحكومة التي لا تدفع أسعارًا مجزية كما في السابق، والدفعات لا تأتي في مواقيتها، والمصنع بالكاد يغطي مصروفاته..

قاطعه العامل العجوز..

-حين كُنتَ تربح لم يعد علينا من ربحك شيئ. وقد عشت في النعيم، وعشنا في الجحيم. نحن لن نعمل إلا في ظروفٍ ترضينا يا سيد عميراي..

-هذا حقكم..

قال صوتٌ قاطعٌ من خلف الرجال الواقفين. التفتوا جميعًا فوجدوا السقّا منتصبًا كما يقف القَدَر المحتوم، وفي معيّته مجموعة

من الرجال ما إن رآهم عميراي حتى ضرب كفًّا بكف وأطرق إلى الأرض..

تدافع العمال نحو السقّا كما لو كانوا أطفالًا رأوْا أباهم. وتداخلت شكاواهم، وضجّ المكان بصخبهم الموجِع وسعالهم الذي يفطر القلب. فطلب منهم أن ينتظموا في صف واحدٍ، هناك في الظل ريثما يمرّ عليهم الطبيب الذي جاء برفقته.

عادوا جميعًا إلى أماكنهم، فأشار السقّا إلى مرافقيه أنْ هذا هو صاحب المصنع فلتبدأوا تحقيقاتكم. كان معه مسؤول الصحة، ومندوب المأمور، والشرطة. وظل عميراي نهاره كله في مركز الشرطة يخضع للتحقيقات، كأن قيامته قامت. يجيب ويتوسّل ويبرِّر.. وقد أقفلت السلطات المصنع بالشمع الأحمر، وحُبس عميراي على ذمة التحقيق.

وسجّل السقّا نصرًا عمليًا جديدًا أمام الأشهاد..

أما الناظر والشيخ أحمد فقد غادرا المكان، وتركوا حليفهم أقرب ما يكون إلى الانهيار..

(10)

نجحت الوساطة التي قام بها المسؤول المحلي الذي عيّنته سلطة الاحتلال لإدارة المنطقة، واتفق الجميع أن يلتقوا تحت شجرة النيم العملاقة التي تقوم في طرف الساحة، بعد صلاة عصر الجمعة..

عشرة من الأوتاد، ومثلهم من الأحفاد، تحلّقوا في جلسةٍ دائرية، وجلس في الوسط، عند جذع النيمة تمامًا، المسؤول الوسيم

ببذلته السفاري ذات اللون البيج الفاتح، ونظارته السوداء الكبيرة، وشعره الرمادي المصفّف إلى الوراء. ذلك الرجل هو الذي رأته فاطمة واعتقدت أنه المأمور خاطبها. وجلس إلى جواره الأستاذ إسماعيل، الذي استُعين به ليكتب محضر هذا الاجتماع بطلبٍ خاص من فرج السقّا، وهو طلب لم يعترض عليه الناظر محمد وأركان حربه..

على يمين المجلس زعماء الأوتاد، لكنهم هذه المرة من دون العم أبو علي الذي لا يزال يرقد في المشفى. ومن دون أحمد عميراي الذي أودع السجن. وعلى يساره زعماء الأحفاد، ومن خلف أولاء وأولئك جلس بعض رجال الصحافة..

سرد المسؤول تاريخ المجموعتين في البلد، وامتدح جوارهما الطويل، وتحدّث عن الأحوال السيئة التي عاشها الأحفاد طوال قرون، وأعلمهم برغبة الحكومة في تحسين أحوال الناس، ثم تطرق إلى الأزمة التي قامت فجأةً كالإعصار بين الإخوة بسبب مقتل زيدان، وأكد على أنها على الرغم من مأساويتها فقد أنتجت حوارات توّجت بهذا الاجتماع.

ثم أعلن نجاح مسعاه في حل الأزمة، وأن الطرفين قبلا باقتراحه بأن يدفع الأوتاد دية رجلٍ كاملٍ عن القتيل وتعويضات مالية للجرحى، وأعلن قبول الأحفاد، ثم أعطى كل طرف فرصةً واحدةً للحديث، لعلّ خروج الهواء الساخن من الصدور يخففُ من غِلّها وسوء وساوسها..

تحدث الناظر محمد أولّا:

-كنا نعيش هنا كغيرنا من القبائل الأخرى، في أمنٍ وطمأنينة وسلام، وكان لدى كل طرف منا التزاماته وواجباته التي لا تستقيم

الحياة إلا بها، متساوون في النوائب والملمّات، متحدون في وجه الخطوب والمصائب. يمر علينا الصيف والشتاء، والجوع والشبع، والقحط والغيث، والأمن والحروب، كما يمر على كل خلق الله، لكننا عشناه بالصبر والحكمة والجلد وحسن الظن. شأن الحياة والموت في هذه الدنيا تقاسمناه مئات السنين كما يقتسم الإخوة في البيت الواحد الحزن والفرح، لكننا في كل ذلك لم ننسَ أبداً أننا خاضعون لإرادة الله الخالق الذي قَسَم لنا معيشتنا في الحياة الدنيا، وأنزلنا في أرضه منازل ودرجات، وفي ملكه عبادًا مأمورين بالطاعة والمحبة، وما كان رضانا بذلك إلا من رضانا بقسمته وعدله وقسطاسه المبين، فهل نقول له إنك قد ظلمت؟ لا والله، حاشى لله..

وبعد أيها الأخوة، إن ما حدث كان خارج أرادتنا جميعًا، وقبول حله الآن من قبول وقوعه، وطالما أننا ارتضينا أن حدوثه كان قدرًا، فإن قبولنا بهذا الحل هو أيضًا قدَرٌ وقضاء، رغم أننا طوال تاريخنا لم نفعلها، ولم يفعلها آباؤنا وأجدادنا غفر الله لهم جميعًا، ورغم أن ما نفعله قد لا يرضيهم في مراقدهم، إلا أننا اليوم نراه مُرضيًا طالما أنه يرضي إخوتنا هؤلاء . إننا سندفع مائة ناقة أو ما يعادلها، وهي دية رجل كامل لموت زيدان يرحمه الله، وسندفع طبابة الجرحى حتى يتماثلوا للشفاء، ونطوي جميعًا هذه الصفحة وإلى الأبد، ونسأل الله من قبل ومن بعد حسن العمل وثبات الأجر..

بدت الخطبة وكأنها تنازل يقدّمه الأوتاد وأنه جميلٌ يستحق الامتنان، وليس خضوعًا لمبدأ الجريمة والقصاص، والثواب والعقاب. كما بدا فيها ذلك التعالي وإنكار المساواة الذي هو أكثر ما يرفضه الأحفاد.

ساد الصمت بعد ذلك للحظات تخللتها همهمة خافتة قطعها السقّا الذي وقف واضعًا يديه فوق بعضهما على رأس عصاه..

- صلاتكم على رسول الله..

رد الجميع..

- عليه أفضل الصلاة والسلام..

أطرق قليلاً كما لو كان يستجمع أفكاره..

-أولًا نشكر لحكومتنا مجيئها وتكبّدها العناء من أجل أن يعيش شعبها في أمنٍ وطمأنينة وسلام، ونشكر كذلك كل من واسانا وأدّى واجب العزاء في فقدنا من باب أننا إخوة، وأن الإنسان لأخيه الإنسان..

ثانياً، نشكر للناظر محمد حكمته وحُسن صنيعه في الرخاء والشدة، لكننا لا نقبل أبدًا جميلًا يُعلَّق على رقبةٍ مهانة، فالجميل إنما يوضع حيث يليق، ولو أننا قبلنا ذلك فكأننا نقبل كَرَمه عن يدٍ ونحن صاغرون.. فاعلموا أيها السادة أن هذا الأمر قد انتهى بالنسبة إلينا يوم خرج المتهّمون من المخفر، فعفَونا وصفَحنا، لأن النبي حين سأله أصحابه ماذا ينفقون؟ أخبره الله بأن ينفقوا العفو، وها نحن كأحفاد نمتثل لأمر الله. أما إخوة زيدان وزوجته فإننا دفعنا لهم ما يعدل ثمن مائتي ناقة، فذلك حقهم علينا، ونحن وأهلنا الأوتاد ظفر ولحم ولا نطلب منهم شيئًا..

ثم توقف ومسح المكان بنظرة شاملة. رمى بنظره نحو أطراف السّاحة حيث كان المئات من رجال وأطفال ونساء،يقفون في دائرة واسعة تحيط بمجلسهم، وداخلها دائرة أضيق من رجال الشرطة والأمن تحفظ المسافة بينَ هؤلاء وأولئك. أدرك الأستاذ من نظرة السقّا أنه يتهيأ لخطبة. وبالفعل رفع السقّا من نبرته قائلًا:

-الظلم والعدل يا سادة وجهان أصيلان لهذه الحياة، جانبان تمشي بهما، وهما يتجاذبانها ما بقيت الحياة موجودة. أما الظلم فشجرته مهما كانت راسخة وظلّها كبير، ستتاقط أوراقها يابسةً متقصّفة، و ثمرها المُرًّ لا يبدّد طعمه إلّا العدل، والمظلوم لن يموت في قلبه إحساسه بأنه ظُلم إلّا الاعتراف بهذا الظلم ورفعه عنه، ومهما يكن لا بدّ من اقشاع الظلمات وعندها سيعقبها النور ويكتشف الناس أن كل ما حسبوه لا يذهب ذهب، تبدّد، تغير طعمه في الحلق كأن لم يكن. والعدل هو نور الله في الأرض، ومهما امتدت شجرة الظلم والظلمات فإنه فوقها..

مشكلة إخواننا الأوتاد أنهم لا يرون في الدنيا اختلافات وألوانًا خلقها الله لفهم عَظَمَة خلقه، يرون الدنيا أبيض وأسود ولا شيئ بينهما، تتبدل الدنيا ولا يقرّون تبدّلها، حياتهم ثابتة، ويريدونها كذلك وإلى الأبد، وهذا ضد إرادة الخالق وسنن الخلق..

أيها الأخوة، لسنا هنا لنؤكد إنسانيتنا، ولا لبحث ما إذا كنا مع الآخرين سواء أو أقل درجة، فذلك أمر نحسّه في أنفسنا، وهو لا يقل عمّا يحسه غيرنا بأننا من خلائق الله المكرّمة، وهو حقنا بأمر الخالق، وإن سُلبناه في ما مضى بغير إرادة منا، فإننا نقول عفى الله عما سلف ونحن اليوم خلق جديد.. لقد مضى عهد الرق وبقينا وحدنا في هذه المنطقة بين الساحل والهضاب. من اليوم فصاعدًا، نحن سواء بسواء، في ملكية الأرض والـدور والماشية والكسب والسعي والطلاق والزواج، ولنا صوتنا، تمامًا مثل الآخرين في المنشط والمكره، وفي الصغيرة والكبيرة، وهذا لن يتأتى طالما أننا في الظل، نريد أن نكون مَع الجميع تحت الشمس، وأن تمنحنا الحكومة كياننا المستقل، الذي

يحفظ حقوقنا ويجبر ضررنا، ويمنحنا شخصيتنا المعتبرة في أوقات الصلح وأوقات الخصومة، وعند أداء الواجب قبل أخذ الحقوق، إذ يعلم الله أننا قد صبرنا فوق طاقتنا، وعاش أسلافنا ليلدوا أحفادًا كرامًا.. باسم كل الأحفاد نطلب اليوم أن تمنحنا الحكومة استقلالنا الكامل، لنا ما للآخرين، وعلينا ما عليهم..

أثار خطابه همهمات أكبر، بل حصل نوع من الفوضى فوقف المسؤول وأعلن عن موعد لاجتماع القبائل، والاستماع لمرافعات عجايب برأسيها المتخاصمين، صباح يوم الجمعة التالية. فالاحتلال كان مهتمًا بأحوال القبائل، وكلما وجد فرصةً لانشغالهم عن أخبار الثورة ودعمها بالغ في تضخيمها وحشد الناس إليها، وخلق لنفسه أدوارًا فيها..

كان الأستاذ يقف غير بعيد، كانت عيناه معلّقتين بفرج السقّا، بهيبته التي لا تخطؤها عين، وهو واقف بأدبٍ جَمّ ريثما صافح الجميع وودّعهم، ثم غادر ومَن معه ولم يكن في المكان غيرهم. نقر سريراي طبله وهزّ رايته، ثم جرى يتقافز أمامهم كما لو كان مهرِّجاً في حاشية ملك..

(11)

«لألفِ عام أو أكثر ظلّ إيقاع الحياة هنا ثابتًا، فإيقاع الحياة جزء من معالمها التي لا تتبدّل إلا بهَزّاتٍ عظيمة. وحتى رغبة الأحفاد في التحرّر جاءت من ضمن سياق تلك المعالم. إذ كان طموحهم الحصول على «النّظَارة» منسجمًا مع ما هو متّبع في كل الكيانات القبلية.

حينما بدأ الأحفاد سعيهم للاعتراف بكيانهم كانوا بضع عائلات متفرّقة، في أغلبها عائلات ملحقة بعائلات من الأوتاد. لكن الإصرار على تأكيد حقّهم بنظارة تخصّهم وتدير شؤونهم لفن أنظار الصحافة والحكومة، وتسللت إلى عجايب عشرات العائلات القادمة من قرى بعيدة ومن خارج الحدود، ونشأت على أطراف الصحراء قرى جديدة باهتة يقول أفرادها إنهم من الأحفاد، وقامت في مدنٍ وقرى كثيرة تجمعات خجولة أعلنت تأييدها للأحفاد وارتباطها العضوي بكيانهم. واكتشف البلد كله طبقة واسعة من الشعب، تلتقي في أحلامها، وتتشارك آمال تغيير أوضاعها وتطلب الاعتراف بوجودها ككيان. ولولا أن أخبار الثورة والحرب بينها وبين الاحتلال شغلت الناس والحكومة الأثيوبية على السواء، لربما تحولت هذه الحركة إلى انتفاضة شاملة ضد النظام الاجتماعي القائم برمّته، وكانت ثورتها من أعظم الثورات التي تخلخل إيقاع الحياة في هذه البقعة التي لم تكن على معرفة بتلك التحوّلات الكبرى التي حصلت في العالم منذ بداية القرن العشرين وعلى مدى ستة عقود..

كيف لكل ذلك أن يحصل في مجتمع لم تستطع حتى الثورة نفسها أن تغيّر في إيقاع الحياة فيه، مع أن أفرادًا من الأحفاد والأوتاد شاركوا، معًا، في الثورة؟ طرح الأستاذ هذا السؤال وقال في نفسه.

«لعلّ الأسرار كلها تكمن في أعطاف ذلك الرجل».

لم يخالجه أدنى شك في أنه هو الذي يتحكّم في صناعة الأحداث في عجايب، تكبر الأحداث أو تصغر، لكنها تأتي من منبعٍ واحد، والطريق الأقصر لفهم الأحداث هي زيارة المنبع. لذلك قرر

أن يزوره، فعلى الرغم من مشاركته في الثورة ودخوله السجن لأربع سنوات، وعلى الرغم من الآمال التي علّقها هو وصديقه محمود، وغيرهما كثير من الشبّان، على تحقيق العدالة بين الناس وقيام الإشتراكية والنظام الديمقراطي الذي يكفل المساواة بين الناس ويغيّر الوضع البائس للمرأة فيقرّ بحلم فوزية بأن يكون لها رأيها في شؤون مجتمعها.. إلّا أن الوقائع جاءت محبطة، والثورة تحوّلت إلى مجرّد صراع من أجل النفوذ. بينما هذا الرجل يطالب بالمساواة بين الأوتاد والأحفاد ولا يطلب غلبة الأحفاد مع أنهم الأكثرية، وهو يغيّر عادة متأصّلة هي جزء أساسي من نظام الحياة، فيرفض الديّة. أما أكثر ما فاجأ اسماعيل فهو دفاعه عن عمّال مصنع النسيج الذين يثقون به ثقة لم يستطع هو ورفاقه أن يحصلوا عليها رغم كل شعاراتهم عن حقوق العمّال.

هكذا، ومن دون موعد سابق، ذهب يطرق الباب. خرج له السقّا باشًا مرحًا. لم يتفاجأ، بل بدا كأنه كان ينتظر مجيئه. استمرّت عبارات الترحيب وهو يقوده بهدوء عبر الفناء الواسع إلى الصالة الواسعة. فتح السقّا باب الصالة على مجلسٍ واسعٍ طويلٍ له بابان، أحدهما -الذي دخلا منه- بمصراعين يفتحان على الفناء، والباب الآخر مقابل له لكنه أصغر ويرتفع عن الأرض بدرجتين من الإسمنت.

سقف الصالة منخفض، وأرضيتها من الحجر، حوائطها حائلة اللون، تتوسطها ثلاث نوافذ صغيرة في كل اتجاه. أرائك متقابلة على الجانبين، عليها بُسطٌ ووسائد حُمر، وعلى البسط خطوط طولية سوداء، عريضة، لكنها متربة.

جاء أحد صبيانه بالقهوة، يصبّ لهما ثم يضع الركوة على النار

ويأتي بها مجددًا حتى شربا خمسة أنخاب حارّة، وكان الصالون يفوح برائحة بخور عدنيّ قويّ ومنعش..

بقي السقّا صامتًا يتأمل ضيفه من تحت حاجبيه. تأدّبًا، لم يسأله لماذا جاء؟ وإن كان يخمّن سبب مجيئه، لكنه تركه على راحته حين رأى في عينيه فضولاً كأنما هو يبحث عن أسرار. كان الأستاذ يحدّق في الحوائط العارية إلا من سجادة عريضة متربة عليها صورة الكعبة بصحنها العريض ومآذنها الطويلة. ولا شيئ آخر في المكان له معنى. وكانت تدور في خواطره أمور كثيرة مُلغِزة عن ذلك الرجل. لكنه لم يرَ حتى الآن سوى البساطة: صالة عادية ليس فيها شيء من الفخامة، فالمجلس عبارة عن أرائك عالية عليها بُسطٌ من تلك التي تجدها في معظم بيوت الناس البسطاء، وركوة قهوة من الطين. تململ قليلاً وقرر أن يبدأ من حديثهما في المقهى ذلك اليوم..

- حديث ابن خلدون عن أطوار الحضارة وسهم البداوة فيها كان سابق لأوانه بكثير. لعل ابن خلدون أوتي من بُعد النظر والحكمة الشيئ الكثير..

ضحك السقّا وهزّ رأسه بأدب. بقي صامتًا حتى أن اسماعيل فكّر أنه ربما جاء في وقت غير مناسب وأن عليه أن يغادر. لكن السقّا وقف بهدوء ثم اتجه ناحية الباب الآخر، المغلق، من دون أن يدعو ضيفه أو يقول له شيئًا. صعد الدرجتين وفتح الباب على مصراعيه حتى أحدث صريرًا، ثم أشعل أحد مصابيح الغرفة وقال من مكانه كأنما يناديه:

-لعلك تجد هنا بعض السلوى، هذا مكاني الأثير من مثل هذا الوقت إلى منتصف الليل من كل يوم..

توجّه الأستاذ نحوه متلهفًا، عَبَر الصالة بخطوات واسعة ودخل حتى صار خلف السقّا. ولم يصدِّق ما رأت عيناه.. أدهشه ما رأى، وكأن هذا المكان قائمٌ في زمنٍ آخر، بل وكأن الرجل ذاته موجودٌ في مكانٍ ما كان ينبغي لمثله أن يكون فيه.

غرفة واسعة، مرتفعة السقف كالمعابد، مفروشة بسجادٍ عتيق، فيها نوافذ صغيرة للتهوئة ترتفع عن الأرض بقامة رجلٍ ونصف تقريبًا، وباب صغير يفتح على الجانب الآخر من المنزل، جانب النساء..

خلع اسماعيل حذاءه ودخل. في وسط الغرفة تمامًا تقوم طاولة مستطيلة كبيرة، نظيفة مرتبة، عليها ملاءة زرقاء فاتحة، وفوقها كتب مرصوصة بنظام، وداخل كل كتاب ورقة صغيرة تخرج من أحد جنباته بحجم أصبع، وفي وسط الطاولة سراج وأوراق وأقلام..

تقدم الأستاذ بحذر، وجلس على المقعد الخشبي الوحيد المغطى بسجادة حريرية ناعمة من دون أن يستأذن. كان على الطاولة كتاب مفتوح حمله بين يديه. في داخله ورقة كُتبت عليها ملاحظات مكتوبة بنظامٍ وبخطٍ واضح، بقلم رصاص، أغلقه وقرأ عنوانه. كان كتابًا في علم الاجتماع السياسي لكاتب بدا فرنسيًّا من اسمه. نظر من مكانه إلى الكتب التي أمامه، كانت مرصوصة بطريقة تظهر عناوينها بوضوح لمن يجلس على الكرسي.

مرّ بعينيه سريعاً على العناوين الباذخة للكتب وأسماء مؤلفيها، لا وقت لتتبع التفاصيل أو تقليب المحتويات، ولا يريد أن يبدّد الوقت فلا بدّ أن أسرارًا أخرى تخبّئها جُبة هذا الرجل تنتظره. فقام من مكانه يتفحص بدهشة بقية أجزاء الغرفة، لم تكن مكتبة، ولا متحفًا. إنها شيءٌ من هذا وذاك، تقوم على ثلاثة حوائط منها، بقامة رجل طويل،

خزانات عريضة من خشب المهوغني، مقسَّمة إلى أرفف متساوية، مليئة بالكتب، وفوق كل منها وفي محيط الغرفة كلها صور مؤطرة لا حصر لها، بالأبيض والأسود والألوان، قديمة وحديثة لأقوام من الرعاة والفلاحين والبنّائين والسقّائين، بظهور عارية وأرجل حافية ورؤوس حاسرة، ووجوه مكدودة، لم تعجزه فطنته عن تمييز ملامحهم وهيئاتهم البائسة التي تدل على أنهم من الأحفاد. وعلى الحائط الذي يقع خلف الكرسي تجد إضافة إلى اللوحات الزيتية، بعض الخرائط وعليها إشارات وخطوط..

كان اسماعيل يتأمّل بدهشة هذا المكان الذي لم يكن ليتصوّر وجوده في عجايب، أبدًا. يتأمّل اللوحات ويقرأ العناوين، والسقا يمشي خلفه كالحارس ولا يتكلم، حتى رَآه مستغرقًا في الصور، تقدم عنه خطوتين حتى وقف أمام إحدى الصور الغريبة، كانت لجثث منتفخة. خمس أو ست جثث تكوَّم بعضها فوق بعضها. وقف على رؤوس رجليه ومطَّ جسده إلى الأعلى وأنزل الصورة من مكانها. مسح الغبار عنها فاتضحت أكثر:

- هؤلاء من الأحفاد. لم يغرقوا في نهر أو يموتوا في حرب، أكلت الضباع بعض أغنام سيّدهم، فرماهم جميعًا في البئر عقاباً لَهُم..

دقق الأستاذ في الصورة مليًا، ثمة أسطر مكتوبة بالإنجليزية بخطٍ صغير «رعاة من الأقنان، قضوا في بئر «دِقْ» بساحل إريتريا، ويُعتقد أن سيّدهم تخلص منهم عقابًا على تقصيرهم في عملهم. - من الأرشيف البريطاني - إريتريا ١٩٤٦»

ثم لفتت انتباه الأستاذ صورة أخرى من مصدر مشابه،

لصبايا عاريات الصدور، وفي أعلاها ختم الأحفاد، يبتسمن بعفوية أمام الكاميرا، جميلات، بشعور ناعمة طويلة تتدلى على صدورهن، وتقاطيع وجوه تنضح بجمالٍ تظهره العيون الحزينة الواسعة، والشفاه المكتنزة والأنوف الدقيقة المستقيمة. رغم أن الصورة بلا ألوان إلا أن الإشراق في محيّاهنّ لا تخطؤه عين».

تحدث السقّا من دون أن يخفض نظره عن الصورة:

- هؤلاء صبايا من الأحفاد، هل تصدِّق إن إحداهن جدتي، ومعهنّ إحدى خالات أمي، لكنني لا أعرف مَن هي منهنّ، المهم كنّ جواريَ لأحد رجال الإقطاع، ملكُ يمينٍ كما يقولون، والتقطت هذه الصورة أثناء زيارةٍ لأحد أصدقائه من الإيطاليين أيام الاستعمار. ولقد جلبناها من روما!

صورة أخرى بلا ألوان عرفها الأستاذ ما إن رآها، كانت لجثث متفحّمة، بعضها على الأرض وبعضها معلَّقٌ فوق مكائن الحلج والنسيج، وإلى جانبٍ منها صفٌّ من علبٍ مخروطية تلتفّ عليها خيوط من القطن لكن النار لم تمسسها، وكان مكتوبًا تحتها بالأمهرية «حريق بمصنع النسيج - عجايب ١٩٣١م».

زادت دهشة الأستاذ أكثر حين أخبره السقّا أن جَمْع هذه الصور استغرق ما يقرب من عشرين عامًا، من وحدات أرشيف في كل من أسمرا وأديس أبابا، وأن بعضها جيء به من أرشيفات أخرى.

- جمعها شبابٌ مثلك، لعلّ في جهدهم عزاء لأمثالي، وتشجيعُ على أن ما أن ما فعلوه، وما نفعله، لن يذهب هباء..

صمت قليلاً، كان وجهه متوتّرًا، متعرِّقًا ومتقلِّب الألوان. ثم قال:

- هذه الأرض الشاسعة كانت أحفادًا في وقتٍ من الأوقات، إلا من فئة قليلة متسلّطة كانت حليفةً للمستعمرين دائمًا، ثم بدّل التاريخ مواقع بعضهم هنا وهنالك، أعزّ قومًا وأذلّ غيرهم، وبقينا نحن وآخرون متفرِّقون، ثم توالت المجاعات والحروب والاستبداد، وأفرزت طبقات أخرى من الرقّ الحديث، فيهم فلاحون ورعاة وجنود وعمال وموظفون وحتى مساجين.. وكل شيئ، هذا المدى من حولنا كله أحفادٌ يا أستاذ، دقِّق النظر قليلاً تعرف ما أقصد!

أعاد السقّا الصورة إلى مكانها ثم عرض عليه صورًا أخرى يحتفظ بها في ملفٍّ خاصّ، أغلبها جُمع والتُقط في السنوات الأخيرة في عجايب وفي غيرها. لفتت نظر الأستاذ أيضًا صور حديثة للرجل مع قِرْبته وحماره الأبيض، أمام أحد أبواب البيوت، وصورة أخرى قرب النهر، وصورة ثالثة وهو يبتسم لشيئ مجهولٍ خلف الكاميرا، فخطر له أن يسأله..

- لعلك تعذرني في حيرتي، لماذا تمسكت طويلاً بهذه المهنة؟ وأنت تمتلك من المواهب ما يفوق ما لدى الآخرين بكثير؟

ابتسم السقّا أول الأمر ثم عادت إلى وجهه ملامح هي أقرب إلى الصرامة..

- كان ذلك حتى لا أنسى، وهذا مهمٌ لمثلي. وثانيًا أنا لا أؤمن بالرزق السهل، الوظيفة والمنصب والرئاسة، كل هذا وهمٌ فاقدٌ للحياة، الجسد هو صُورَة الحياة الأقوى، وعمله بكل طاقته يمنح الحياة معناها وحقيقة دورالإنسان فيها، ولولا رغبة أكثرية الأحفاد وإصرارهم لوجدتني أطوف على البيوت لأسقيها، ولعلّي لاحقاً أفعل، فما زلت أحتفظ بحماري أمام الدار.

ثم رَبّت على كتف اسماعيل بمحبة، وقال:
- لا أجر يعدل أجر كبدٍ رطبَتْ..

هزّ الأستاذ رأسه بأدب، كان مأخوذًا بسِعة علم ورحابة صدر الرجل. كما ازداد تلهّفًا لاكتشاف الرجل وعوالمه الغامضة..

اتجّه ناحية ركن الغرفة إلى يمين النافذة العلوية، ثمة صندوق قديم، وفوقه جبّة جديدة، حمراء اللون مذهّبة الأطراف، مطوية بعناية، وفوقها سوطٌ عتيق، معلَّقٌ بمسمارٍ. اقترب السقّا من الصندوق وفتحه بعد أن أزاح الجبّة إلى طاولة قريبة. كان في الصندوق ثلاث مخطوطات صفراء قديمة، محفوظة في أغلفة من الجلد، إلى جوارها حذاءٌ جلديّ يابس، رفيعٌ من الخلف وعريضٌ من الأمام، يشبه لسان بقرة، وقِربة من الجلد المجعّد مربوطة بحبلٍ رقيقٍ على جانبيها، وجُبّة أخرى مهترئة من قماش قديم، بلونٍ حائل لَعَلَّه كان أحمر في ما مضى. لاحظ الأستاذ شبهًا بينها وبين الجُبة الأولى في تصميم الياقة العريضة وأشكال النقوش المذهَّبة الدقيقة التي تزيّنها. حملها السقّا برفق ووضعها إلى جوار أختها، فبدتا متطابقتين رغم الفارق الزمني الكبير..

- هذه الأشياء (الجبة والحذاء والسوط والقربة) كانت لجَدٍّ لي لقبه «قُمبوس»، وتعني كما علمت «الجاثي على ركبتيه». اشتهر بالرحمة والسقيا، وهو لقب ألصق باسمه على ما علمت لكثرة إقعائه وصبِّه الماء للناس والبهائم العطشى على امتداد هذه الصحراء. للأسف لم يصل إلينا إسمه الحقيقي، ولعله كان من زعماء الأحفاد في زمنٍ ما، وأظنني ورثت عنه حب السقيا، ولم أرث صفاته العظيمة الأخرى التي سمعت عنها الكثير..

ضحك قليلاً ثم تابع..

- حفر قُمبوس كثيرًا من الآبار في هذه الصحراء، وكان يقيم طقسًا خاصًا للنهر في أول الصيف من كل عام، ويأمر أهله بتقديم القرابين والنذور من أجل ألّا ينقطع، لا أملك شيئًا دقيقًا عن تلك الحقبة التي مرّت عليها مئات السنوات. لكن العجوز بخيت وبعض عواجيزنا الآخرون يقولون إن الأحفاد حكموا هذه الأنحاء ردحًا من الزمن، حتى جاء قومٌ من أعالي الهضاب الحبشية وهزموهم وزرعوا الرعب في ديارهم فتشرَّد معظمهم واسترقّوا مَنْ بقي منهم وفرضوا عليهم الأعمال القاسية مثل السقّاية ورَعي وحلب البهائم، والأعمال الشاقّة وحوّلوا نساءهم وفتيانهم إلى خدَمٍ في بيوتهم. وكانوا ينادونهم بالسقّائين سخرية من جدهم قُمبوس وضعفه الذي يبديه بسبب رحمته التي لم يفهموها، فهذه صفات لا تنسجم مع طبيعة أهل الصحراء وحياتهم القاسية، ربما..

ثم رفع الأستاذ إحدى المخطوطات الثلاث برفق، وقلب أوراقها بحذر. كانت مليئة برسوم لحيوانات كاسرة كالأسود والفهود والفيلة، ومحاربين بشعور مضفورة ناعمة ووجوه جميلة أقرب إلى الأحفاد منها إلى الأحباش، بل أقرب إلى السحنة الحِمْيرية في تقاطيع الوجه واستدارة الرؤوس ورحابة الجباه، وذلك الحزن العميق الذي رغم قساوته يبرز جمال العيون فيها. ثم مرّ سريعًا على بعض الخرائط والأشكال المبهمة..

حروف الكتابة في هذا المخطوط والمخطوطين الآخرين من الجئزية القديمة التي لا تزال تستخدم في كل أرض الحبشة التاريخية، لكن ورغم إلمام الأستاذ بها إلا أن تراكيب اللغة لا تحمل إلا معانٍ

مجتزَأة أوحتْ له بها بعض المفردات القليلة التي لا تزال مستخدمة. أعاد كل شيء إلى مكانه في الصندوق حين شعر بالحرج من تسرّب الوقت، وخرج مع مضيفه إلى القسم الخارجي للصالون مرةً أخرى..

جلس الإثنان في مواضعهما الأولى، مسح السقّا على وجهه بباطن كفيه ثم ابتسم في وجه الأستاذ ابتسامة ودودة..

- أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أننا نفعل ما نفعل من أجل أن نعيد الحياة إلى التاريخ، فتلك حماقة ولا شك. ولسنا نزهو بذلك الآن، ولا نرغب في الانتقام، إنما نرغب في أن نشيع المحبة، أن يصبح هذا المدى مرايا متقابلة لا شروخ فيها، وحده الحب قادر على هزيمة الظلم والفوارق والغبن، ولأكون صريحًا معك، لستُ أؤمن بالخرافة وإن كان أمر زواج فاطمة قد فتح أبوابًا كثيرة للخرافات عن الأضحية التي ستنقذ شعبًا. فعندما بدأنا هذا المسعى كانت فاطمة لم تولد بعد، ولكنها أثمرت ونضجت في وقت القطاف.

ضربت هذه الكلمات في نقطة مؤلمة من نفس اسماعيل! تنفس بعمق وزفر، ونبعثْ في خياله صورة صديقه محمود!. أطرق صامتًا يصغي لأصوات بعيدة كان السكون المطبق يحملها واضحة، أصوات سيارات بعيدة، وزفير حمار السقّا في الجوار، ونباحُ كلبٍ. واختلط كل ذلك بأصوات من التاريخ عبرت خياله بصليلها وزعيقها، وتداخلت معها صور متحركة لجيوش وفيلة مع صورة قُمبوس والرموز المطلسمة الأخرى كما رآها في الكتاب، وصورة فاطمة، ومحمود، وزعماء عجايب، وجموع تلتقي وتفترق، وأصوات ضجيج.. ثم عاد السكون كأن أحدًا أبعد الأصوات، وانتبه لصوت السقّا..

-ذلك كله حقيقة صغيرة مغلّفة بأوهام عظيمة، ولو أن الأوتاد اقتربوا من الصورة أكثر لأدركوا أن دم الإنسان في كل أحواله ماءٌ أحمر، له رائحة خميرة محايدة، لا رُخص فيه ولا غلاء، لذلك يا أستاذ نسمّيها ثورة، أو انتفاضة، لأننا شعب ولسنا قبيلة. الأحفاد ليسوا وحدهم في هذه الأرض، تحت كل جبلٍ من الجبروت صخرٌ ذائب، يمشي تحت الأرض الآن ويلتقي ببعضه أسفل كل شيئ وستراه ذات يوم في مظهرٍ واحد أو مظاهر شتى، لا يهم، المهم أنه يحدث، أنا مؤمن بذلك الآن. قل لتلاميذك بعد ذلك إن الأحفاد هم نحن وأنتم وهؤلاء لكن بدرجات متفاوتة، ولعلك تعرف مغزى هذا أكثر مني يا أستاذ، فلا تنسى أن تعلمه لأولادنا.

صمت قليلاً ثم تنهّد..

لن أطلب منك أن تكون محايدًا، ليس بوسعك فعل ذلك. إنما أنت ذاكرتنا، والتاريخ هو الذاكرة يا أستاذ، والذاكرة هي نحن، ونحن في أول الأمر وآخره بشر، كلنا لآدم وآدم من تراب..

كان الأستاذ منصبًا بجسده كله إلى الأمام وينصت لحديث الرجل بإعجاب، وفي خاطره شيء مقلق كان يشغل تفكيره فسأل:

-إذا تعقّدت الأمور أكثر، هل يمكن أن تصل إلى الحرب؟ أريد أن أطمئن.

أخذ السقّا نَفَسًا عميقاً، ثم ابتسم..

-لقد كنّا أقرب إلى الحرب بعد مقتل زيدان، لكننا اليوم أبعد ما نكون عنها. لقد خرج الهواء الساخن إلى غير رجعة بإذن الله، ولعل الناظر محمد بحكمته ورجاحة عقله لعب دورًا. ما أود قوله أخيرًا إننا

أصبنا في أشياء وربما أخطأنا في أخرى، لكننا نريد أن تذهب أخطاؤنا معنا، من دون أن تُبقي أيّ مرارة لمَن بعدنا، وليحاكمنا التاريخ بعد ذلك كما يشاء. آمل من كل قلبي أن تساعدنا الظروف، ويساعدنا الجميع بحسن التصرّف. لقد عشنا سويًا، والظفر لا يخرج من اللحم وإلا فسد الإثنان، أليس كذلك؟

أطرق الأستاذ مرة أخرى، وقد بلغت به الدهشة مبلغًا عظيمًا. هذا الرجل داخله نظيفٌ مغسولٌ ولا شك، ولو أن الحياة عادلة لمنحته موقعًا أكبر بكثير مما يطلب..

نظر اسماعيل في وجه السقّا:

- هل تقبلني صديقاً؟

قال الأستاذ عبارته بمنتهى الإخلاص، فضحك السقّا ضحكته الرائقة..

- لا!

فوجىء الأستاذ وفغرَ فاهه، والسقا ما يزال يضحك..

- بَل أكثر من ذلك، أقبلك أخًا ومعلّمًا، وبعد ذلك صديقًا..

- معلّم؟

- لا تستغرب، تعلّمت منك شيئًا مهماً لم يكن يخطر على بالي. كما ترى أنت من الأوتاد وأنا من الأحفاد، لكنك سبقتني بالمحبة وسعيتَ بها إليّ قبل أن أسعى أنا..

صمت قليلاً، وخيل إلى الأستاذ أن صوته خالطته حشرجة مريرة..

- تعرف؟ بلغتُ من العمر خمسةً وخمسين عامًا بالتمام والكمال، ما يعني نصف قرنٍ من الوعي، هل تصدق أنك أول من يدخل بيتي من الأوتاد؟

ثم تحوّل الصوت إلى التهدّج، وغالَبه السقّا بصعوبة..

-ما فعلتَه أنت بكل بساطة، احتجتُ أنا لعشرين أو ثلاثين عامًا لكي أتقبّله، لأتقبله فقط، ناهيك عن أن أفعله، ولذلك أنا مدينٌ لك بشيئٍ عظيم.

عاد الأستاذ من عند السقّا مملوءًا بحسن الظن، وبقناعة أن الغموض قد انجلى، وأن الأسوأ قد ولّى إلى غير رجعة، ولن تحمل الأيام المقبلة لعجايب سوى الخير، ولو أنه يملك أمر البلدة لولّاه عليها. أليس من الحماقة بقاء رجل كهذا في صفٍ خلفيّ موصومٍ بالحقارة؟ كم مرة يضيّع الحمقى فرصًا عظيمة كهذه من أجل أن يبقوا في المقدّمة كأحصنة بلهاء تبرطع في الحق والباطل من دون أن تكون مؤهلةً لذلك إلا بالأنساب؟ وصار على قناعة بأن السقّا قد يضع عجايب على أول طريقٍ جديد، إذا وجد ما يستحقه من تقدير ومكانة..

أخذته أفكاره هذه حتى وصل بيته، أشعل الضوء وجلس على طاولته، أخرج أوراقه وقلمه.

دوّن التاريخ والوقت أعلى اليسار ثم ترك مسافة وراح يكتب:

«قد تتخلق أمّة من نوىً صغيرةٍ هامشية، لم تكن تشغل بال أحد، ثم تصبح أمّة عَظيمة. وفي ذلك لابد أن يتصدر لها قائدٌ أو نبيّ أو مخلِّصٌ ليضعها على أول الطريق مختصرًا الوقت، وقافزاً بها حواجز التاريخ..

التاريخ، تلك الحكايات والأساطير التي يصنعها المنتصر، هو في بعض الأحيان عادل، يَمنح الفرص للمهمَّشين لكي يصنعوا أسطورتهم،

لكنها فرصٌ لا يسهل تكرارها، وعلى الشعوب أن تدركها من إرهاصاتها التي تسبقها بمسافةٍ غير مرئيّة، وإلا منحها لغيرها ممّن يستحقها. بعض الأمم العظمى كانت مسحوقة في وقتٍ من الأوقات إلى درجة العدم، ثم أنبتت من الرمل والتراب والصخر عظَمَة لم يتوقّعها أحد».

(12)

في مساء اليوم التالي، كان الأحفاد يضعون آخر الكلمات في ملحمة الغد، لم يستبعدوا شيئًا، كانت كل الاحتمالات على الطاولة، وباستثناء السقّا، اعتراهم شعورٌ غامضٌ بخيبة الأمل، تسلل إلى أرواحهم كما تتسلل العتمة مزيحة ضوء النهار. واعتراهم قلقٌ عميق مع اقتراب اللحظة التي ظلوا يعملون لأجلها أعوامًا طويلة. شعروا أن الأمر في أحواله كلها غير محسوم، قابلٌ في عمومه لكل الوجوه..

رغم إيمانهم بأن هذه الزيجة الغامضة ستتوّج نضالهم من أجل الاستقلال، إلا أنهم لم يكونوا مطمئنين تمام الاطمئنان إلى مآلات الأمر من بعدها..

ماذا لو أخلف الرجل وعده؟ ماذا لو أنه أقيل من منصبه أو حدث له مكروه؟ ماذا لو حدث ما لم يكن في الحسبان؟ ما الذي يضمن لهم أن هذا المشروع الهش بإمكانه أن يصلح ظلم ألف عام؟ حاول السقّا أن يقنعهم بوجهة نظره، لكنه فشل..

طلب منهم أن يفصلوا في نقاشهم بين الأمْرين، بين زواج فاطمة ورغبتهم في الاستقلال التي يجب أن تبقى الحافز الأوّل. حاولوا

فهم ما راح يشرحه لهم، لكنّ خوفًا غامضًا أعجزهم، الأمران في هذه اللحظة الواضحة الحاسمة مثل القوس والسهم، لا معنى لأحدهما من دون الآخر..

ثم وصل بهم الأمر إلى الشك في كل شيئ، وإلى إعادة النظر في جدواه، وإلى تقليب وجوهه كما لو أن أمرًا ما سيعصف ببنيانهم بغتة، وهم معذورون، إذ لم تمنحهم الحياة ذلك الترف الواسع في الاختيارات، بقدر ما علّمتهم الشك والحَذَر.

منذ بدء هذه الثورة الناعمة، والغموض يلف كل شيئ. تقدم المأمور طالبًا يد فاطمة فلم يتردد إخوتها لحظة واحدة، فالعجوز بخيت قال «إنه الرجل الموعود» من دون أن يزيد على ذلك شيئًا. ثم سمعوا أن العرّاف مرجان قال-رافعاً يديه إلى السماء- «إنه الخلاص المنتظر»، والدرويش سريراي يكرّر: «فاطمة آية من آيات الله، جاء بها لحكمة وقدَّرها لحكمة». ثم ازدادوا حيرة حين وافقت فاطمة من دون أن تُقلق ضمائرهم، وفوق هذا وذاك كان الشعور الجارف بالاستقلال الذي زرعه فيهم فرج السقّا، يرعبهم، وكأنهم أتباع نبي جاء بعد فسادٍ عظيم. ولا شيء يمنع الأنبياء عن تحقيق دعواهم.

قلّبوا عرض الناظر محمد بين أيديهم، وساورهم شك دفين، في أنه وهمٌ آخر، لن يلبث أن ينقشع عن سراب. إن تبعوه قد يعيدهم مئات الأعوام إلى الوراء بعد أن كادوا يبلغون قمة الجبل بعد كفاحٍ طويل. وسمعوا كلمات السقّا دفاعًا عن خيار تقديم فاطمة للناظر.

انتابهم ذلك القلق الهش الذي كان يمور في مجلسهم منذ أن

التأم، طلبوا توضيحات أكثر من السقّا فلم يزد كلامه الأمر إلا غموضًا، إذ تحدّث عن ضرورة وحدتهم وإيمانهم بقضيتهم، ثم ختم:

- هي زيجة ككل الزيجات، لعلّ فيها خيرًا، ولعلها ذلك الوعد الذي تنتظرون، من يدري؟!

***

لم يدر بخلدهم أن الناظر برغبته هذه إنما لا يبحث عن نصرٍ بقدر ما يتقي الهزيمة. إنما يستقوي بضعف فاطمة المسكينة على ضعفه وقلة حيلته، يدفع بها -عنه- ما قد يجر عليه لعنات التاريخ، ويرغب في أن يضيّع أثر الصراع في رمل كثيف متحرّك، ولن يأبه أحدٌ حينئذٍ هل باع أم اشترى؟ همُّه من كل ذلك ماء الوجه، والماء وحده ما يستحق الحرب والصلح في هذه الصحراء القاسية. ما فعله أبوه قبل عشرين عامًا كان وسيظل عبئًا. مجد الأوتاد الذي سمع به القاصي والداني لن يلبث أن يتحول إلى عار، إلى ضعف سيصعد عليه الأحفاد إلى حريتهم، وإلى هزيمة يبني عليها الأوتاد مجدًا من الوهم.

لم يكن الأمر يحتمل إلا ذلك الوجه القاسي للهزيمة، لكنه مع ذلك كان يحمل وجهاً آخر نديًا، فيه شيئ من الحب، والرغبة، طمره في نفسه ولم يكن بمقدوره أن يُظهِرَه، فهو ضعف، وفوق ذلك منقصة لا تليق بالرجال في بلدٍ لعينةٍ كهذه...

زفر الناظر وهو يتقلب في فراشه إلى جوار زوجته العجفاء، نظر إليها في الظلام نظرة كريهة، ثم أدار لها ظهره. تذكر فاطمة من جديد وابتسم بأسى.

قضى ليلته يقلب أمر الغد في رأسه، وقلبه يرزم كالطبل المكتوم داخل جثته الضخمة كلما تذكر أن الصبح قريب، وأن الهزيمة الماحقة على أعتاب الدار..

***

هي الليلة الأخيرة التي تفصلهم عن المواجهة الكبرى، في الصباح ستأتي الحكومة، وتأتي القبائل، وسيجتمع الخلق ليسمعوا حجة كل طرف، ولابد أن يحسم الأحفاد أمرهم ويخرجوا إلى الناس برأي واحد..

حتى وقت متأخر من الّليل ظلّ الأحفاد يبحثون ما إذا كان عليهم أن يضعوا أمر الناظر في الحسبان، أم يديروا له الظهر ويجعلوا بينه وبينهم سدًا؟ ثم قرروا أن يتجاهلوا طلبه، ولم يبق أمامهم إلا أن يتفرغوا لمعركتهم الحاسمة إلى جانب حليفهم الحكومي..

أما السقّا فإنه لم ينم ما بقي من ليلته تلك، وبقي مستيقظًا حتى طلع الفجر. هذا آخر يومٍ يفصل بين هذا الزمن وذاك، وعليه أن يحسب حسابًا لكل شيئ. إذ في هذا اليوم، الذي يحمل عبء قرون، لكل دقيقة حيزها الخاص وترتيبها في سلسلة الدقائق المحسوبة في ذهنه حسبةً خاصة. وكل ساعة -من ساعاته- تمر تُبعد زمنًا وتقرب آخر، وتمرّ الاحتمالات في ذهنه بطريقة صاخبة لا مجال لتجنب التفكير فيها..

خَرَج من اجتماع الأحفاد، قاصدًا ضفة النهر القريب، اجتاز حقول البصل والبرسيم الممتدة بمحاذاته. كان المزارعون في عتمة الفجر قد فتحوا عليها قنوات الماء، وتحولت أحواضها مع بصيص

الضوء الذي يدهن قبة السماء إلى مرايا. اجتاز شبحه خلالها إلى أن صعد فوق ترسٍ قائمٍ بمحاذاة النهر..

حانت من السقّا التفاتةٌ إلى بيوت عجايب قبل أن يجلس، رآها ميتة لا حياة فيها كما لو كانت دِمنًا تسكنها الأشباح. هدير النهر تحت رجليه منحه إحساسًا نقيضًا، زَحَم أذنيه بصوت الحياة، صاخبًا، ممتلئًا بالحيوية. كما لو أن الحياة نفسها تكمن في هذا المكان، في الحد الذي يلتقي فيه الماء بالطين..

أخذ نفسًا عميقاً ثم جلس يتأمل النهر والشجر الكثيف المعتم على الضفة الأخرى، كأنه جيش هبط في الظلام، يتربص بأنفاس هذا اليوم المشدود على حبل التاريخ. ثم رفع رأسه ينظر إلى بصيص النور الذي يتفتق من رحم العتمة، وشعر بالارتياح..

***

مع شروق الشمس اجتمع الخلق كما لم يجتمعوا من قبل، ضاقت بهم الساحة أمام دار الناظر على اتساعها، وبدت الدار أشبه بمعبدٍ من زمنٍ غابرٍ. والناظر جالس أمام الحشد كإلهٍ قديم في جثةٍ عظيمة. وجاء عمال مصنع النسيج باكرًا، في زيهم الأزرق الداكن وكمّاماتهم البيضاء، لكنها نظيفة هذه المرة، يحملون أعلامًا زرقاء سماوية وإلى جانبها صورة للسقا..

مندوب الحكومة أشار للسقّا أن يبدأ الكلام، فقدّم خطبة، حشد لها من اللغة والتاريخ والحكمة ما وسعه أن يحشد. كان مستعدًا لهذا اليوم الذي تأخّر ألف عام. كان ينظر إلى الأشياء من ذروةٍ عالية، لكنه عرف اللحظة التي ينزل فيها إلى السفح ويغيّر مجراها، وإلى الأبد..

العم أبو علي حين عَلِمَ أن القبائل مجتمعة رمى غطاءه على الأرض وهدّد زوجاته الجالسات حول سريره بالطلاق إن لم يتركنه يذهب، وجاء رِجْـلٌ تضرب في أختها حتى بلغ قلب الساحة ثم لم يسعفه التاريخ ولا اللحظة كما تمنى. ماجت الساحة بالهتاف والغضب، والزهو والنقمة في آنٍ معًا، وكان يتشجع كلما رأى الأوتاد يرفعون راياتٍ عَلَيْهَا خفاف الإبل، وشم الأحفاد المقيت..

- البلد لا تسير برأسين، هذا مستحيل..

قال العم أبو علي بيأس وسط فورة الغبار والضجيج، وكان السقّا ما يزال فوق المنصّته، يداه على عصاه وعينه وقلبه على المستقبل.

-لا نريد أن نكون رأساً أو ذيلاً، نريد شيئًا بسيطًا، أقل من ذلك بكثير..

- وما هو؟

ردّ العم أبو علي.

نظر السقّا إلى الجموع، وقال:

- نريد ألّا يكون لأحدٍ سلطان وإمرة علينا في ما لا نرغب، وأن تنفصل أسماؤنا عن أسماء عائلاتكم، وأن تنادونا من اليوم فصاعدًا بالأحفاد كما نحب، وألا تمنعونا شيئًا نستحقه بالقانون، وأن نقتسم ماءنا وخبزنا وجيرتنا ومكان إقامتنا المشترك بالحق والعدل والاحترام..

صمت العم أبو علي قليلاً، دار دورة واسعة في قلب الدائرة الساكنة التي اجتمعت منذ منذ مشرق الشمس لتستمع إلى الحوار، وكان قد استبد الحرّ والعطش بالواقفين والقاعدين، والشمس ضجّت في المكان بصخب..

ثم ردّ على السقّا رافضًا طلبه:

- ما تطلبه يخالف سنن الخالق الذي خلق الناس طبقات...

وردّ السقّا يردّ بعبارات وآيات عن المساواة والعدل بين البشر...

لم يتعب العم أبو علي من الكلام وهو يدور في مكانه مثل ثور الساقية، ولم يبدّل السقّا وقفته حتى كاد يحين أذان الظهر. زهاء ما يقرب من ساعاتٍ ثلاث لم يتفوّه الناظر الجالس فوق مقعده بكلمة، ولم يرفع رأسه عن الأرض، وإنما يتأفف أحيانًا، ويضرب الأرض بعصاه أحياناً أخرى، ويخطط بها على الرمل مرة بعد مرة، وزعماء القبائل الأخرى ساكنون بسكونه، والمندوب الذي ابتعثته الحكومة ملأ عشرات الأوراق بالكتابة، حتى اختلط العرق بالحبر وتداخلت الكلمات في بعضها..

لعل السقّا أراد أن يُتعِبهم، أن تستمر المبارزة لوقت طويل، فهو قد تهيأ للأمر جيدًا.

تعب العم أبو علي وخذله حلقه اليابس أخيرًا. أشار ليأتوه بالماء، فناوله أحدهم إبريقًا. تهالك على الأرض، فوق مؤخرته الضامرة، ثم أفرغه في فمه حتى شرق، سعل سعالاً حاداً، ثم حاول أن يقف على ساقيه لكن قواه خارت فجأة، دارت به الأرض وهو واقف، وخفّ إليه الجميع، رشوا الماء على وجهه لكنه غاب عن الوعي، وغابت معه صورة من التاريخ..

وبينما انشغل الجميع بالعجوز أبو علي، نزل السقّا عن المنصّه، واتجه مباشرة إلى حيث يجلس زعماء القبائل، سلم عليهم واحدًا واحدًا، وغرس نظراته المؤدبة من تحت حاجبيه في أعينهم حتى انتزع منها ذلك الخليط السحري من الإعجاب والحياء والاعتراف، ولعلّ هذا ما أراد أن يدركه من كل ما جرى..

الفصل الرابع

(1)

«صديقي العزيز..

أكتب اليك هذه المرة وأنا لا أعرف إن كنت سأكتب لك بعدها أم لا، ينتابني شعور قوي بأنني قد لا أجد وقتًا لأي شيئ، فكل ما حولي أشعر أنه يتهيأ لأمرٍ ما، حاولت أن أسبقه لأكتب لك هذه الرسالة، التي أرجو ألّا تكون الأخيرة

عزيزي إسماعيل..

هذا يومي الأول بعد السنة الثانية وأنا اقبع في هذا المكان المنسيّ، أكتب إليك منتهزًا فترة استراحة قصيرة، على رأس تلة صغيرة تشرف على معسكرٍ لإمداد الثوار يبعد مرمى حجر عن أحد مواقع العدو، والمعسكر تحيط به المتاريس والخنادق. إلى جهة اليمين ليس بعيداً عني، رفيقي «آدم» يتابع الأخبار من مذياع صغير يضعه على أذنه. وعلى يساري، عند منحنى التلة، يجلس بخيت يداعب ربابةً مشروخة، علها ترمّم جرحا قديمًا تسببت فيه حبيبته مريم وعمّقته الحرب التي أخذت رفاقًا له من بعدها. وهنا

وهناك ترى ثوارًا ينظّفون أسلحتهم استعدادًا لمعركة لا يعرف أيّ منهم متى وكيف ستندلع، أو حتى كيف سيتقاسمون الموت فيها. ذلك المزيج من القلق والرتابة هو حالي طوال الفترة الماضية ، تمر عليّ تلك المشاهد متكرّرة مع بعض الفروق البسيطة، صرت أعرف هذا المكان تمامًا كما أعرف قريتنا وأهلها وبيوتها، حين أراكم في منامي أصحو وأنا أشعر بالدفء ويزداد أملي في لقائكم. طالت رحلتي التي لم أتخيل أنها ستطول إلى هذا الحد، وتبخّر حلمي ذاك الذي تعرفه جيدًا، فأحلام الأوطان وأمجادها أهم، أما أحلامنا فليست سوى أحلامٍ مؤجّلة، ولعلك تعرف هذا أكثر مني. أرجو أن تغفر لي قلّة رسائلي على الرغم من شوقي الكبير وافتقادي لكل شيء في عجايب، للأهل والأصدقاء، الذين أفتقدهم كلهم وأتمنى لقاءهم قريبًا..

وأول ما أفتقد تلك المرأة الصابرة التي تسببت لها بألم أظنّه فظيعًا. فإليها، إلى أمي الحبيبة أطيب الحب والوفاء. كل يوم أدعو الله أن يمدّ في عمرها لأراها وتراني.

وأخصّ بالتحية جميلة عجايب التي تعرفها، والتي آمل ألّا يطول انتظارها. أرجو أن تبلغها أنني أحبها إذا كُتبت لي الشهادة ولم أعُد.

لك ولجميع الأصدقاء في عجايب عظيم أشواقي حتى يجمعنا الله بخير وسلام..

والسلام ختام..

تحياتي وأشواقي أبدًا..

أخوك ، محمود عثمان نوراي»

أخرج الأستاذ تلك الرسالة من داخل كتاب قديم. كانت مهترئة ومطوية بعناية إلى أربع طيّاتٍ التصقت ببعضها، وتآكلت مواضع ثنيها واتسخت من فرط ما فتحها وقرأها وطواها. وكانت أخته عائشة قد حفظتها له ريثما يخرج من السجن.

كانت آخر رسالة من صديقه محمود، وصلت إلى أخته عائشة بعد أكثر من عام تقريباً على كتابتها، أرسلها محمود مع رفيقٍ له. وقد قالت له -حين رأت دمعاً في عينَي أخيها- وهي تحكي له عما جرى في غيابه، وعن صول نبأ موت محمود ومأتمه:

- محمود، يحتاج إلى دموع ملائكية لتبكيه كما يستحق، لم أرَ الملائكة ولا دموعها حتى أصفها لك، لكنني أستطيع أن أصف لك الحزن الذي لفّ البلدة كلّها عندما سمع الناس خبر استشهاده. محمود، الشاب الملائكي بكته القرية، وكان في كل بيت عزاء. إلا بيتٌ واحد وإمرأة واحدة!

وعرف اسماعيل أن هذه المرأة هي الحاجة بخيتة أم صديقه الحبيب محمود، فقد أغلقت أبواب بيتها أمام رائحة الموت، وأمام المعزّين، وهي التي فقدت زوجها وأخويها وبضعة من رفاقهم غدرًا في ليلة واحدة، قتلهم قطاع الطرق، في معركة غير متكافئة. فماتوا دفاعًا عن الأمانة التي افتدوها بأرواحهم. وكانت ملحمة خلّدها شاعر صعلوك.

«ذات ليلة توهجت سيوفُ بروقها
في رقصة الموت ..
حتى طلع الصباحْ

وذُفن أبطالُها دون عطرٍ أو كفنٍ
أو صياحْ»

ثم جرت الملحمة على ألسنة الرواة بين القرى والصحارى والأجيال، لكن سيناريو الموت كان عصيًا على التصديق هذه المرة، فتمسّكت تلك المرأة بالحياة، وبالأمل، حتى ظنّ أهل عجايب أنها جُنّت وخرّفت..

أسعده ذلك وأحزنه في نفس الوقت. أحزنه ما وصل اليه حالها، وأفرحه أنها ما تزال تحمل الأمل بعودة محمود.

(2)

أدخل الأستاذ يده من فوق الباب الذي يعرفه جيدًا وفتحه برفق حتى يدخل. تردد قليلاً، فقد كان يسيطر عليه شعور غريب وهو يخطو أول خطوة داخل تلك الدار التي لم يدخلها منذ سنين طويلة. خُيّل إليه أنه سيلقى صديقه محمود، يجري أو يلعب تحت شجرة الليمون، أو يحلب معزةً مربوطة في ركن الحوش. دخل، ولم يكن شيئ من ذلك، كان البيت ساكنًا وكأنْ لا أحد فيه، تقدم خطوات أخرى داخل الفناء الذي بدا له أضيق مما كان عليه..

غرفتان متقابلتان إحداهما قديمة، بابها موارب، والأخرى تبدو جديدة لكن بابها مغلق وعليه قفل كبير يفصل بين الغرفتين مطبخ،أو صالة صغيرة ليس فيها سوى سريرٍ صغير وبعض الأواني وطاولتين صغيرتين وموقد، لكنها نظيفة ومرتبة. رأى وتدًا مكان شجرة الليمون التي طالما لعب تحتها مع محمود، والتي كانت تتوسط الفناء، فأحسّ بانقباض.

دفع الأستاذ باب الغرفة الموارب بحذر بعد أن طرقه طرقات خفيفة، ودخل. كانت في الغرفة شبه المظلمة، جالسةً على سجّادتها السعفية، يداها مرفوعتان بالدعاء والسبحة تتدلى من بين أصابعها. بدت وكأنها تتحسس شيئًاً ما على السجادة حول مجلسها، حتى أمسكت بطرفٍ من ثوبها وغطت به جزءًا من جسدها في حركة بدت له لا إرادية. شعر من طريقة نظراتها أن بصرها قد ضعف. رفعت رأسها ببطء، وسألته من يكون؟ نظر إليها ولم يردّ. لكن بدت على وجهها لهفة غريبة وانفتحت عيناها عن آخرهما حتى رأى البياض وقد زحف على سوادهما، كما يزحف الرمل على العشب المهمل.

وضعت يديها على سجّادتها محاولة النهوض. ساعدها في الجلوس على السرير المجاور، وقبّل رأسها ويديها الباردتين وتركهما بين يديه لبعض الوقت. كانت هي أيضًا تتحسّس رأسه وظهره بيديها. كان كلاهما يمارس نوعًا من التعويض، دفؤها، رائحتها، أنفاسها، كانت تذكّره بأمه التي توفيت ولما يبلغ بعدُ مبلغ الرجال. ولعلها شعرت بأن شيئًا ما من إبنها الغائب يملأ عليها غرفتها في تلك اللحظة، لكنها لم تكن متأكدة من حقيقته. كانت تتلمّسه بلهفة وتنتظره حتى يقول شيئاً، لكنه لم يتكلم..

- منذ أن دخلتَ وأنا أشمّ رائحة محمود، هل هو بخير؟

لم يتمالك نفسه. بكى بصمت، ثم أخبرها أنه عاد من السجن وارتمى على صدرها وما عاد قادرًا على إخفاء حزنه. أما هي فراحت تمسح على كتفيه وصدره بيديها المرتعشتين. إسماعيل إبنها أيضًا لكنه مولود من أمٍّ أخرى!

- الحمد لله .. الحمد لله   هذه أولى البشارات..
- ألهذه الدرجة أنت واثقة من عودة محمود يا حاجّة؟
- الله قادر على كل شيئ ..

لم يعلّق، ولم تزد على كلماتها، وعادت إلى حبات السبحة وراحت تتمتم بما يشبه الدعاء.

لم تنطق بأيّ كلمة، بل قامت الى ركن الغرفة حيث توجد حقيبة حديدية قديمة أحدثت صريرًا حادًا وهي تفتحها. حركت يدها قليلًا داخلها ثم أخرجت صندوقًا خشبيًا صغيرًا فيه بعض الحُلى القديمة وبعض النقود، وأخبرته أنها تدّخرها لفرح محمود!

ثم أخرجت من الصندوق لفافة كبيرة من القماش الأبيض في داخلها قارورتا عطر، وقالت إنه جهازها للدار الآخرة، وهي عادة قديمة للرعاة في هذه البوادي إذ يتحسّبون للريح الصفراء حين تهب عليهم بغتة وهم في منقطع عن الناس، ثم أعادت كل شيء إلى مكانه وقالت:

- الموت والحياة متلازمان في كل مكان. نقيضان يصطرعان حتى يغلب أحدهما الآخر. لكن محمود سينتصر على الموت!

ثم ضحكتْ بأسى، وأدخلت يدها تحت ملابسها من جهة الصدر، وسحبت محفظة جلدية مهترئة كانت معلّقة على رقبتها، استلت منها بأصابع مرتجفة مفتاحًا صغيرًا، قالت إنه مفتاح الغرفة الثانية، غرفة محمود، ودعته ليلقي نظرة عليها

كانت غرفة عادية لا لون لها، يغطيها سقف من الزنك الحديدي المموج، أرضيتها ترابية صلدة، يتوسطها سرير عريض من الخشب، رأسه إلى الحائط أسفل النافذة، وفراش ملفوف بعناية وموضوع على

جانب منه. على الحائط المقابل خزانة ملابس صغيرة وفوقها حقيبتان جلديتان لا يبين لونهما من كثافة الغبار. إلى يمين الباب طاولة تصفيف نسائية، مع مرآة. اقترب منها بحذر، فقد خشي أن يخرج عليه محمود فجأةً في تلك العتمة المخيفة، ليبتسم في وجهه ابتسامة باردة من داخل المرآة، أو يخرج عليه بقناعٍ مخيف ليمازحه كما كان يفعل عندما كانا طفلين. مسح المرآة ويداه ترتعشان، حدق فيها بعينين خائفتين. رأى وجهه الذي بدا مرهقًا. توجه إلى ركن الغرفة حيث تلك الخزانة الخشبية القديمة التي كانت المكتبة. راح يقلّب ما فيها وينفض عنها الغبار، كتب ومجلات ودفاتر قديمة بعضها ممزّق. أعداد مختلفة لمجلةٍ متخصصة في الشؤون العسكرية، صحف قديمة، وكتب قرآها معًا. في الأسفل درجان صغيران تحت الأرفف، فتح الأول، وكان مليئًا بالصور والرسائل والبطاقات. صور مختلفة لمحمود، أحدثها بلباس عسكري وشعر كثيف، يتحدث في جهاز لاسلكيّ خلف صخرة ضخمة. صورة لوالده وعلى ركن منها ختم حكومي سوداني. رسائل متنوّعة منه ومن بعض الأصدقاء. أغلقه وفتح الدرج الثاني. وجد دفتراً ضخمًا بغلاف بنيّ، كما لو كان مخطوطة. خرج بها في يده، وأعاد مفتاح الغرفة إلَى أم محمود واستأذنها أن يأخذ الدفتر معه، فأشارت بالموافقةً بإيماءةٍ من رأسها. ودّعها وانصرف إلى بيته..

***

وضع قهوته على النار، ثم تخفف من ملابسه إلا من مئزَرٍ يماني لفّه حول خصره، وقميصٍ صيفي خفيف، واستلقى على سريره يقرأ ما كتبه صديقه محمود في مفكّرته..

«لو كان بيدي أن أختار، لاخترت لنفسي أن أولد كالمسيح من دون أب، ومن دون ماضٍ ينغص عليّ أحلام مستقبلي. ليس رغبةً في غسل دمي من دماء أسلافي، بل رغبة في حياةٍ سهلة، مفعمة بالأحلام، مثلها مثل حياة الآخرين، لا أكثر ولا أقل. حلمت في هذه الحياة أحلاماً كثيرة متفرقة لكن معظمها لم يصدق. وبعد خيباتٍ كثيرةٍ مُرّة تشكل في ذهني حلم حياتي الكبير، فقلت لنفسي هو الحلم الذي يشبهني وأشبهه ولا بدّ أن يجد كلٌّ منا الآخر، لكنه كان على ضفةٍ أخرى، وبيننا ما بيننا من توافه الأمور.

أدرك الآن أن التحولات في بلدٍ مثل عجايب تحدث ببطء يكاد لا يُحَس، ويتقبلها الناس كذلك بحماسٍ متقطع عبر عشرات السنين، عبر أجيال عدة، مثلما يتقبّل النهر مجراه، وتتآكل الصخور..

قد لا تفهم القرى التحولات الكبرى في هذه الحياة، لِمَ حدثتْ وتحدث؟ وقد لا تتقبلها مثلما تفعل المدن، بل تقاومها مثلما يُقاوَم الأنبياءُ والمصلحون، مثلما تُحارَبُ الأديان والأفكار الجديدة. الرتابة أعظم الأديان في حياة القرى، الزمن هو أكثر الأشياء التي لا قيمة لها، إلا بالقدر الذي تحتّمه الحاجة إلى تتبع الفصول، إلى مراقبة الحرث والنسل وطلاق الزوجات وعدّتهن. الحياة هنا تستمر إنما لا معنى لها»..

(3)

لم يتبقَ على زواج فاطمة سوى أيام قليلة..

بدت عجايب في هذه الليالي وكأنها مدهونة بغلالةٍ شفّافة من الضوء، تنبع من ثقوب النجوم في سقف الليل. الهواء لطيف يحمل

أصوات الطبول والغناء، تخالطها روائح الطين والروث والصندل. لسبع ليالٍ، وبعكس الْوَطَن المشتعل بالحرائق، كانت عجايب تضجّ بالناس، وبالوافدين من كل مكان. أصوات الطبول التي تملأ فضاءها ليل نهار، والسرادق الضخم الذي نُصب في قلب الساحة الواسعة، الممتد من البيوت إلى البيوت، لا ينامان إلا لساعاتٍ قليلة. غناءٌ ورقصٌ، ومواكب الأحفاد لا تتوقف. مواكب تأتي من كل مكان في هذه الصحراء الواسعة.

في الأثناء عاد الإمبراطور هايلي سيلاسي من زيارة للولايات المتحدة الأميركية، وكأنما تلقّى الدعم، فقد أمر قواته بتكثيف عمليات اجتياح القرى. الآلاف من عصابات الباندا والكوماندوز تجتاح القرى واحدة بعد الأخرى. حشود ضخمة من القوات طوّقت قريتين شرق العاصمة أسمرا ثم أحرقتهما بعد أن قيّدت عشرات من الشبان بالحبال وحبستهم في منزل واحد وأضرمت فيهم النار. واستمرت عمليات الحرق حتى جاءت على خمس قرىً أخرى ومحتها من الوجود. أعدم الاحتلال العشرات من عملاء الثورة السريين وعلّقهم على أعواد المشانق في القرى والبلدات لإرهاب الناس. شرّد في العراء مئات الأسَر وقتل الآلاف من رؤوس الأبقار والجمال، التي ركّز حقده عليها لأنها وسائل نقل الأسلحة والثوار الذين لا يملكون عربات..

لم يدرك الأستاذ كم كان الوقت على وجه الدقّة، لكنه خمّن أن نصف الليل قد ولّى، فالنجوم كانت واضحة في السماء، وقرن الهلال بدأ يميل أكثر إلى ناحية الشرق..

صحا من نومه إثر حلمٍ غريب. فهو في العادة لا يحلم ألّا نادرًا، وإذا حَلم لا يتذكر سوى صور مشوّشة غير مترابطة عندما يصحو، لكن الحلم هذه المرّة كان واضحًا، فصحا لاهثاً ومذعورًا يكاد الظمأ يشقّ حلقه..

تلفّت حوله، لا شيئ في الغرفة سوى صوت الراديو يلعلع في جوف الليل مذكّرًا المواطنين بالابتعاد عن الثوار الذين يسميهم الإحتلال «قطاع الطرق». أغلق الراديو بقرف. شرب بعض الماء وخرج يتسكّع في الشوارع. كان يمشي على غير هدى، فأخذه الدرب إلى حافّة مرتفع في طرف القرية يقوم عليه بيت العَرّاف مرجان، وإلى جواره «حوش المجانين». هنا يقيم عتاة المرضى النفسيين الذين يأتي بهم ذووهم مقيّدين بالسلاسل والحبال من أنحاء متفرّقة طلباً لعلاج هذا المعالج الروحاني، الذي أخذ طرائق العلاج من والده «جابر سارداي». وكان الكثيرون، وخاصة النساء، يعتقدون أنه ما أن يدخل مريض هذه الحظيرة، أو يضع جابر يده على رأسه، حتى يتحوّل إلى حملٍ وديع. وَصْفات الأب ومن بعده الإبن، مكوّنة من الأعشاب الغريبة والأبخرة المعطرة وماء الأوراق وحفلات الزار التي صارت تقام سراً في أمكنة وسط الصحراء بعد أن منعتها الحكومة..

قفز إلى ذهنه الشيخ أحمد فقد يساعده عل تفسير حلمه العجيب أو يفتيه في ما رأى، فهو ابن الشيخ عبد الله، معلّم البلد وشيخها لما يقرب من ثمانين عام، كان يقوم فيها بالإفتاء وعقد الأنكحة وتوزيع المواريث والصلاة على الأموات..

معظم أهل البلد وحتى وقت قريب كانوا أميّين، محبين للتدين

البسيط، حياتهم مليئة بالنذور والتمائم والأتربة المقدّسة التي كانوا يجلبونها معهم من أضرحة الأشراف من نواحي «سَوَاكِن» و«كَسَلا» و«مُصَوَّع»، يقتسمونها كما يقتسمون الماء والخبز ويفرّقونها على البيوت حتى تحلّ فيها البركات..

عاش الشيخان عبد الله وجابر يتنافسان طويلاً على عرش القداسة في عجايب، حتى حسم الناظر حسين ذلك الصراع، فقرّب الشيخ عبد الله وأبعد الشيخ جابر، بل وصل الأمر إلى طلب ترحيله من عجايب لولا أن الإنجليز تدخّلوا فسمحوا له أن يقيم على تخوم عجايب، وفرضوا عليه ما يشبه الإقامة الجبرية ومنعوه من التدخل في حياة الناس خيرًا أو شرًا إلا مَنء يأتي منهم إليه. هكذا اتخذ من تلك التلّة القريبة من المقبرة والمطلّة على عجايب مكانًا بنى في بيتًا صار يسمّى القلعة. ومن يومها استعصم جابر وأولاده بقلعتهم واتسعت الهوة والكراهية بينهم وبين عائلة الناظر..

يقول البعض إن جابراً جاء إلى المنطقة من نواحي «دَنْكالْيا»، ويقول البعض الآخر من نواحي «القَاش»، وآخرون يقولون إنه جاء من السودان وغيرهم يؤكد أنه جاء من تشاد.. على أيّ حال لم يكن نَسَبه معروفًا لأحد، إذ لم تُعرف له صلة قرابة أو رحم في عجايب أو القرى المجاورة، ولعل ذلك ما سهّل عليه حياة العزلة التي عاشها.

كان غامضًا، لا يظهر في البلد إلا نادرًا. في المرات القليلة التي رآه فيها الأستاذ، يذكر أن عينيه محمرّتان دائمًا، يمور فيهما وميضٌ غامض، لا يمكنك ان تنظر اليهما بارتياح. بيته في طرف القرية، ولم يكن يقترب من قلعته تلك إلّا أصحاب الحاجات، وأكثرهم من النساء

الضرائر والعوانس والعواقر والعواهر، يذهبن إليه سراً. فقد كان دجّالاً وزانياً. ومات في ليلة عاصفة كما يذكر أن أمه حَكَت له..

«تحولت رائحة المطر في تلك الليلة إلى رائحة دم، وكأن قرابين تذبح. كانت السماء ترعد وتبرق والأرض تشهق وترتجّ، والناس شهود لم يروا شيئًا، فقط سمعوا جلبة أشبه بجحافل جيوش تمشي وتنهب الأرض نهبًا وكأنها معركة بين قبائل الجن. قُبَيْل الفجر خرج إبنه مرجان في ثياب من جلد البقر. ذبح ثورين أسودين أمام بيته وغسل وجهه من دمهما المسفوح، فهمدت الأرض وانتهت المعركة بانتصارٍ وهزيمةٍ لم يرهما أحد»

وشيّعه بعض أهل القرية الى المقبرة التي تجاور بيته بعد طلوع الشمس. وامتنع الناظر حسين وحاشيته، بمن فيهم الشيخ عبد الله، الذي لم يحضر الدفن ولم يذهب الى بيت العزاء. وهو أمر لم يفعله من قبل مهما كانت مكانة الميت. وكان وقتها على حافة التسعين، إلا أنه كان سريع الخطوة، نشيط وكأنه شاب في الثلاثين، خشن الاطراف، نحيل الجسد، يكاد جلده يلتصق بعظامه فلا يترك مجالا ينبت فيه اللحم. عروقه بائنة ونافرة، كثير الحمد والتسبيح، سيّان عنده الموت والحياة، قراءة القرآن أوالأهازيج، يتقدم أهل البلد بصوته الجميل في الأفراح والأتراح، ولم يتخلف عن أي منها إلا في ذلك اليوم الذي شُيّع فيه العرّاف جابر..

كان الجميع يعهدون إليه بتربية الأبناء وتحفيظهم القرآن مقابل عنزة أو كيس من الذرة أو الدخن، وكان حين يتسلم أيًا منهما ترتفع عقيرته بالقراءة وتصهل سياطه على ظهور التلاميذ وأجسادهم النحيلة نزولاً عند رغبة ذويهم «اللحم لك والعظم لنا».

كانت فتاواه وأدلته تستند في معظمها إلى أقـوالٍ لمشائخَ اشتهروا على لسانه ولا يعرف أهل القرية عنهم شيئاً قبل عودته من رحلة طويلة لتلقي العلم في بوادي السودان. وقد حكى له الشيخ أحمد أنه تنقّل بين «البُطَانة» والجزيرة وديار المجاذيب ووصل حتى حدود كُردفان ودارفور بحثاً عن العلم وحفظ القرآن، وتتلمذ على شيوخ تلك المناطق وأخذ عنهم طريقته في العبادة، وعاد منها أيام الثورة المَهدية بمسبحةٍ ومصلاة من الفرو..

مسجده الذي يتوسّط عجايب، وقبل أن يصبح بناء من الحجر، كان عبارة عن سقيفة من الخشب والبروش المهترئة وبعض الحصير، تحيط بها مساحة كبيرة من الرمل تراصّت على أطرافه حجارة صغيرة وطيئة، تتدرّج في حجمها إلى أن تصل الى محراب الإمام، حيث تنتصب أربعة منها كشواهد القبور، يصلّي فيها أهل القرية المغرب والعشاء والفجر والعيدين، بينما تقام بقية الصلوات تحت السقيفة التي تستخدم أيضا كخلوة لتحفيظ القرآن، وقد كان الأستاذ وصديقه محمود من تلاميذه قبل افتتاح المدرسة..

هدأت أصوات الطبول في البعيد حين نودي لصلاة الفجر، فاتجه اسماعيل إلى بيته.

(4)

مع بصيص النور الضئيل كانت عيناه المتعَـبَتان تنظران إلى الساحة التي لـم تعد ساحة، بل تحوّلت إلى سقيفة عظيمة ممتدة، ممتلئة

بالناس من أولها إلى آخرها. تربض حولها عربات، وجِمال، وحمير، كعتاد جيشٍ على وشك معركة. أفزعه هول ما رأى، هل مات أحد؟ هل ماتت أمه؟ لكن قواه الخائرة كانت تعجزه عن التفكير في أي شيء، فقصد بخطواتٍ متعبة باب المسجد الذي اهتدى إليه بصعوبة وسط هذا الزحام..

ما إن فرغ المصلون من أداء الصلاة التي غاب عنها الشيخ أحمد بسبب المرض، حتى وقف لهم بباب المسجد، بوجه كالح أسود ولحية كثّة مهملة، وعينين حمراوين، وشعر كثيف أشعث كطلَع الشياطين، يرتدي زيًا عسكريًا مهترئًا وفوقه معطفًا أسود رثاً، وحذاء ممزّقًا من المطاط وفي يده عصا غليظة. وقف في الباب يتفرّس في الوجوه واحداً بعد الآخر من دون أن ينبس ببنت شفة، وكأن بينه وبينهم ثأرًا..

لو أن الأرض في تلك اللحظة انشقّت عن غولٍ مرعبٍ لما أفزعهم مثلما أفزعهم الرجل الذي كان يقف بالباب. تسمر الجميع في أماكنهم، نسوا أورادهم ونوافلهم لبرهة وتعلقت أعينهم بهذا الوحش الذي سدّ عليهم فجأة.كان هول المفاجأة شديدًا. انقسم المصلّون بين غاضب من ذلك الذي اقتحم عليهم صلاتهم، وخائف مما قد يجلبه من مصائب.

إلا الدرويش سريراي، فقد وقف على رجليه بغتة ليقول شيئاً، لكن قبل أن يفتح فمه بكلمة سبقه ذلك الشيء بصوت متهدج ضعيف لم يكن يتناسب مع هيئته المخيفة تلك وهو يرجوهم طالبًا ماءً وطعاماً، وشهق شهقة مكتومة، ثم ترنّح قليلاً وسقط على وجهه..

ما أفزعهم أكثر من هول ما رأوا، صرخة خرجت من صدر الدرويش سريراي. صرخة أطلق بعدها ساقيه للريح. لكن أحداً لم

يهتم لما قاله أو فعله سريراي، فقد كان الجميع منشغلاً بهذه المصيبة التي حلّت بهم بغتة..

تحلّقوا حوله، ثم حملوه إلى الداخل، وخفّ المؤذن إلى بيته الملحق بالمسجد وأتي ببعض الماء والخبز. رشّوا على وجهه الماء فاستفاق قليلاً وهو يهذي بكلمات غير مفهومة، ثم راحوا يسقونه قليلاً قليلاً، وعندم قُدّم له الطعام التهمه من دون وعي. وبعد أن أكل وشرب استوى جالسًا في وعي كاملٍ وكأنما صار شخصًا آخر..

كانت الشمس قد صعدت إلى السماء، وظهرت الوجوه واضحة أمام ناظريه، بقسماتها ودهشتها وخوفها. كان ينظر في الوجوه مرة بعد أخرى ويبتسم.

قال الناظر محمد:

- لم تقل لنا من أنت؟ ومن أين تأتي؟

خمّن أحدهم:

- لعله ثائرٌ نجا من معركة..

نظر إلى الناظر قليلاً ثم إلى الآخرين وابتسم مرة أخرى، فقال العم أبوعلي:

- يا هذا، إن كنت ضيفًا أو ضالاً أنهكته الطريق أو هارباً من قومٍ يطلبونك وأنت مظلوم، لك علينا واجب الضيافة والحماية. أما إذا كنتَ هاربًا من سجن أو قاتلاً أو مجرماً فننصحك بالرحيل.

كأنما استهوته حيرتهم، فظل صامتًا لا يجيب. وكلما قالوا شيئًا ابتسم ونظر في وجوههم..

قال الحاج أبوبكر:

- وجهه ليس غريبًا، يبدو لي مألوفًا وكأني رأيته من قبل.!

ثم سمعوا جلبة قادمة من ناحية البيوت، تهيّأوا واقفين لرؤية ما يجري، فإذا بالدرويش سريراي يسبقها كالبرق..

- الله أكبر، الله أكبر، تحققت نبوءة المرأة الصالحة.!

فصرخ فيه العم أبوعلي:

- أي نبوءة وأي إمرأة؟ لقد أصبتنا بالدّوَش .!

خرج سريراي ودخل أكثر من مرة يستعجل وصول الموكب، ثم اتجه إلى الغريب وصرخ مجدداً:

- ألم أقل لكم إن نبوءة المرأة قد صدقت؟ أم محمود إمرأة صالحة، وهذا هو محمود، ابنها الذي اعتقدتم أنه مات في الحرب!

ونقر طبله، وتعالت الأصوات وماجت مكبّرة ومهلّلة..

قال العم أبو علي بفرحٍ له مغزى:

- سبحان مُحيي العظام وهي رميم..!

ثم قاموا إليه يعانقونه ويحمدون الله على سلامته واحدًا بعد الآخر.

خرج سريراي يستقبل الموكب، وهو يصرخ ويضحك بكل ما أوتي من قوة. ثم عاد ينقر على طبله وخلفه عشرات الرجال والنسوة والأطفال جاؤوا مهلّلين تتقدمهم الحاجة بخيتة، أم محمود، حافية، نصف عارية، تنهض وتسقط بجسمها النحيل بين أيدي الرجال والنساء حتى أوصلوها إلى صدر ابنها..

ارتمت عليه وسقطا معًا على الأرض، جاست بيديها المرتعشتين كل مكان في جسده، دفنت أنفها في منعطفات جسمه تشمّه، وارتمت على رجليه تقبّلهما. أخذها في حجره وتكوّما على بعضهما. ولو أنك نظرت إليهما لخيل إليك لوهلة، أنهما لا يتعانقان، بل يتعاركان..

على وقع الأهازيج والتكبير لحق الأستاذ بالموكب الذي بدا له غريبًا في مثل هذا الوقت. عندما وصل ورأى أم محمود ومشهد العناق المؤثّر، وعرف أن الذي تعانقه هو محمود، وقف غير قادرٍ على إطلاق صرخة فرحٍ كان يحسّ بها. وقف يتأمّل المشهد وفي عينيه تحتبس دمعة.

أخيرًا وقف محمود وصدره يعلو ويهبط متأثّرا، فوجد نفسه أمام صديقه اسماعيل. ارتمى في حضنه في عناق يختزن فرحتين في نفسَيهما: فرحة العودة وفرحة الخروج من السجن.

(5)

قال الشيخ أحمد وهو يحاول النهوض، وقد أنهكه الإعياء..

- لا تقلقوا إنها وعكة خفيفة، هناك الكثير الذي ينبغي القيام به قبل الرحيل، لم يأتِ دوري بعد، ثم إن أمامي العم أبو علي.

ضحك الجميع، فقال العم أبوعلي..

- اترك هذا التصابي يا رجل، حين عاد أبوك الشيخ عبد الله من رحلته الطويلة إلى خلاوي السودان أيام الأتراك، كنتَ مراهقاً تتصيد الفتيات اللائي يخرجن لجلب الماء.

ضحك الناظر محمد..

- الشيخ أحمد أصغر من ذلك بكثير، لعلّك تقصد المرحوم إبراهيم شقيقه الأكبر، لقد أصابك الخرف وبدأت ذاكرتك تضعف أيها العجوز..

كان أبوعلي متكئًا، فاعتدل في جلسته:

- لم يصبني الخرف، لكنك صغير يا حضرة الناظر لم تحضر ذلك الزمان، أعرف إبراهيم جيدًا وأعرف أيضًا هذا الذي يتصابى ويصبغ لحيته وشعره بالحنّاء. أقسم أنه حضر أيام الاتراك..!

ضحك الناظر مجددًا..

- لا يوجد من هو أكبر منك سنًا في كل هذه الأنحاء، ولو أن أحدًا حضر عهد الأتراك أو الفرنج في هذه البلاد فهو أنت. أظنك وصلت المائة أو تجاوزتها يا رجل..!

كانوا كأنهم بهذا المزاح الرتيب يهربون إلى الأمام، فأصوات الطبول من خلفهم، مرعبة داوية، وصوت الهزيمة فيها واضح، مؤلم، والأفق الذي يهربون إليه غامض. هذا المزاح هو آخر ما بقي من زمنٍ لم يعد موجودًا، ولم يعد له ذلك الوهج الذي ألفوه.

مع بسمة ملتوية محمّلة بالخبث، قال العم أبوعلي:

-عودة هذا الولد من الموت أليست لغزاً؟ والله لو أننا ضربنا في هذه الصحراء هبوطًا وصعودًا بحثاً عنه لما وجدناه..

-وما لنا نبحث عنه؟

قَالَ الشيخ أحمد، فضحك العم أبو علي وأردف:

-أقسم أن عقولكم فارقت رؤوسكم، أليس هذا الولد خاطب فاطمة؟ من سيربك هذا السرادق ويقتلع أعمدته إن لم يكن هو؟

علَتْ وجوههم غبطة، ولمع في أعينهم خبثٌ له بريق واشتعل الصالون الصغير بحماسٍ يائسٍ نبت كالإعصار. تهلّلت أساريرهم وسرت فيهم نشوة غريبة، حتى أن العم أبو علي بظهره الأحدب وساقيه المرتجفتين وقف جُملة، وراح يُنشد بكريره الخشن. وهبّ الناظر

بجثته الضخمة وقد أثاره جوّ الفرحة، والشيخ أحمد وقف يترنح بينهما كما يترنح السكير، ومعهم إدريس بإيقاعه النشاز وحاج حامد برجليه المعطوبتين. لم يكن ينقصهم إلا أحمد عميراي الذي أمّمت الحكومة مصنعه، وألزمته المحكمة بدفع ما يقرب من نصف ثروته حقوقًا وتعويضاتٍ للعمال وحكمت عليه بالسجن خمس سنوات لموت أحد العمال..

ظلوا لما يقرب من ساعة على هذه الحال من المرح في مداولات انتهت إلى قرار بأن يحتفوا بعودة محمود على طريقتهم..

****

أمام بيت أم محمود، نصبوا سرادقاً كبيراً، ودعوا الأوتاد من كل مكان، كبيرهم وصغيره، وأقاموا فيه مأدبةً عظيمةً، ودُقّت الطبول ورقصت النساء وملأت أم محمود الدنيا بالفرح والزغاريد المشروخة التي كانت تصدر من حلقها مثل بكاء الأطفال. ورقصت بشعراتها البيض حتى شعرت بالدوار وتهالكت إلى الأرض..

واحتار الناس في ما يفعله الأوتاد ..

وتجمّع الأوتاد من كل مكان، وراحوا يوزّعون الطعام على الموائد ويستقبلون الناس من أول الطريق حتى السرادق، كما لو أن بيت أم محمود أحد بيوتهم، وكَمَا لو أنها وإبنها ليسا من الأحفاد، حتى غطى سرادق فرح محمود على سرادق فرح فاطمة، ودُعي إليه حتى الفقراء من الشعاب والأودية القريبة

محمود، الفتى النبيل، والثائر، والشهيد، والمفقود، هو نجم البلد اليوم بلا منازع، محمود العاشق الذي لم تحب أجمل جميلات

البلد غيره، لاشك أن أي امرأة في عجايب الآن تود رؤيته، فحلق لحيته، وبدّل ملابسه، وحصّنته أمه بالآيات والتمائم والخرزات وخرج إلى الناس. عانقوه وضجّوا حوله، وضرب مولاه السابق حاج حامد طلقتين من مسدسه الكبير، وقال له:

-إذا أردت أن تسترد مخطوبتك وتتزوج منها فإننا جاهزون لمساعدتك بأموالنا ورجالنا. فَقَط أرنا هِمّتك في الموضوع.

ابتسم محمود وقال:

- كل شيءٍ بأوانه بإذن الله..

ولم يزد عَلى ذلك. حصل كل هذا وكأن محمود في حلم.

المعسكر الآخر كان يغلي بالغضب، وأقسم سالم أخو فاطمة أن يبلّغ عنه قوات الاحتلال لولا أن فرج السقّا منعه. وحين أصرّ على الوشاية أقنعه بأن الاحتلال يعرف كل شيء، لكن المأمور قرّر ألّا يفعل شيئًا ريثما ينتهي فرح فاطمة ث، وعندها سيندم الأوتاد على ما فعلوا أشد الندم.

(6)

«لمائة عام أخرى، ربما يبقى زواج فاطمة علامة القرن الفارقة من دون منازعٍ في هذه الصحراء، علامة خلخلت نسق الحياة في هذه البادية التي لم تعرف هزّاتٍ عظيمة»..

على الرغم مما قالته العرافة لفاطمة في تلك الظهيرة «إن كل شيء فيها خارق للعادة، جمالها خارق، وجودها بين إخوتها خارق، زواجها وحياتها ستخالف المألوف» إلا أن فاطمة لم تكن تفكر سوى بأنها

ستتزوج مثلما تتزوج النساء، تحبل وتلد، تحزن وتفرح، تغضب وترضى، هذا ما استقر في دخيلتها منذ أشهر واطمأنت له، قبل أن يعود محمود..

ستعيش حياة كحياة كل النساء هنا مع فارق مهمّ، هو أنّها ستكون حياة لا تقلّ عن حياة نجاة ابنة الناظر. فاطمة تريد هذا فقط، تريد حياة تحبها، بعد محمود ما كان يهمها من سيكون الزوج بقدر ما تهمها الحياة ذاتها، لذلك قبلت، وقررت أن تختار وقد اختارت الحياة التي تحلم بها، رغم أنها حتى الآن لا تعرف شيئاً عنها، ليست متأكدة من حقيقتها ولكنها تملك تصورات جميلة بشأنها، بنَتْها في خيالها قطعة قطعة وصورة صورة، حتى اكتملت. حتى الزوج المفترض الذي خُيّل إليها أنها رأته ثم أحبطت حين عرفت الحقيقة، تخيلت أنها رأته، ووضعت صورته في قلب الصورة الكبرى لحياتها، ثم عادت خطوات إلى الوراء تتأملها بزهو، ولم يبقَ إلا الزواج نفسه، ليزيح الستار عن اللوحة الحلم، أما ما يحدث بين الأوتاد والأحفاد فلا شأن لها به. تهمها فقط بهجة الحياة التي تخيلتها، والتي يستحقها جمالها..

طوال الشهر الذي سبق موعد الزواج، دخلت فاطمة حبسًا، انتقلت إلى بيت نورا الخياطة ليتم تجهيزها للفرح، وانتقلت معها رفيقاتٌ أخريات، لا يهم من أين جئن، فأيّ عروس في عجايب تتهيأ لفرحها تصبح صديقة للكل، تتعاقب البنات على خدمتها وتجهيزها، وتحظى منهنّ برعاية فوق العادة..

في مثل هذا الأسْر اللذيذ لا تملك العروس إلا أن تستجيب لكل شيئ، وكل شيئ هنا يتحكم فيه مزاجُ الرجل عن بُعد: لا بدّ أن يزداد وزنها إلى حجمٍ معين، حتى تستدير كل منطقة في جسدها وتبدو لناظرها مشدودة، وإن كانت فاطمة لا تحتاج الكثير..

أيامٌ لجلوسها فوق حفرة الدخان، حيث تُحرق أخشاب عطرية تمنح الجسد فواحاً جنسيًا أخاذًا، وملمسًا ناعمًا ولونًا برونزيًا براقًا. وأيامٌ أخرى لجَدْل شعرها ضفائر طولية رفيعة تتدلى فوق ظهرها. وأيامٌ لتقشير جلدها بالحلاوة المصهورة و«الدّلْكة» العطرية من خليط الذرة والصندل والعطور. وأيامٌ لنقش الحناء، نقشاً فوق آخر، ومرة بعد أخرى، حتى تتزين أطرافها بسواده اللامع المحبّب. وأيامٌ وأيام، لا تنتهي معها جلسات التزيين والتجميل إلى أن تخرج من هذا المخبأ الطارئ وقد استوى جسدها بلونٍ شهي، وروائح فوّاحة. ثم تزفّ إلى عريسها وقد غادرت شكلها المألوف لتأتيه بآخر لا طاقة له بإشباعه..

أيام طويلة من التدليل والرقص والغناء، تستعر فيه طاقة الفرح إلى أقصى حدودها. وفاطمة -في خضمّ هذه الأيام- سعيدة بصخبها وحلاوتها، غارقة في نشوتها، وزهوها بشكلها الجديد الذي ضاعف من إحساسها بالرضا. كل ذلك كان قبل أن يعود محمود فجأةً من الموت ويقلب الحياة في عجايب رأساً على عقب..

فاجأها خبر عودته المدوّي مثلما فاجأ الكثيرين، أربك حساباتها مثلما أربك حساباتهم، لكن، لا أحد يملك القدرة على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، لقد انطلق السهم إلى هدفه، يومان عدّتهما فاطمة في سرها، سيُعقد قرانها في يومٍ، وفي اليوم الذي يليه يكون فرحها، وستكون بعدهما في عصمة رجلٍ آخر وإلى الأبد..

منذ أن سمعتْ بعودة محمود قضت أيامها كما لو كانت تقضي عقوبةً في السجن، اضطربت أحاسيسها من جديد ولم تعد تدري ماذا تفعل. ما هذه المشاعر التي لا تستطيع التخلّص منها ويضطرب لها جسدها، بل روحها؟

تتفانى البنات وتتسابقن إلى خدمتها بحماس، لكنها تستقبلهن برغبة فاترة، أو رفضٍ حادٍ في أغلب الأوقات. وجهها ساهم، ذهنها شارد، أصابعها في فمها تقضم أظافرها، وهمزهن ولمزهنّ لا يطاق، حتى حدث مالم يكن في حسبان أحد..

صرخت فتاة فجأة..

- فاطمة.. فاطمة.. العريس جاء..

وبشهقة ولهفة، ومن دون أيّ ارتباك:

- محمود؟

فضحكنَ على لهفتها بسخرية..

قالت الفتاة وهي تلهث:

- المأمور، إنه في المدرسة..

لم تستشر أحداً ولم تتردّد، وضعت فاطمة فوق جسدها ثوبًا، ولفّته جيداً حول وجهها، حتى لم يبق منه سوى العينين وانطلقت ناحية المدرسة لترى العريس الذي لم ترَهُ مطلقًا ولم يبقَ على فرحها غير يومين اثنين. تبعتها ثلاث فتيات أخريات حتى وصلنَ إلى المدرسة تتقدمهن فاطمة من دون أن تحسب حسابًا لشيء. تسلّلنَ من بين النساء والأطفال حتى أشرفْنَ على منصة الاحتفال، وقفت فاطمة في مكانٍ وسط زحمة النساء تسترق النظر، لكن رائحتها الصاخبة كانت فاضحة. النساء من حولها تركن ما يجري على المنصة وانصبّ اهتمامهنّ على فاطمة التي غطت وجهها جيدًا، لكن الريح كانت تذهب بعطرها في كل اتجاه وتعود إليها بهمساتٍ مسموعة «لعلها فاطمة»..

كانت سلطات الإحتلال قد أجرت تجديدات وصيانة للمدرسة والمسجد والمشفى، وبنَتْ أيضًا مركزًا للرعاية الاجتماعية وآخر

للشباب.. وكان المأمور القوي يكافئ أهلها من دون حساب رغم حالة السعار التي كانت تنتاب سلطات الاحتلال فتحرق القرى بمن فيها. الاجتياحات شملت ما لا يقلّ عن مائة وسبعين قرية حول منطقتي «القاش» و»كَرَن». والاحتلال يحشد ما لا يقل عن خمسة آلاف من جنود الباندا والكوماندوز لحرق القرى والمزارع والمراعي وتسميم آبار المياه. القرى التي اجتاحوها، أبادوها عن آخرها ثم تركوا الجثث بعد ذلك في العراء تنهشها الصقور والذئاب..

أما هنا فقد زُيِّـن المكان للاحتفال بمناسبة الانتهاء من التجديدات والتحسينات. ولم يكن مقررًا أن يحضره المأمور بنفسه، لكنه قرّر أن يأتي. للأقدار حكمها أحيانًا، وكانت عجايب عن بكرة أبيها، ومدعوّي الفرح الذين جاءوا من كل مكان، في فناء المدرسة. وكانت فقرات الحفل تمضي بسلاسة كما رُتّب لها، أطفال ينشدون ويرقصون. كلمات مسكوكة تتلى، ونساء يرقصن، ورجال يصفّقون، حتى دُعي المأمور ليقول كلمة..

لم تكن في حاجة إلى من يدلّها عليه، رأته بأم عينيها هذه المرة. لكنها من صدمتها لم تقوَعلى فعل أي شيئ ولم تتأكد مخاوفها بعد، فلتنتظر..

خلع عنه نظارته السوداء الكبيرة التي تغطي نصف وجهه الأسود المنكمش، فرأت فاطمة عيناً يمنى صغيرة، وفي مكان اليسرى حفرة كبيرة أصابتها بالغثيان. مسح وجهه من العرق بسرعة ثم أعاد النظارة إلى مكانها وقام إلى المنصة، لاحظَتْ أيضاً أنه يسحب رجله اليمنى سحبًا، وأن مفصل ركبتها لا ينعطف إلى الأمام، بلغت أمعاؤها حلقها وهي عبثاً تقاوم. انتظرت نهاية كلمته الرتيبة حتى تتأكد. صفق له

الجميع ولم تصفّق. راقبته حتى عاد إلى مقعده، ورأت نتوءًا حادًا فوق ركبته، وأيقنت أنها قدم صناعية..

بينما كان الجميع يصرخ تهليلًا لمطربٍ محبوبٍ كان يصعد إلى المنصة ليؤدي وصلة غنائية يُختتم بها الحفل، صرخت فاطمة من الألم، وتاهت صرخاتها في خضم الصراخ الذي ضج في الساحة. لم ينتبه لها أحد إلا رفيقاتها اللائي سحبنها إلى سجنها المقيت مرةً أخرى.

في الطريق بين المدرسة والبيت قد اتخذت قرارها الأخير..

رفضت كل جلسات التجميل المقررة لذلك اليوم، وانخرطت في بكاءٍ مرير كاد يزهق روحها المعذّبة. وعندما غابت الشمس جاء إلى منزل محمود رسولٌ تحت جنح الظلام، يبلغه أنها تريد رؤيته في الحال..

(7)

وجهها شاحبٌ وعيناها متورّمتان من شدة البكاء. كانت تشعر بصداع حاد من أثر البكاء، فأخفتْ جدائل شعرها خلف ربطة محكمة.

رائحة العطر التي ملأت المكان نبّهته إلى حضورها رغم العتمة..

من دون أن يقول لها شيئًا، أمسكها من يدها وخرج بها إلى الطريق المؤدية إلى النهر، إلى غابة المسكيت. لعله رغب أيضًا في أن يوسّع هوة الصمت قدر ما يستطيع، فالكلام سيطلق مشاعره المحبوسة، أما الصمت فيجعله ممتلئاً بها. رغب أن يستعيدها بهذا الصمت، أن يستحضر في حضورها ذلك الصمت المرّ الذي عاناه في غيبته الطويلة..

نبعت في ذاكرته المشوَّشة خيالاتٌ لها طعم أيام الطفولة، والصبا، والشباب، وهما في أوضاع كثيرة تشبه وضعهما في هذه اللحظة. لكن أشياء كثيرة تغيرت في السنوات الخمس التي مضت. ذهب يدافع عن أحلامه، وأهله. عن حلم أن يعيش، هو وفاطمة، حياة غير حياة القهر الذي عاشه أهلهما. ذهب يقاتل من أجل بلدته، وعاد ليجد بلدته وقد محت أمجاده الصغيرة التي بناها بدأب. ألم يكن حبه لفاطمة جزءًا من حياة البلدة ومن أمجاده الصغيرة التي ذهب يقاتل لحمايتها من الذلّ، كما من المحتلّ.

دار في ذهنه شريطٌ طويل عن حياته وحياة أهله وحكاياتهم التي تمتد لألف سنة. والده المقتول، وجدّه المقتول وأحلامه مع فاطمة والأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة بملابس نظيفة ويحملون حقائب ملوّنه...

قصة حبه لفاطمة جاءت في لحظة غير مناسبة في الزمن، في لحظة غير مناسبة في التاريخ، كان يمكن لهذه القصة أن تكون مليئة بكل ما تحتمله قصص الحب من لهفةٍ وشغفٍ وألمٍ ولذة. قد لا تغير مجرى التاريخ ولا تتخطى حواجزه، ولا تبعث أمّة ميتة، ولا تصنع حضارة، ولا تمنع نهرًا من الجريان، تبدأ وتنتهي مثلما يبدأ كل شيءٍ هنا وينتهي، وكما تتعاقب الفصول، وكما تحبل إمرأة وتلد.. حكاية عادية كأي حكاية تعبر ذاكرة الأيام. لماذا يُحمّل الناس الأشياء ما لا تحتمل؟ ولماذا يُجبر إنسان على دفع ثمنٍ لا يريد دفعه، أو تأدية دور ليس مؤهّلًا له، ليتمتع بحياةٍ عادية ينعمُ بها آخرون من دون جهد؟

كانت الأفكار تصطخب في ذهن فاطمة أيضًا. هي لا تفهم بالضبط لماذا حدث ويحدث كل ما جرى؟ لماذا تسقط فوق رأسها

هي وحدها كل خطايا التاريخ اللعينة ثم يطلب منها الجميع أن تتقبل ذلك بهدوء؟ أن تتقبل قدَرَها كما يتقبل الأنبياء والمصلحون أقدارهم وأدوارهم. لماذا قرر أهلها أن يقدّموها قرباناً للعنةٍ لا تعرف من أي قبوٍ في التاريخ خرجت فجأة؟ كفّارةً لذنبٍ لا تعرف حقيقته أو عاقبته..

كانت ترتعش من الخوف والألم والرهبة، وضعت كفها فوق رأسها تتحسس أثر الصداع الحاد الذي لا يزال يضرب فيه مثل دقات الطبل. تأبطت ذراعه بلهفة طفولية ملأتها بالاطمئنان. كم مرة فعلت هذا في الماضي؟ وكم مرة ستفعل ذلك في المستقبل؟ وهل هي المرة الأخيرة؟ ملأها الخوف مجدداً وتشبثت به أكثر، قفز ذهنها إلى تلك الأيام البعيدة حين كانا يسلكان الطريق ذاتها ناحية النهر، خاصة في أيام فيضانه الهادر، يقفان على الشط، يتأملان ما يجلبه من أخشابٍ وخشاشٍ، يحملها ليقذفها على الشاطئ..

تذكرت يوم رأت علبة تتأرجح في مجراه فتظهر وتختفي. لفتت انتباهه إليها..

- هل تريدينها؟ يمكنني أن أجلبها لكِ؟

صاحت بفزع..

- لا، لقد لفتت نظري، وهو مجرّد فضول لأعرف ما بداخلها..

- تريدينها إذن..

لم ينتظر. خلع ملابسه وراح يركض ملاحقًا جريان النهر وهي تركض وراءه و تصرخ:

- لا تنزل يا محمود أرجوك، النهر خطر..

كانت العلبة قد انزلقت وسط دوامة هائلة، لكنه قفز وسبح

بمهارة إلى أن وصل إليها ثم غاب معها تحت الماء، انتظرته قليلاً لكنه لم يطلع إلى السطح، نظرت حولها فلم تجد أحدًا تستنجد به، خافت وصارت تصرخ. كان الوقت قرب مغيب الشمس والدنيا من حولها تودع الضياء. جزعت واستسلمت للبكاء، لكنه فاجأها وهو يمسك بها من الخلف، يلهث ويضحك ضحكته الرائقة، الصافية، وقدّم لها العلبة. تلك الضحكة ترنّ في أذنها الآن كما لو أنها سمعتها للتو.

نظرت إلى وجهه المتوتر في الظلمة فخيّل إليها أنه يضحك، أغمضت عينيها قليلاً وأسلمت نفسها لها، ملأت روحها بذكريات عذبة. وضعت رأسها فوق كتفه الأيسر وهما يسيران فوق الرمال الباردة، وبين شجيرات المسكيت الصغيرة التي تنبت في الأرض مثل طلع الشياطين، حتى انتبهت إلى صوته كما لو كان ينبع من السماء:

- لماذا طلبتِ لقائي؟

رفعتْ رأسها.. بدا لها عدوانياً فجأة، دارت لتقف في مواجهتها وأمسكت بوجهه بين كفَّيْها تتمعن في تفاصيله، وتتأكد أنه هو..

- حبيبي وسيدي وروحي التي تنبض بين جنبَيْ، وهل كُنتُ سأموت قبل أن أراك؟

أمسك معصميها وأزاحهما إلى الأسفل، وقال بصوتٍ بارد اقشعرّ بدنها له:

- وماذا سيحدث إن مِتِّ؟ ها أنذا متُّ وعدتُ إلى الحياة، الموت لا يغيّر الناس، لكن الأحياء يتغيرون، لعلك صدّقتِ مثلهم حكاية موتي وقررتِ أن ...

وضعت يدها على فمه..

- لا تكمل أرجوك، ما طلبت لقاءك إلا لأنني قررتُ أنّ المكان الذي يخلو منك يخلو مني لا محالة، هل تفهمني؟

ثم أدخلت يدها اليمنى تحت ثوبها تتحسس قلادة العقيق، تلك القلادة التي كانت في علبة النهر، على صدرها، والتي احتفظت بها كل هذا الوقت، نزعتها من مكانها ووضعتها في كفه..

- شيءٌ من قِصّتنا، لعله يبقى يا محمود..

تأمل القلادة قليلاً، ثم رماها بكل ما أوتي من قوة في العتمة، اجتهدت رغم صدمتها لتخمّن أين وقعت، وقبل أن تفيق، صفعها صفعة سمعتها قبائل الجن والأشباح بين الشجر، ودوّى صوتها في أذن التاريخ الذي يصرّ على أن تدفع فاطمة ثمن طموحات وأحلام أبطاله. صمتت قليلاً ثم ضحكَتْ بعدها بهستيريا متصاعدة، كأنما تشعر بنشوة هذه الصفعة. كأنها أراحتها، وطهّرتها بشكل ما..

- اضربني يا محمود، اضربني يا حبيبي..

أشاح بوجهه عنها. لكنها دارت حوله لتبقى في مواجهته مرة أخرى. نظرت في عينيه، ورأت الدموع. حاولت أن تمسك بيديه فنفض يديها، ثم عقد يديه أمام صدره. شعرت بالألم، بل بالتفاهة.

بصوت متحشرج سألته:

- هل تسامحني يا محمود؟

لم يجب، استغرقه الظلام الذي يلفّ الدنيا من حوله، شعر كأنه امتداد لذلك الظلام، لتلك اللحظة الكئيبة. بل كأن الزمن ذاته منذ ألف سنة ينتمي إلى هذه العتمة اللانهائية. فما جدوى أن تشرق الشمس الآن؟

- إذهبي يا فاطمة، مُوتي، تزوّجي، إفعلي ما شئتِ. لا معنى لبقائك إلى جوار جثةٍ ماتت منذ سنين..

الصوت لا يشبه صوته، كان حادًا ووحشيًا إلى درجة مرعبة. كما لو أنها تستمع إلى شبحٍ في الظلام. الأشباح تتكلم حين تتأكد أن فريستها مستسلمة، لكن فاطمة لم تستسلم..

- لا يا محمود، هذا ليس أنت، أعرف أنك لستَ أنت..

أشاح بوجهه مرة أخرى. بدت له بروائح عطرها وظفائرها وحنّاء يديها ثقيلة، كريهة، وبدا وجهها في تلك اللحظة وجه خطيئة، وجه ذنْبٍ لا يُغتفر..

- إذهبي.. قلت لك ارحلي من وجهي..

قفزت إلى صدره تحتضنه وهي تبكي، لكنه لم يحرِّك ساكنًا، قبّلته على خده الأيمن، فلم يحرك ساكنًا. تحسست شعر رأسه بيدها ، ولم يحرك ساكنًا. دفنت وجهها في عنقه تشم رائحته بقوة..

أمسكها من خصرها بكلتا يديه ثم رفعها فوق رأسه، ظنت لوهلة أنها استعادته، وأنها بدأت تتعرف عليه. غلالة من النور طفحت في وجهه بغتة، شعّت عيناه برغبةٍ غريبة، وافترّت شفتاه عن ابتسامة غامضة، ثم غابت الابتسامة، وتصاعدت من أنفه أنفاس ظنتها لهفة وحرارة شوق. رفعها فوق رأسه بمقدار ما استقامت يداه في الهواء. غلبتها ضحكة بريئة كادت تصهل بها ملء صوتها، لكن الضحكة تحوّلت إلى صرخة، وتحول وجهه بين يديها إلى تراب. التفتت ورأت شبحه ينزل مندفعًا ناحية النهر، وأحسّت بألمٍ حادٍ في ظهرها..

(8)

لأسابيع طويلة، جابت الرسل إقليم الساحل كله على ظهور الدواب ومتون العربات حتى أطراف الحدود مع السودان، توزّع

رقاع الدعوة للزعماء والأعيان وشيوخ القبائل في الحضر والبوادي وأطراف الصحراء. لقد عزم الأحفاد على أن يكون الفرح حدثاً مدوّيًا. حدثًا فاصلاً بين زمنين، وبداية عهدٍ يطوي ما مضى. وأن تكون فاطمة المسكينة قربان ذلك التحوّل..

توافد المدعوون، عشائر وقبائل ووفود. وجهاء وزعماء ومسؤولون. رجال ونساء ضاق بهم السرادق الضخم الذي نُصب في قلب الساحة الواسعة خلف المسجد، وانتشر الأطفال في فراغات القرية وأزقّتها وساحاتها بملابس ملوَّنة زاهية، وكأنما انفجرت في المكان أكياس حلوى. حتى إذا كانت عشية الفرح تلألأت عجايب في بقعة النور الهائلة التي كانت تشعّ في قلب الساحة الكبرى.

تدافع الشباب المتحمس إلى حظيرة البهائم التي نصبت خلف السرادق، يسوقونها إلى مصيرها واحدة بعد أخرى وكأنما يقتصّون من أسرى يائسين، نحروا الإبل وذبحوا الذبائح ونصبوا القدور الضخمة وتصاعد دخانها حتى سبح فوق سقف القرية مختلطاً بالغناء وأصوات الطبول والزغاريد المتصلة التي كانت تنطلق من داخل السرادق الضخم. النسوة في ثيابهنّ الصاخبة مثل فسيفساء دقيقة تراصت في نظام، يصفّقن ويغنّين خلف «حواء فالول»..

أم فاطمة في ثوب أحمر يمور بوهجٍ لافت، وحولها شقيقاتها ونساء القرية بشعور مجدولة وأجساد مكتنزة تفوح منها روائح عطور صاخبة ضجّ بها المكان حتى حبست أنفاسه..

كان صوت المغنية «فالول» يشق الفضاء مثل بوق سفينة عملاقة، تجلس خلف طبلٍ من الجلد يئنّ على وقع ضرباتها اللاهبة،

ويلعلع صوتها مبدداً ذلك الظلام، ويجذب الرجال من عمائمهم وجباههم سَكْرى بتلك اللحظة الساحرة، فيدخلون إلى الساحة فرادى وجماعات يرقصون قفزًا بسيوفهم وعصيّهم ويضربون على الأرض بأرجلهم لبرهة ثم يفسحون المجال لآخرين.

خالات فاطمة وعماتها وبناتهن وفتيات البلد، اندفعن إلى قلب الدائرة الواسعة في سرادق النساء، وكشفن شعورهن المجدولة وأطلقنها. تقف الراقصة بين نديداتها ثم تزلق ثوبها أو خمارها عن رأسها إلى كتفها، ومع ايقاع الطبل السريع المنتظم يدور شعرها مثل مروحة، يمنة ويسرة في انسجام تام، مجدولاً ومرصعًا بالخرز والذهب، تضع الواحدة منهن كفها قائمًا أمام وجهها ثم تدفع به شعرها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى مع الايقاع والحماسة والتصفيق..

ينزل الأحفاد إلى الساحة وينفثون في المكان طاقة متجدّدة كلما وهنت جذوة الحماسة. في حركتهم وسكونهم كأنهم أشباح تتحرك بين النور والظلام، تبحث في المكان عن شيئ لا يُرى. ما يجري إما أن يفضي إلى النتيجة المنتظرة أو لن يفضي إليها مطلقًا. إما أن تطلع شمس اليوم التالي وقد شقّت التاريخ إلى نصفين أو لا تطلع.

أما زعماء القبائل ووجهاؤها، وأعيان البلد وشيوخها المخضرمون، فقد ضربوا حول المكان حصارًا صامتاً، دائرة واسعة من الآلهة الغابرة، تتقاطع نظراتها عابرةً فوق تلك الفوضى، ناشرةً شبكةً غير مرئيّة. إنها الساعات الأخيرة قبل التحوّلات المنتظرة. عجايب كلها كانت تنتظر طلوع الصباح بمشاعر متضاربة.

بدا في تلك اليلة كما لو أن قبائل الجن حضرت من كهوف الجبال وتجاعيد الصحراء. اتخذت مقاعد للسمع فوق ذرى التلال القريبة، حتى إذا طلع الصباح نظرت إلى عجايب الجديدة وانصرفت تقهقه بنشوة، وأفاق أهلها فلم يجدوا شيئاً في مكانه المألوف..

***

لم يكن صباحًا عاديًا ذاك الذي أفاقت عليه عجايب، وقد أعقب ليلة ليست ككل الليالي أيضًا، لم تشهد مثلهما منذ أن وجدت، وكأنّ لها من إسمها نصيب. كان الرجال في المسجد، يستعدون لعقد قران فاطمة، والعريس الأعور في جلباب ناصع وعمامة بيضاء بلون الثلج، ينظر إلى من حوله بعينٍ واحدة من خلف نظارته السوداء السميكة، وعن يمينه عمه العجوز ذو العينين الدامعتين والأنف السائل، وإلى جانبه بعض أهله. وعن شماله ومن خلفه ومن أمامه وجهاء الأحفاد وضيوفهم الذين جاؤوا بأعداد كبيرة. دوائر من الصفوف المتراصّة، المتلاصقة تبدأ من صحن المحراب وتنتهي عند نهاية السرادق قرب دار الناظر، هناك في نهاية الساحة. كان الصبية يطوفون بالخبز والحلوى، وسحائب من أدخنة البخور تسبح في وقار..

ما إن اقترب العجوزان، بخيت وذو العينين الدامعتين، من المأذون استعدادًا لعقد القران، حتى انطلق صوت الدرويش سريراي..

ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ يَا مَعْشَرَ ٱلحَاضِرِينَ وَالسَّامِعينَ
إِلَى الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ الدَّعَوَاتِ ٱلعَلِيَّه،
فَإِنَّ الدُّعَآءَ مُسْتَجَابٌ عِنْدَ هذَا ٱلمَكَاااااان

ثم جاوبته أصوات هادرة، انداحت كالموج إلى آخر الصفوف..
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِمُ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَدِيَّة
وَاغفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ما إن همّ سريراي بإنشاد المقطع التالي حتى قاطعته صرخة مفزعة، شقّت الفضاء مثل نصلٍ حاد، وفوجئ الجميع بامرأة تندفع بين الرجال، حاسرة، حافية، تصرخ وتولول، ومن خلفها أخريات، يصرخن ويندبن. وقف الرجال دفعة واحدة كما يقف الشَّعرُ في البدن المقشعر، وقالت النادبة..

- انتحرت فاطمة، قتلت نفسها..

وخفّ إخوتها يدوسون على الرقاب حتى بلغوا المرأة:

- ماذا جرى؟

قالوا بصوتٍ واحد..

***

كانت فاطمة قد عادت من لقائها بمحمود إلى محبسها مُعفرة بالتراب وتبكي. واستمرّت عل حالها طوال الليل. وعجزت رفيقاتها عن فهم ما جرى ويجري، لكنّها لم تكن تتكلم، أو تأكل أو تفعل شيئاً، كان وجهها مدفونًا في وسادتها أوبين كفيها طوال اليوم، دمعٌ يزحم دمعاً وبكاء لا يتوقّف..

وعندما علا في الفضاء أذان العشاء، وهدأت أصوات الطبول والزغاريد، نزلت من سريرها على عجلٍ كما لو أنها تذكرت شيئاً مهمًا. مسحت دمعها عن وجهها المتورّم، وابتسمت في وجه رفيقاتها

الحائرات، ثم اتجهت إلى الحمّام حيث استحمّت وخرجت منتعشة، باسمة. صلت عشاءها كما ينبغي للتائب المهتدي، وجلست على سجادتها وقتاً طويلاً تدعو أحيانًا وتشرد أحيانًا. عندما أنهت صلاتها كانت هادئة فأكلت وثرثرت مع رفيقاتها إلى أن ودّعتهنّ إلى النوم..

قبيل طلوع الفَجْر، تسللت من مرقدها إلى الحمّام حيث كانت قد خبّأت كيسًا من صبغة الشعر ذوّبته في إناء فبدا لها لونه الأحمر الغامق كلون الدم داكنًا مع العتمة، قرّبته إلى فمها بحذرٍ وهي ترتعش فلفحت أنفها رائحته النفاذة، رائحة الهلاك. كشّرت وجهها وزمّت شفتيها وأبعدته، وتصاعدت نبضاتها وارتعش جسدها كله، وتصبّب عرقها حتى عجزت عن الوقوف على ساقيها، فجلست على قطعة من الطوب إلى جوار الحائط وأسلمت ظهرها ورأسها إلى الحائط الخشن، ثم حاولت مرة أخرى..

نظرت في الإناء ورأت صورة محمود، بملامحه المحايدة، القاسية، وسمعت صوته يقول لها..

«إذهبي يا فاطمة، موتي، تزوّجي، إفعلي ما شئتِ»..

«هل تقول مثل هذا الكلام لفاطمة التي أحبتك يا محمود وانتظرتك خمسة أعوام؟».

كانت تنظر إلى شبح وجهه في العتمة، فنزلت من عينها دمعة. ثم رأت على شفتيه تلك الابتسامة العريضة المفعمة بطيبته وودّه القديم. اعتصر قلبها الألم فأغمضت عينيها وأعادت رأسها إلى الحائط..

كان ارتعاشها قد بلغ مدىً يصعب التحكم فيه حتى كاد الإناء يسقط من يدها. أمسكته بكلتا يديها بقوّة وأغمضت عينيها لترى شبح محمود. لكنها رأت وجه المأمور كما رأته تلك الظهيرة، بعينه الواحدة

ووجهه الكريه، فأمسكت أنفها بيدها اليسرى ثم أغمضت عينيها بقوة وشربت ما في الإناء دفعةً واحدة

بدأ الهلاك يسري في جسدها ببطء، والموت يُقطّع إمعاءها، ووعيها يجيئ ويغيب، والعرق يغسل جسدها غسلته الأخيرة. تأوّهت من الألم وصرخت صرخةً أيقظت رفيقاتها اللواتي أيقظن الدنيا بصراخهنّ. واجتمت النسوة وضجّ المكان بالفوضى، وجرت نورا الخياطة ناحية المسجد، تصرخ وتندب فاطمة، العروس، الجميلة، إلى الرجال..

هكذا ذهبت فاطمة إلى غير رجعة، ماتت. اختارت لحظة النهاية بحيث تقلب كل النبوءات. ذهبت فاطمة التي حمّلها الأحفاد عبء تاريخهم، حلقت بعيدًا حتى اجتازت المدى والزمن والتاريخ وتركتهم معلقين في الفراغ. لقد انتقمت أخيرًا، انتقمت منهم بموتها. لقد زفت فاطمة مرتين بين طرفي ليلة واحدة، بالأمس عروسًا وفي الصباح إلى المقبرة، وقد كان شيئاً عجيبًا..

(9)

خاض محمود معركة أخيرة يائسة على حافة القبر وَهُو يحاول أن يلقي على جثمانها نظرة الوداع الأخيرة. لكن إخوتها حالوا بينه وبين ذلك، وشهَرَ سليمان خنجراً في وجهه، يبرق تحت ضوء الشمس:

- كل ما جرى لها ولنا كان بسببك يا وجه النحس.

وأقسم أمام الملأ أنه سيدفنه إلى جوارها، لولا أن السقّا تدخل وأخذ منه الخنجر.

بكى محمود جاثيًا على الأرض، فما هي إلّا أيامٌ قليلة منذ أن عاد إلى عجايب، وكان يظنّ أنه عاد من الموت إلى الحياة، لكن ها هو القدر يأخذه إلى الموت من جديد.

«وهل كنتُ سأموت قبل أن أراك يا محمود؟»

ألهذا جاء؟ وهل هو مَن تسبّب في موتها؟ كان السؤال يحزّ في قلبه كالسكّين. وتعود كلماتها: «أن يكون وجهك آخر وجه أراه هو النهاية الّتي لم أكن أحلم بها، يا الله ما أسعدني».

كان الأستاذ ينظر إلى صديقه. ما أشقاه اليوم، إنه القاتل والضحية في آن. هو الآخر، مثلها، جاء في اللحظة غير المناسبة، اللحظة القاتلة أيضًا، محمود لم يقتل فاطمة. هو ضحية مثلها إن لم يكن أكثر.

لكنه متّهمٌ على كل حال، والأحفاد يبحثون عَن قاتلٍ يعلّقون على رقبته دم فاطمة مثلما علّقوا على الأوتاد، منذ ألف عام، كل أوزار التاريخ. ولو أنه لم يأتِ لوجدوا غيره. لَنْ يعجزوا عن إيجاد قاتلٍ يحمل الوزر عنهم، لكن لمَ البحث؟ ها هو القاتل جاثٍ على الأرض في استسلام ينتظر قصاصهم..

غافل سليمان الجميع، وامتشق عصا رفعها ليهوي بها على مؤخرة رأس محمود، لكن يد الأستاذ تلقفت العصا دون وعي ثم دفعه دفعة جعلته يتراجع إلى الخلف. وانضم إلى العراك شقيقاه، ووقف مع الأستاذ عدد من أصدقائه.

تدخّل السقّا وصرخ في وجه أخوة فاطمة:

-والله إن لم تهدأوا تركناها لكم وذهبنا.

صاح أحد المشيعين..

- استهدوا بالله يا جماعة، العنوا الشيطان ، صلوا على رسول الله نحن في مقبرة..

- عليه الصلاة والسلام، عليه الصلاة... الصلاة والسلام، والسلام..

انفضّ العراك، وانحنى المشيعون على معاولهم، يزيحون ما تقهقر من تراب حول حواف القبر. ووُضعت فاطمة في قبرها كما تُخبأ الكنوز العظيمة..

لكن سليمان الذي لم يكن ليرضى بألّا يردّ الصفعة، حمل في يده قضيبًا حادًا قاصدًا رأس الأستاذ، وكاد أن يتمكن منه لولا أن محمود أمسك القضيب بكفه العارية فتصايح المشيعون، وفصلوا بينهما، لكن القضيب شجّ يد محمود بجرح عميق. وخفّ إليه الناس وقد رأوا الدم ينبجس من جرحه. مزق أحدهم عمامته وضمد له جرحه وهو يقول له:

- ما الذي جاء بك يا بني، ما لك ولهذه العائلة المجنونة؟

ابتسم محمود رغم الفجيعة، وكان يتأمل بقع الدم التي جفت فوق التراب، التراب الذي ضمها الآن، لعلها تضحية صغيرة ملأته بالرضا رغم كل شيئ..

ابتعد محمود بخطى متثاقلة ونفسٍ كسيرة، وهو يكفكف دمعه ويتحسس يده كعلامة على هزيمة أخرى من هزائم الأيام. ابتعد وئيدًا وهو يجرجرُ ساقيه مثل جندي مدحور، ومع كل خطوة كانت تسقط عن كاهله سنة أخرى من سنواته المعذّبة، ولا يدري إلى أين تقوده خطواته المتثاقلة في تلك الظهيرة القائظة.

كان يسير في الطريق الذي يأخذه إلى السدرة القائمة في سفح التلة. السدرة التي كانا يلجآن إليها بعد هروبها من الخلوة. يسندان جسديهما الصغيرين إلى جذعها ويرقبان الطريق..

«عندما أكبر، سأنسج لك طاقية من الصوف ومنديلاً كما تفعل أمي!»

ثم تضحك، وتجري وتدور حول السدرة، ويجري خلفها ويدور أيضًا. صوتها الطفوليّ ينبع في مخيلته مثل نداء بعيد، ثم يمتدّ ليصبح صوت طفلة وصبية وفتاة ناضجة

«أحب أن يتعلم أولادنا مثل أبناء المدن، في مدارس نظيفة وملابس أنيقة ويحملون حقائب ملوّنة، أتراني أحلم يا محمود؟»

«لأجل هذا الحلم متّ ثم لأجله عدت»

انتهى الحلم. جلس، لا كما كان يجلس تلك الأيام، مرحًا نشِطًا، وإنما منهكًا، مليئاً بالندوب والندم، وعيناه ترقبان من بعيد جموع المشيعين وهي تغادر المقبرة في اتجاه القرية. لقد انتهى كل شيء، انطوت حياة الحبيبة بمأساة ستبدأ منها حياته الأخرى، حياته التي رآها تتقدم بخطواتٍ ثابتة نحو أفقٍ ميت..

الفصل الخامس

(1)

كان الأستاذ يجلس مع صديقه خليل في المقهى ذلك الصباح. يحتسيان قهوتهما ويستمعان إلى الأخبار من إذاعة أديس أبابا. حالة الغضب من تمدد الثورة في أجزاء واسعة من البلاد كانت واضحة، برنامج خاص باللغة المحلية كان يدعو السكان في القرى والأرياف البعيدة إلى تقبل فكرة تجميعهم في أماكن محددة بداعي حمايتهم. لكن الهدف كان واضحًا للأستاذ ولخليل وللثوار من قبلهم تمام الوضوح، إذ كانت صحيفة الثورة السرية التي يحملها خليل قد كتبت في افتتاحيتها أن سلطات الاحتلال، وبعد الاتفاق مع حكومة الخرطوم، ضيّقت على قياداتها في شرق السودان وباتت خطوط الامداد والاتصال مع الثوار مهددة بالانقطاع. وهي تعمل على قطع مصدر الدعم والمؤونة الوحيد وهو أفراد الشعب، ومن ثم الإجهاز على الثورة التي حققت نجاحاتٍ غير مسبوقة بإمكانات قليلة...

كانا يقلّبان الأمر، ويتبادلان الحديث عن أحوال الثورة التي يدعمانها بكل قوّة ويعتبرانها أهم شيءٍ مقدسٍ في حياتهما، لكن الخيبة

يمن قادتها جعلتهما يتحدثان بمرارة تقرب من حدود الشماتة عن الخلافات المحتدمة بين قياداتها الميدانية ومجلسها المركزي- وفجأة سمعا صوت محمود، يصرخ:

- أقسم أنني سأشرب من دمك إن سمعتك تتحدث عني أو عنها مرة أخرى..

رأيا حراس الكنز بعصيّهم وخناجرهم، فاعتقدا لوهلة أنهم عادوا لملاحقة محمود مرة أخرى..

صرخ الأستاذ:

- ما لهم هؤلاء اللئام، ماذا يريدون من محمود؟

وبدأ يبحث حوله عن شيئ يستعين به في معركة ستنشب لا محالة، حتى وجد قضيباً من الحديد مُلقىً على الأرض، حمله بسرعة وهمّ أن يندفع نحوهم. لكن خليل أمسكه من يده طالبًا منه أن يتمهل قليلاً، فقد لاحظ أن حراس الكنز لم يكونوا في الجانب الآخر، بل كانوا في صف محمود هذه المرة، وكان أحدهم يصرخ:

- والله، والله، مستعدون أن نقتل كل مَنْ يقول هذا الكلام.

اقتربا أكثر نحو بؤرة الشجار، حتى وصلا إلى حيث يقف محمود، سحباه بعيدًا وأحاطا به تحسّبًا لأي مفاجأة غير حميدة، وخفّ بعض العقلاء، وحالوا بين الجميع حتى تفرقوا في سلام، وكَفوْا عجايب شر بليّة أخرى لم تكن تنقصها..

أخذا محمود إلى المقهى حتى يهدأ ويفهما منه ما جرى. كان يبكي بين كل كلمة وأخرى، ويتحدث بمرارةٍ تثير الشفقة..

- لم أتخيل أبداً هذا، ليتني لم أعد، ليتني مِتّ..

وفهما السبب. فقد راحت الأقاويل تنتشر في عجايب عن أسباب انتحار فاطمة:

«كان في أحشائها شيءٌ منه!».

«اختلى بها انتقامًا، حتى حبلت منه، ولم يكن أمامها لإخفاء فضيحتها غير الإنتحار»..!

«لماذا تحرش به إخوتها في المقبرة وكانوا يريدون قتله؟ ألم تفكروا في الأمر؟».

ويردّ عليهم آخرون:

«لم يُعرف عن فاطمة نزقٌ أو شطط، والزواج كان موعده مضروبًا قبل مجيئ محمود وكانت مستسلمة له..!

«اتقوا الله في أعراض الناس يا جماعة، متى عاد محمود حتى تحبل منه؟ ماهي إلا ليال ثلاث ما بين عودته وموتها!»

« فاطمة لم تكن أمَةً، كانت شيئًا مثل الولية الصالحة، مثل ظهور العذراء وعفة النبي يوسف، جاءت لتكشف لنا الحُجُب، وترتقي..»!

هكذا يردد الدرويش صالح سريراي، وهو يطوف برايته البيضاء وطبله الرنان كلّ تجمعٍ يمرّ به في أزقة عجايب. اقترب منهم في المقهى، وضحك في وجه الأستاذ ضحكة لها مغزى..

-أنت ورفيقك هذا..

وأشار إلى محمود..

-حظكما ينبع من مشكاةٍ واحدة..

وانصرف ينقر طبله ويهز رايته، قاصداً جمعاً آخر..

«موت فاطمة، كان حدثًا غريبًا، صادمًا، كتلك الأحداث التي تمرّ في حياة الناس مرة كل مائة عام أو ربما كل عدّة قرون، ثم لا يعرفون لِمَ حدث ذلك وكيف؟ بعد أن اعتادوا أن يروا كل شيئ في مكانه المحدد وزمانه المألوف، تختل أنساق الحياة من حولهم فجأة، ثم لا يدركون

حقيقة ما جرى، وحين لا يفهمون ما جرى يفسّرونه على طريقتهم، معتبرين أن شيئاً غامضًا يتحكم في حياتهم كلها، يقلّبها كيفما يشاء، ينقلها من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان. شيء فوق إرادتهم. وتتعدد التفسيرات، ويصبح الحدث حكاية، ينقلها هذا إلى ذاك، وذاك إلى آخر، وتضاف إليها أشياء وتحذف منها أشياء.. ثم تصبح أسطورة»..

(2)

غاب السقّا عن المشهد بعد دفن فاطمة، ولم يَعرف أحدٌ أين ذهب. وقرر الأحفاد من بعده ألّا ينصبوا خيمة العزاء لفاطمة، واكتفوا بذلك التشييع المهيب الذي مشى فيه كل من جاء لفرحها ثم غادروا كما يغادر الحجّاج مكانًا مقدَّسًا. وبقي الأحفاد واجمين، قلقين. ينتابهم خوف من أن اللعنة التي أخذتها تتربّص بهم، خاصةً وأن أم محمود مرضت فجأة، وهي ترقد في المشفى دون حراك، وإلى جوارها محمود يلعن الساعة التي عاد فيها.

كانت حُمّى الإنتخابات قد سَرَت في البلاد. واشتدّ النقاش، بين مؤيدي المرشحَين الباهتَين. في أحد الخيام صور شاحبة لذلك الرعيل الأول من حزب الوحدة مع أثيوبيا تملأ جوانب الخيمة الضخمة، ليس من بينها صورة حديثة إلا صورة المرشح البائسة، بشاربه الكث ووجهه البارد.

وجماعة أحد المرشحَين اختاروا طريقًا آخر، فراحوا يوزعون بعض الأقمشة والطعام في الشوارع والبيوت والمدارس، وأعلام مرشّحهم تكاد تغطي جدران عجايب..

في يوم الاقتراع راحت اللواري العتيقة تئن فوق الكثبان المائجة تحمل الناخبين -من أنصار الناظر محمد- من بيوتهم وتفرغهم أمام مراكز الإقتراع. وقد كان الناس منذ أيامٍ مضت يحجّون إلى داره فرادى وجماعات، كما لو كانوا في حجّ..

وصل الأستاذ إلى المقهى الخالي متأخّرًا، فقد مرّ على صديقه محمود -الذي يرافق أمه- في المشفى كما اعتاد أن يفعل منذ أن مرضت. ثم قادته قدماه إلى مقهى سَمرة. وجلس إلى طاولته الأثيرة في ركن المقهى ريثما يحضر له سمرة قهوته ويجيئ خليل أو عمر أو بعض الشباب من الذين بقوا في عجايب بعد التحاق الكثير منهم بالثورة، خاصّة بعد عمليات الاعتقال واجتياح القرى والبلدات. وقد نمت بين الأستاذ وبين تلك القلة الباقية علاقات وطيدة خلال الفترة الماضية..

- أحلى قهوة بالزنجبيل، على مزاج الأستاذ..

- شكراً سمرة، ارفع صوت المذياع قليلاً لو سمحت..

كان الراديو في المقهى يذيع تغطيةً مضحكةً لمجريات تلك الانتخابات المفبركة في عموم البلاد، مقابلات مع ناخبين ومسئولين ومراقبين، يمتدحون إجراءات هايلي سيلاسي الجديدة، ويمتدحون الديمقراطية والنزاهة.. وبكل لغات البلاد..

حسب الراديو، الإنتخابات تمضي بسلاسة من دون عنف، ولا شيئ يعكر صفوها إلا ما ذُكر من ملاحظات هنا وهناك من ضيوف الإذاعة ومراسليها حول بعض الخروقات الطفيفة والمشاجرات المتفرقة والمصاعب اللوجستية التي تواجه عمل اللجان في بعض المناطق النائية بسبب تزاحم الناخبين. وكانت سلطات الإحتلال قد سمحت بهذا الكلام لتبدو الانتخابات حيةً وحقيقية..

حنث الأستاذ بوعده للناظر محمد بشأن الانتخابات، وقد كان وعده بمساعدته في الأمور المتعلقة بسجلات الناخبين وتصنيفها حسب القبائل والعائلات والناخبين الأحياء والأموات. لكن لسبب لم يُعرف، أخلف وعده.

بعد مأساة الأحفاد وخروجهم عن المشهد برمته، سيفوز الناظر بهذه الانتخابات، خاصةً وأن الذي ترشّح ضده خالف رغبة السقّا، وأداءه كان باهتًا مقابل أداء الناظر وخبرته العتيدة المسنودة بالمنصب والمال.

وكانت الأنباء تتواتر عن اجتياحاتٍ عدة قامت بها قوات الاحتلال في المناطق التي تتحرك فيها فصائل الثوار، في الوقت نفسه تتناثر أخبار عن الخلافات بين قادة المناطق العسكرية والمجلس الأعلى للثورة، حتي قيل إن الثورة صارت قاب قوسين أو أدنى من الإنقسام، وأن فرقتين تمرّدتا وعلى وشك تكوين تنظيم جديد سينضم إليه الناقمون من سياسات قيادة الثورة، إذا استمر الوضع على حاله.

استغل الاحتلال هذه الانقسامات وبدأ هجومًا واسعًا على القرى والتجمّعات التي توفر ملاذاً للثوار أو تدعمهم. ولم يكن موضوع الانتخابات سوى تغطية لتلك المذابح الفظيعة.

كان سمرة يلملم الفناجين عن الطاولة. وقد فاجأ الأستاذ عندما سأله:

- لماذا لم ترشِّح نفسك يا أستاذ؟ والله إنك أولى من كل هؤلاء!

ضحك الأستاذ وقد فاجأه سمرة بأمرٍ لم يخطر بباله:

- مثلي لا يصلح لهذه الأدوار يا سمرة..

-أنت أفضل منهم جميعا، لكنك لا تعرف قدر نفسك!

أفرغ منفضة السجائر في أخرى كانت على الصينية التي يحملها ثم وضعها أمامه نظيفة:

-مكانك ليس هنا يا أستاذ، مكانك في العاصمة، أو في الجامعة، أو في الخارج، في أي مكان! هل من عاقلٍ يفعل ما تفعل؟

دهش الأستاذ لصراحة سمرة لكنه لم يقل شيئاً. فقد كانت أغنية عزيزة على قلبه تصدح وتذكّر الأستاذ بحبيبته التي يصبو للقاءها. هل يقول لسمرة إن العشق والفقر تآمرا عليه وجرّاه إلى هذا المصير البائس، وإنه ظل هائماً طوال حياته يلاحق الخيبات؟ سواء في النضال أم في العشق. هل يقول له ذلك؟ هل يقول له إنه معدم وأن آل عميراي لا يزوّجون بناتهم لمفلسٍ مثله؟ أم أن البوح بمثل هذه الأمور يقلل من هيبة الرجل في مثل هذا البلد، فهو ضعف لا يليق بالرجال؟ لذلك يؤثر الصمت والكتمان، ويتمسّك بآمال ضعيفة واهية.

كانت أغنية قديمة لمجنونٍ آخر مثله، أغنية من تراث «التيقرّي» الجميل تصدح في الراديو. أغنية تعود إلى عهد الإستعمار الإيطالي للبلاد، بصوت مطربٍ جديد لم يتعرف على صوته بعدُ، لكنه جميلٌ وعميق..

تحكي الأغنية عن علاقةٍ مستحيلة لشاعرٍ عشق جندية إيطالية، كانت تستعد للإبحار من ميناء مصوع على متن مركب حربي إلى طرابلس الليبية مع رهط من الجنود الإيطاليين إبان الحرب العالمية الثانية..

«أهلي مغتَصَبون، لكنهم شجعانٌ لا تخيفهم النار..

وأهلكِ غاصِبون، يشربون من دمائهم..

فليرحل جيشكم عن أرضنا..
ولتبقي أنتِ.
لكن مركبها سافر إلى «تريبولي»

وغادر المركب، مخلفًا وراءه موجًا كثيفًا ضجّ به الساحل العريض محتفلاً بوداع مستعمرٍ آخر، رغم أنف الشاعر المكلوم وأحلامه الضائعة..

«قد لا تدري، أنني أحبّها
وحيدٌ أنا من بعدها..
لن يلتقي دربي بدربها،
لكن مركبها
سافر إلى «تريبولي»

«العلاقة مع المستعمر حين تتحول إلى علاقة حب تبدو شاذة ويائسة أيضاً، لكن الإيطاليين ربما اختلفوا عن كل المستعمرين الذين مروا من هنا. تخيلتُ كثيراً أنهم كانوا لطفاء وطيبين، افتتنوا بجمال ومناخ هذا البلد وشعبه، وكانوا يخططون لأن يخلقوا فيه برجوازية إفريقية صغيرة بملامح أوروبية. صمموا العاصمة أسمرا وأحياءها لتصبح نسخة من روما، وربطوها بخطوطٍ للسكة الحديد بين مناطق الإنتاج وميناء مصوع، ثم بنوا صروحًا معمارية فريدة كمقرات الوزارات والبنوك والفنادق في العاصمة والمدن الكبرى، جادة فيا موسوليني، كازاديل فاشيو، دار الأوبرا، سينما امبيرو، تركوا لنا «روشان

ريبا» و«روشان فاسكوسي» لتجذب رؤوس الأموال والسياح إلى هذه الجوهرة الأفريقية السمراء، لكن جيوش الحلفاء بددت تلك الأحلام، كما فعلت مع ذلك الشاعر العاشق.

أن يكون المستعمر طيباً أو لطيفاً قد تبدو فكرة ساذجة في عمومها، لكن المهم أنهم خلفوا تراثاً رائعاً من الفن المعماري واللغوي والإنساني لا يزال الناس يذكرونه بشجنٍ رغم التقادم، إنها حتمية التأثير والتأثر، ربما..

كتب اسماعيل هذا بتأثير تلك الأغنية.

(3)

مرّ ما يقرب من نصف ساعة وهي صامتة، لم تقل شيئاً. كانت تتململ في جلستها بينما استغرق الأستاذ في تأمّل تفاصيلها، كمن يستعيد صلته بمكانٍ حميمٍ غاب عنه طويلاً. وبذلك الوهج الملائكي الذي يمور في وجهها مبددًا عتمة المكان وعتمة روحه..

- تبدين أجمل مما توقعت، هل كانت السنوات تمشي إلى الوراء؟

ضحكتْ، لكن ضحكتها بدت له محايدة، رغم أنه كان يحاول جاهدًا أن ينعش اللحظة. وظلت صامتة.

- لم أكن أود تأخير اللقاء بكِ كل هذا الوقت، لكن ظروف البلد كما تعلمين..

هزّت رأسها وهي تنظر في وجْهه نظرة فارغة..

- أعرف، أعرف..

بدت له أكثر امتلاءً، وأطول قدّاً، وحين رفعت جفنيها لتنظر

في وجهه طغى الحياد على وجهها أكثر، حتى نفحة العطر التي حملت في ثناياها بعض اللهفة وحفّزته للكلام راحت، فكيف يمدّ الجسر الآن؟

حسَبَ سنواتِ الغياب في ذهنه فوجدهن أربعة أعوام، ثم حسَبَ عمرها فوجده اثنين وعشرين عامًا، ودقق في ملامحها أكثر فخيل إليه أن جمالها قريب من جمال فاطمة، بل هي تشبهها أيضًا، فماذا كان يعيب فتاة بهذا الجمال إذن لتنتظر كل هذه السنوات؟ هل كانت تنتظر خروجه من السجن؟ أم أن مكوثها عند أخوالها في «مُصَوّع» غيّر نظرتها للأمور؟ في الحالتين هو محظوظ.

-كانت سنوات السجن طويلة بالنسبة لي، وكأني الآن أعيش حياة جديدة، كنتُ أفكر فيكِ طوال الوقت، وفي أختي عائشة. وأخاف عليكما، وأحمد الله أني وجدتكما تنتظراني كما تمنيت، كيف عِشتما؟ أقصد كيف عشتِ في غيابي؟

-الحمد لله، كما ترى..

ولم تزد على ذلك. انتظر قليلاً لعلها تحدِّثه عن شوقها له، لكنها لم تقل شيئًا. ظن أنه ارتباك اللحظات الأولى ولا بدّ أن هذا الجمود سيذوب مع ارتفاع حرارة الحديث..

-لا أخفيكِ، وأنا في السجن، خفتُ أن تجبَري على الزواج وأخرج فلا ألقاكِ. والله لو حصل ذلك لأصبحت الحياة هي السجن. السجن الذي أفضّل الموت ألف مرة من أن أعيشه..

نفخت وأطرقت إلى الأرض تطقطق أصابعها، وهو ينظر في عينيها نظرة متوسِّلة..

- أنت إنسان نبيل يا إسماعيل، ولا تستحقّ ما جرى لك..

قالت كلماتها بحيادٍ قاتل. ماذا يحدث؟ لماذا تحدثه كما لو كانت تتحدث إلى شخصٍ آخر. أين فوزية التي يعرف، المرحة، المعابثة، خفيفة الدم والروح. ليست هي التي أمامه الآن، وجهها القروي النقي كجدول الماء بدّلته حياة المدن بآخر كالقناع. شَعرها الغجريّ يبدو الآن مثل شَعر الدمية. جلستها العفوية، حديثها المرِح الذي يميّزها، صار في غورٍ عميق لا يخرج سلسًا كما كان. كأنها ليست حقيقة. تجلس أمامه كدمية ميتة لا روح فيها. نظر في عينيها ليتأكد، وجد فيهما نظرة ثابتة، باردة..

أحسّ بالضيق، وسمع صوت أنفاسه يتصاعد، ونبضات قلبه ترزم في جمجمته كما لو كان يصعد جبلًا. ما حسب أنه سيكون أجمل ما ينتظره أدرك أنه ليس كذلك. كان يغالب إحساسه بالخيبة، ويهرب من مواجهتها المحتومة بنظراتٍ تائهة في العتمة. تبدو فوزية عميقة أكثر مما تخيل، وشاهقة أيضًا..

- هل تلومينني على شيئ؟

رفعت رأسها ونظرت في عينيه بتركيز، ثم خفضت بصرها إلى الأرض. ترددت قليلاً ثم استجمعت أنفاسها في شهقة واحدة طويلة:

-الحياة التي تركتَها قبل سجنك لم تعد كما كانت يا إسماعيل، تغيرت وغيرت الناس معها!

-لم أفهم..

-لا أعرف كيف أشرح لك الأمر، لكن ينبغي أن تفكر في أحوالك بطريقة مختلفة، التدريس لا يناسب متطلبات الحياة التي نعيشها..

لقد بدأ الحصار، شعر بالضيق وهو ينتبه لأول مرة إلى أن وظيفته النبيلة -كما كانت تسمّيها، وكما ظل يعتبرها على الدوام قيمة حياته- صارت شيئًا غير مرغوب الآن، وتعتبر مهنة غير قادرة على تلبية متطلبات الحياة. بل إنها الآن بلا قيمة. شعر بالأسى.

- أنا لا أحسن غير التدريس يا فوزية، وإذا كان لا بدّ من التغيير فلتتغير الحياة لتنسجم مع ما أحسنه!

كانت تنظر حولها بملل، وكأنها كانت تفضل لو لم تكن في هذا الموقف. الظلام يتكثّف في الخارج، والمصباح اليتيم يكاد زيته ينفد، والدنيا معجونة بالفوضى منذ منتصف النهار بسبب المطر، وصديقه عمر يتحرك بقلق بين باب الغرفة والشارع، ويخشى أن يدخل أحدهم فجأة ويتسرَّب الخبر، وشقيقته التي رتبت لهذه المقابلة المسروقة تُعدّ لهما قهوة. كل شيئ حولهما ينتظر الخاتمة السعيدة. حتى عجايب تحتاج لذلك. وهما في هذه الفوضى مثل نجمين تائهين في فضاء غريب..

وبين الصمت والعتمة دخلت شقيقة عمر تحمل إبريق القهوة وإلى جواره الفناجين الصغيرة البيضاء، تسبقها رائحة البخور. وضعت كل ذلك على الطاولة ثم جاءت بمقعد صغير لكي تسقيهما الأنخاب في صحة هذا اللقاء.

أشعل الأستاذ سيجارة ونفث دخانها نحو سقف الغرفة، ثم تابعه على ضوء المصباح وهو يَصْعَد دوائر دوائر إلى الأعلى. وضعت له شقيقة عمر فنجان القهوة أمامه، رشف منه قليلاً ثم أعاده إلى مكانه من دون أن ينطق بشيئ، وكانت فوزية صامتة أيضًا..

نظرت شقيقة عمر إليهما وشعرت بالحرج، فاستأذنت وتركتهما بعد أن طلبت من فوزية أن تواصل صب القهوة متعللة بشأنٍ آخر تقوم

به في البيت. استمرّالصمت. أشعل الأستاذ سيجارة أخرى ثم قرر أن يحسم الأمر..

-أنا كما أنا يا فوزية لم أتغير، وأحببتك كما أنت أيضًا ولم أطلب منك أن تكوني غير ذلك، لن أتغير لمجرد أن أحدًا قال لي إن الحياة تتغير. الناس كعهدهم ما زالوا يزرعون ويرعون ويتعلمون ويتاجرون ولم يتغير شيئ. لم أفق اليوم من نومي لأجد عجايب وقد أصبحت مدينةً كبيرة أو عاصمة، كُلُّ شيئ كما تركته ليلة أمس. أظن أنكِ مَنْ تغيّر، أو مَن يود التغيير، لا الحياة يا فوزية، فلا تحمّلي الأشياء ما لا تحتمل..

صعد الدم إلى وجهها، وبدت الصدمة في عينيها أكثر وضوحًا، والقلق يُرعش كل خلجة فيها من دون أن تتمكن من السيطرة على انفعالها. ما اعتقدت أنه سيصل إليه اسماعيل بعد أسابيع أو أشهر من الحوار المخاتل، وضعه فجأةً بين يديها فأربكها..

-لماذا تفكر في الأمور بهذه الطريقة الحادة، لم أقصد ما ذهبت إليه، بل أقصد أنه ينبغي أن يكون لديك الاستعداد والطموح. أنت تعمل في التدريس منذ أكثر من عشرة أعوام، وراتبك لا يكفي لبناء أسرة وأولاد. لا أطلب منك أن تترك عملك لكن فكر في بدائل أخرى إلى جانب التعليم، تجارة، زراعة، أو أي شيئ آخر، كما يفعل زملاؤك المدرّسون، أنظر حولك يا إسماعيل تفهم ما أقول..

ضحك الأستاذ. وكان ينظر إلى إحتقان وجهها وقد ازداد. سحب نفَسًا من السيجارة نفخه بعيدًا عن وجهها، ثم التفت ليواجهها..

-لنفترض أنني فعلت، كم يلزمني حتى أغير ظروف حياتي وكم يلزمك من الصبر حتى ترضين؟ هذا إذا كانت الحياة تتغير بتلك الطريقة المضحكة؟

ثم حاول أن يخفف من نبرة السخرية في حديثه، وأن يخفف الضغط عليها وقد أدرك صعوبة الموقف.

-فوزية، لن أرهقك بأشياء لستِ مستعدة لتفهّمها، وَلَكِ أن تختاري الآن ما يناسبك.

حلّ الصمت مرة أخرى. وبعد دقائق دخلت شقيقة عمر

-سامحاني، خالتكِ عندنا الآن يا فوزية ولا بد أن تنصرفي حالاً!

ذهبت لتتأكد من خلوّ الطريق ثم عادت إليهما عجلى..

-ستخرج فوزية معي الآن، أما أنت فانتظر ريثما نبتعد مسافة كافية وسيساعدك عمر في تدبير خروجك، هيا..

لقد كسرت شقيقة عمر طوق الحصار عن فوزية. فوزية التي تعرف أن الأستاذ ليس من النوع الذي يضع قدمه على طريقٍ مجهولة. كانت تود أن يختار هو لا هي، لكنه علّق الخيار في رقبتها بمهارة، ومضت مثقلة به. نظر إليها بأسىً وهي تجتاز الباب لتغيب في العتمة، ثم زفر بضجر..

(4)

كان محمود يبكي بكاءً مرًّا، واحتشد الناس في المشفى الصغير، بين ردهاته وفي فنائه وتحت الأشجار.. ماتت أم محمود بعد حربٍ طويلةٍ مع الموت، قاومته كثيرًا لكنه هزمها هذه المرة، وحين ينتصر الموت فإنه ينتصر مرةً واحدة..

حزنٌ آخر، لم يكن بمقدور عجايب أن تتفاداه أو تتجاهله. وقفت عجايب بقضّها وقضيضها عصر ذلك اليوم أمام المشفى وداخل أسوارها.

خرج الجثمان وخرج الجميع في إثره. اختفت فجأة كل الأعلام الحزبية والطائفية التي كانت ترفرف بين أيدي هؤلاء وأولئك لأيام لمناسبة الإنتخابات. وجومٌ لفّ عجايب كلها طيلة ذلك الصباح حتى فرغ المشيعون من الصلاة على جثمان أم محمود ومواراته الثرى مع غروب الشمس، ثم عاد الموكب أدراجه نحو الساحة مع حلول الظلام، ونصبت خيمة العزاء مقابل خيمة الناظر المرشّح.

كانت عجايب موزّعة بين المأتم والانتخابات فكان المعزّون يأتون ويذهبون بسرعة عدا أصدقاء محمود وقسم من الأحفاد الذين اعتبروا أن هذه الانتخابات لا تعنيهم.

نودي لصلاة العشاء واصطف الجميع في الساحة أمام دار الناظر بعد أن تركوا المسجد لإقامة العزاء ووفادة الضيوف. صفوفٌ متراصة ابتلع الظلام نهاياتها وأطرافها، لكن ما أن انتصفت الصلاة، حتى لاحت أضواء سياراتٍ في البعيد، تقترب رويدًا رويدًا، يسبقها زمير أبواقها المحتفلة..

وصل الموكب، وما إن رأى الصلاة قائمة حتى هدأ ريثما تنقضي، واضطرب الشيخ أحمد وهو يصلي بالناس.. وما إن انتهت الصلاة حتى أحاط المصلّون بالسيارات، التي انطلقت أبواقها تعوِي من جديد، وصفّق الجميع ونقرت الطبول، باستحياء في بادئ الأمر، ثم تصاعدت ضرباتها وضجّت في المكان حتى خلع الرجال عمائمهم وأحذيتهم ورقصوا قفزاً في الهواء وضرباً للأرض بالأرجل الحافية، وانطلقت الزغاريد من خلف الأسوار حادة متصلة، وكأن ما من مأتم في البلدة.

فاز الناظر محمد، وأقبل الجميع يعانقونه ويهنئونه، واقترب منه الأستاذ بعد أن خفّ المهنئون من حوله..

لم يكن السقّا قد عاد من غيبته الغامضة، فكان الغائب الكبير منذ موت فاطمة. غادر عجايب بعد دفن فاطمة من دون أن يُعلِم أحداً فشاع أنه هجر البلد وتركها إلى غير رجعة، وقيل إنه غاضب وإنه مهزوم مأزوم، وأشاع الأوتاد أنه مدينٌ للمأمور بدينٍ عظيم لا يمكنه الوفاء به. لم يكن الأستاذ قد صدّق أيًا من تلك الروايات، وكان يشعر أن وراء هذه الغيبة قصة أخرى ستشغل البلد ولاشك..

***

خلف تلك الصورة كانت الثورة تبذل محاولتها الأخيرة لتوحيد قواها، إذ اجتمع ما يقرب من ألف عضوٍ فيها من كبار القادة وقادة المناطق والكتائب والسرايا في منطقة «أدوبْحا» من أجل انتخاب قيادةٍ جديدة وتحديد صلاحياتها وتقويم تجربة تقسيم البلاد إلى مناطق عسكريّة -أسوة بالثورة الجزائرية التي حققت انتصارها الكبير قبل أعوامٍ قليلة- ومن أجل مناقشة اقتراح خلط جيوش كافة المناطق لتذويب الفوارق الجهوية التي كادت تعصف بالثورة وما حققته من قفزاتٍ كبيرة في سنوات قليلة، في مسعىً لاستعادة المبادرة ومواجهة قوات الكوماندوس التي تحرق القرى.

***

الأستاذ رأى محمود ينسلّ من بين الجموع والحزن العميق بادٍ على تصرّفاته، فقرر أن يلحق به. كان الليل قد أرخى سدوله، ومحمود

يسير بسرعة عبر الأزقة الخالية من المارة إلى أن بلغ طرف البلدة، وبردَ الهواء القادم من بطن الصحراء، واتسع الأفق المرصّع بالنجوم. كان شبح محمود يصعد ويهبط حتى بَلغ المقبرة. أدرك الأستاذ هدف الزيارة فوقف غير بعيد يرقبه..

توقف محمود لبعض الوقت ثم مشى في ممرات تتلوّى بين القبور المتناثرة، كأنه يبحث في العتمة عن سرٍ من الأسرار. كان يتلفّتُ هنا وهناك حتى بلغ قبر أمه. وقف على رأس القبر وأطلق نشيجه المتقطع الذي يفطر القلب. تركه اسماعيل ريثما يُفرغ طاقة البكاء التي حبسها طوال اليوم صبرًا أو حياءً.

«محمود طالعه سيئ. لقد عاد في الوقت الذي هجر فيه الدفء عجايب. الأماكن مثلنا تماماً، تفرح، وتحزن، وتكتئب، ثمة أشياء لا تعوَّض إذا فارقت الأمكنة، تنزع عنها سَمْتها وتتركها عارية، مثلما تفقد الأبدانُ أرواحها ثم لا يبقى منها إلا ما يطمره التراب!».

غادر قبر أمه إلى قبر فاطمة وبينهما بدا أن روحه المقرورة انقسمت وتشظّت، فما الذي يمكنه أن يعيد الدفء إلى روحه المعذبة؟

رَآه اسماعيل يجلس على رأس قبر فاطمة، ثم راح يكلّمها:

«سامحيني يا فاطمة، أنا الغافل الذي ظنّ أن حياته شيئ عظيم، وتصرّفت بغرور حتى خسرتكِ، فخسرت الحياة. أترين كيف يلاحقني الموت ولا يقتلني؟أماتتني الحياة يا فاطمة وهي تتمسك بي، هل رأيتِ عذابًا أسوأ من هذا؟ أنتِ عشتِ مرةً ومِتِّ مرة، كما يعيش الناس ويموتون، وهأنا أعيش وأموت في اليوم الواحد مراتٍ عدة. من أنا يا فاطمة؟ حقيقة أم وهم؟ حيٌّ أم ميت؟»

(5)

كما لو أن بحرًا أو نهرًا انحسر فجأةً وترك قعره دون غطاء، انكشفت الأشياء فجأة، بدت على حقيقتها، واضحة، وقاسية، مثلما كان حالها طوال الأسابيع التي تلت موت فاطمة..

استيقظت عجايب على هدير موكب من العربات والجِمال والحمير دخلت إليها فجأة مع طلوع الشمس كما يدخل الفاتحون، كأنهم كانوا يختبئون خلف الجبل وينتظرون طلوع الصباح. حَسِب الناس في أول الأمر أنهم نازحون فارون من تلك الحرائق التي كانت تشتعل في أكثر من مكانٍ حولهم، إذ كان طريق القوافل -الذي يمرّ أعلى عجايب في ناحية الصحراء، ثم ينتهي إلى الحدود السودانية- لا يخلو من نازحين طوال الأسابيع الماضية، فاللاجئون من الموت يسلكونه أفواجًا أفواجا..

حملات الانتقام التي بدأت منذ عامين في قرية «عَدْ أبْرِهيم» بلغت ذروتها الآن، الآلاف من قوات الكوماندوز والباندا لا تزال تقتل وتحرق دون وازع أو رقيب. أبيد الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وأحرقت البيوت وبُقرت بطون النساء الحوامل وألقى القتلة بالأطفال في النيران المشتعلة أما من تمكن من النجاة فقد خرج تحت زخّات الرصاص فسقط من سقط ونجا من نجا، وحزم الآلاف ركابهم باتجاه السودان..

حين رأت عجايب غبار الموكب ظنت أنها موجة من تلك الموجات المتتالية قررت أن تحط رحالها بينهم، حتى إذا انقشعت العتمة سمعوا هتاف النصر. سمعوا وقع الطبول الآنّة كأصوات الرعود، والزغاريد المتصلة في الفضاء بلا توقف، تشقّ الفضاء، فخرجت عجايب في استقبالهم، حائرةً مندهشة، ماذا جرى فجأة؟

في الساحة الكبرى ظهر فرج السّقا أمام خلق الله. خرج واثقاً ينظر إلى الناس، وكأنما ينظر إليهم من علٍ. يلبس قفطانًا مخمليًا أحمر -هو القفطان الذي رآه الأستاذ في غرفته- مطرزٌ في ياقته وأكمامه بخيوطٍ مذهبةٍ لامعة، كأنها أفاعي صغيرة تتشابك ثم تفترق، ويجر خلفه طرفاً منه مثل ذيل الطاؤوس وكأنما يمحو به أثراً عميقاً أبعد في الزمان والمكان من خطواته القليلة التي مشاها نحو منصة التتويج..

عندما رآه الأستاذ خُيل إليه أنه يرى قُمبوس، يقدّمه التاريخ إلى الحاضر بعد ألف عام. نعم إنه هو، السقّا سليل الملوك السقّائيين، المظفّرين من دون سيوفٍ أو دماء. لقد استعاد اليوم مجد أجداده الغابر، أصبح منذ الآن ناظرًا، وأصبح الأحفاد بعد صبرٍ قبيلة أو شعبًا. وأصبحت عجايب في حالٍ أخرى..

- اليوم تحقق الحلم، اليوم صدقت النبوءة!

يصرخ أحدهم في قلب الساحة، فتهدر الجموع خلفه بالهتاف، تحت غابةٍ من سيوفٍ وعصيٍّ وبنادق ترتفع وتهتزّ مع كل هتاف، وحراس الكنز يحيطون بكبيرهم فرحين مثل أطفالٍ في يوم عيد! - هل تراودهم فكرة أن موت أختهم، كنزهم، لم يذهب هدرًا؟.

الأحفاد جاؤوا إلى عجايب، في تلك اللحظة المصيرية. جاءوا من كل فجّ. من أقاليم إرتريا وقراها وصحرائها. بعضهم يبكي فرحًا، وبعضهم يغني، وبعضهم يرقص، وبعضهم يمدح، وبعضهم يصلي.. كانت الدنيا كلها أحفاد في تلك الساعة، إلا محمود، كأنه ليس منهم..

بحث الأستاذ عن سدنة عجايب في المكان ولم يجد أيًا منهم، لا في الساحة ولا السوق، ولا حتى في المسجد. هل تبخروا؟ هل

تركوا عجايب أو أغلقوا عليهم دورهم؟ أو دخلوا دار أبي سفيان؟ الله أعلم، لكن السقّا فتح عجايب وهَدم أصنامها..

وفى المأمور بوعده لهم رغم خسارته للثمن. وافق الإحتلال على أن يمنح الأحفاد نظارة لهم تستقلّ بها شؤونهم، وكأنه، «مثلها تمامًا»، جاء ليؤدي مهمة مقدسة ويمضي.

لقد انتظروا نبوءة عمرها ألف عام، كانت خلالها سرًا عظيمًا انطوت عليه نفوسهم التوّاقة وأجسادهم المنهكة. كان الأستاذ يتأمل بدهشة، وزادت دهشته عندما لمح بين الجموع العرّاف الصغير، مرجان، ابن العرّف الكبير، جابر، وأكثر الرجال غموضًا. قفزت إلى ذهنه تلك النبوءة الغامضة التي أودعها العراف جابر صدور الناس ومضى.

ها هي النبوءة تتحقق، لابد أن للعرافين سرًا ما. وليسوا كما اعتقد دائمًا، دَجّالون مخادعون. لقد تنبأ جابر ببعض ما جرى قبل أربعين أو خمسين عامًا، وها هي نبوءته تصدق؟

قرّر أن يلتقي به عساه يفكّ غموض بعض الشكوك التي ساورته بعد غيبة السقّا ثمّ عودته المظفّرة على هذا النحو الغامض. اندسّ بين الجموع حتى وجد نفسه أمام الرجل تمامًا، وجهًا لوجه.

حيّاه، فردّ الرجل على التحيّة بانحناءة وابتسامة، وهو ما شجّع الأستاذ على التقدّم، فبادره بالسؤال:

-أراك لأوّل مرّة في احتفالات القرية. وتبدو مبتهجًا بنصر الأحفاد!

ضحك العَرّاف بخبث..

- أعرف أنك شغوفٌ بهذه الحكاية، وأظن أنك توّاق لتعرف حقيقتها وتسجّلها في ما تسجّله عن أيام عجايب وأحداثها.

قال العَرّاف الصغير مرجان إبن العراف الكبير جابر سارداي ذلك وهو يقف في وجهه وكأنما أرسل في مهمة وليس وراءه غيرها. وهذا ما زاد من دهشة الأستاذ. فقال بنبرة تعجّب:

- وهل للحكاية بقية؟

ضحك مرجان بثقة، واقترب حتى وضع وجهه في وجه الأستاذ:

-أهم ما فيها لم يُروَ بعد.

كان اسماعيل يمشي خلفه مثل طفلٍ مسلوب الإرادة. عبرا شوارع وأزقة القرية التي تغصّ بالمحتفلين. حتى وصلا إلى بيته، أو بالأحرى قلعته تلك التي تقوم فوق المرتفع مثل سفينة مهجورة. كان الأستاذ خائفًا، مرتبكًا. ربما هي المرة الأولى التي يدخل فيها رجل من عجايب هذا البيت هكذا، في وضح النهار..

باب البيت لا يفتح على حوش كبيوت أهل البلد، وإنما يفتح على صالة ضخمة خاوية فيها أبواب كثيرة متقابلة كأبواب زنازين السجن. في آخر الممر باب أحمر ضخم، عبراه بحذر إلى حوش واسع تقوم على أطرافه غرف كثيرة سقوفها عالية. وفي وسط الحوش تمامًا غرفة كبيرة من طابقين على بابها قفل كبير..

أخرج مرجان من جيبه مفتاحاً فتح به القفل، ثم سحب مزلاجًا ضخمًا، ودخلا. كانت غرفة مظلمة، حوائطها مغطاة بستائر سوداء ويتوسطها صندوق أسود ضخم. تفوح في المكان رائحة جلدٍ مدبوغ، أو رائحة جريدٍ مبتل. شعر بالرعب، وبلغت روحه حلقه من شدة الغثيان. ثم قال:

- أعرف أن الجو مزعج لك

ثم أشعل مصباحًا كان في ركن الغرفة، فاتسعت قليلاً. ليس في الغرفة أي نوافذ. وفي ركنٍ منها سلم صغير يقود إلى الأعلى..

ما ظنه الأستاذ صندوقًا، كان قبرًا عملاقاً يملأ المسافة من الحائط إلى الحائط المقابل، مغطىً بقماش أسود ناعم الملمس سميك كالقطيفة. سحب مرجان طرفًا منه برفق ثم أخرج مجلّدًا ضخمًا من تحته ودعاه للصعود إلى الأعلى..

كانت غرفة واسعة، فيها نافذة واحدة كبيرة. في الغرفة ثلاث مباخر ضخمة ومصلاة من الفرو ومسبحة كبيرة حباتها في حجم حبات التمر، وعلى ركنٍ منها كتب صفراء قديمة، كان بعضها مفتوحًا وليس فيه سوى رموز وطلاسم غامضة كتلك التي رآها في غرفة السقّا..

ما إن دخل الأستاذ الغرفة حتى جرى نحو النافذة يعبُّ هواءً نقيًا يطرد تلك الرائحة التي ملأت رئتيه. مضت دقائق حتى التقط أنفاسه. ومن النافذة انبسطت البلد تمامًا تحت ناظريه، وكانت الإحتفالات عامرة في الساحة الكبرى..

اقترب منه مرجان، وفتح صفحة في ذلك الكتاب برموزه العجيبة. لم يفهم الأستاذ شيئاً، كتابات متداخلة بحروفٍ غير منقطة، مفردة في مواضع ومجموعة في مواضع أخرى. نجوم وأرقام وأشكال ورموز غريبة

ظلّ صامتًا وعلى وجهه تساؤل.

- جدتنا الكبرى، كان إسمها ريحانة، كانت عرّافة أحد الملوك في زمنٍ غابر. كان عرشه في منطقة قريبة من هنا، في منطقة «نوريت». جاءته بنبوءة عجيبة كادت تدفع حياتها ثمنًا لها:

«ستُقتلون على يد جيشٍ جرارٍ يأتيكم من أرض الحبشة، يُقوِّض سلطانُكم، ويُستعبَد أحفادُكم من بعدكم ألف عام، حتى يلدوا جوهرتين، إحداهما أمَةٍ والأخرى من سادتهم. الأولى تموت والأخرى تأتي من أرض بعيدة. سيخلصهم سلطان عادل، ويجتمعون من كل مكانٍ في وادي العجائب والذهب»

تشاءم الملك منها، ولم يقتلها خوفًا من اللعنة، ثم أمر بنفيها. وظلت هائمة في هذه الصحراء إلى أن مات الملك، ثم دفنت هنا في ذلك القبر الذي رأيته في الأسفل، وأما مكانه فقد كان سرًا توارثناه في عائلتنا ولا يعلم أحدٌ به حتى اليوم..

نظر من جديد إلى الكتاب بين يديه، قلّب صفحاتٍ منه أمام الأستاذ الذي كان ينظر وحسب..

- هذا الكتاب، سرقه كاهنٌ كان يأخذ العرافة عن جدّةٍ أخرى لنا كانت كفيفة، ثم هرب به إلى ناحية سنار في أرض السودان. وتتبعه جدودي واضطروا للعيش هناك ردحًا من الزمن، ولم يتمكن من استعادته إلا جدّي لأبي الذي كان مشهورًا بإسم سارداي، وعاد به إلى هنا قبل ما يقرب من مائة عام. وبنى هذه القلعة فوق قبر جدته ريحانة، لتبقى الأسرار جميعها في مأمن، ونتوارثها من دون أن يطّلع عليها أحد..

- هل أنتم من الأحفاد؟

ضحك..

- لا يوجد شيئ إسمه الأحفاد بالمعنى الذي تتوهّمه. وكل أولئك الذين تراهم يحتفلون ليسوا سوى شعثٍ متفرِّق جمعه السقّا من كل مكان، ولا رابط بينه وبين أسطورة الأحفاد سوى عذاباتهم ورغبتهم في الحرية. الأحفاد الحقيقيون قليلون، نحن

-عائلة ساردا‌ي- وآل العجوز بخيت وآل همّد -أهل فاطمة- وقلة قليلة تعَدّ على أصابع اليد بقيت من نسل ذلك الملك الذي حدّثتك عنه قبل قليل. حتى صديقك محمود وأهله ليسوا من الأحفاد. أما فرج السقّا فلا يعلم أحدٌ من أين جاء أسلافه، لكنه رجل ذكيٌّ ومُلهَم، أدرك أن ما يوحّد الناس هو رابط الدم، ولأنه يقرأ كثيرًا نبش أسطورة الأحفاد واختلق قصة جده قُمبوس وبقية الحكاية التي تعرف!

أطرق الأستاذ مذهولاً ثم ذهب إلى النافذة يتأمل الأحفاد المحتفلين في الساحة، وتذكر كل ما جرى في عجايب خلال السنوات الماضية. تذكر الصراع المحتدم بينهم وبين أهله الأوتاد. ذلك الصراع الذي كاد يصل إلى الحرب والموت. تذكر حكايات الألم وعذابات الأجيال التي كان يرويها السقّا كلما وجد فرصة لذلك! كل ذلك ليس حقيقة! وكل هؤلاء مغرَّر بهم؟ لابد أن هذا الرجل يهذي. نظر إليه نظرات متشككة، وقد بلغت به الحيرة مبلغًا عظيمًا..

-وماذا يريد السقّا من كل ذلك؟

ابتسم مرجان ابتسامة ماكرة:

-بعد موت شقيقيه أصابه بالأسى وصار يبحث عن طريقة لتحرير الجميع، ثم إنه طموحٌ ويطلب المجد ولا ملامة في ذلك..

-ولماذا لُذتَ بالصمت طوال تلك السنين طالما أنك الوحيد الذي يعرف الحقيقة؟

- لا أكذبك، إذا سارت الأمور كما هو مخطط لها، لعلي أتمكن مع السقّا من بناء منظومةٍ جديدة، ثم تدين لنا هذه الصحراء بمن فيها،

فالسقّا لن يستطيع فعل كل ذلك بمفرده ولن يرفض أدوارًا للآخرين. كل شيئ بأوانه يا أستاذ..

أطرق الأستاذ قليلاً وهو يقلّب الأمر في رأسه..

-وكيف تضمن أن السقّا لن يفعل ذلك من دونك؟

-السقا زعيم صاعد ويحتاج إلى حلفاء أقوياء. كما أنه يحتاج إلى المال، من دونه ما كان يصل. هل تظن أن هؤلاء الفقراء جاءوا عبثاً أو محبّة به؟ تعال لترى بنفسك..

وقاده من جديد إلى الأسفل، إلى الغرفة القبر، وذهب إلى ركنٍ فيها، حيث كانت أكياس كبيرة، مليئة بالنقود والذهب..

- ما رأيت في السابق صنعته هذه الأكياس التي ترى، الألم وحده لا يصنع الخلاص، والحق وحده لا يصنع التاريخ. من دون المال لا يمكن تحقيق نصر يا أستاذ.

ثم ضحك بثقة وهو يشير بسبابته وإبهامه إشارة النقود. وصمت الأستاذ متأمّلًا. كان الشريط كله يدور في ذهنه- ذلك الرجل الصالح، ذلك المُهاب الذي لا تخطئُ مهابته عين، ذلك المؤدَّب المخلص، ذلك الذي دوَّخ الأوتاد والحكومة والزعماء والأعيان. هل يمكن أن يكون مثلما يقول هذا العرّاف؟ هل كل ما جرى كذبة كبرى؟

-أتعلمون أنكم قتلتم فاطمة بتخاريفكم هذه؟

قال الأستاذ كلماته غاضبًا..

-لا تقل مثل هذا الكلام، فاطمة هدية السماء بعثتها إلينا ثم أخذتها، كانت بنتاً صالحة.

-لا يا مرجان، فاطمة ضحية لكل هذا العبث، ومحمود كذلك، بل وكل عجايب، أنتم تلعبون بالنار..

ضحك مرجان بتهكم..

-دعك من كل هذا الآن، سيأتي وقته، ثمة أمر آخر أود أن أقوله لك.

كانت الذكريات تتداعى في ذهن الأستاذ، وينظر إلى مرجان منتظرًا بقية المفاجآت.

-الجوهرة الأخرى كما تقول نبوءة جدتي..

ظلّ الأستاذ صامتًا.

-ألا تود أن تعرف من هي؟

-هيّا، ها أنا أسمعك..

-وتعدني أن تتصرّف بتعقّل. فأنا، والسقّا أيضًا، نقدّرك.

-أعدك..

-مهما كان الأمر صعبًا؟

-هل تخيفني؟ ثم إنك أن كنت لا تثق بي فدعني أنصرف.

أحسّ العَرّاف بغضب اسماعيل، فقال:

-إنها فوزية!

نظر اسماعيل إلى العَرّاف:

-ما شأنها هي الأخرى؟

استدار مرجان ناحية القبر، شد القطيفة فوقه بلطف، ونفض عنها الغبار بيده ونظر ناحية الأستاذ:

-فوزية هي الأخت الكبرى لفاطمة، لا تستغرب، هذا سر لا يعلمه إلا قليل من عواجيزنا، سمع البعض النصف الأول من النبوءة

ولا يعرفون نصفها الآخر، أبوهما همّد، كان عاملاً عند آل عميراي كما تعرف، وكان وسيمًا وجذّابًا، فشغفت به نجاة شقيقة أحمد عميراي -أم فوزية- ورفضت أن تتزوج غيره، وهو أحبّها، أو ربما طمح لتغيير مكانته.. فسارع أبوها الى تزويجها من إبن عمها قسرًا لينهي الأمر من دون فضائح أو ضوضاء، لكنها اختلت به بعد ذلك وحبلت منه بفوزية. أم فاطمة تظن أن جدة فوزية صنعت لزوجها همد سحرًا وقتلته به ولا تزال تمقتها رغم أنها بريئة من كل ما جرى، كما أن بعض آل عميراي يعرفون هذا الأمر وينكرون نسبها. ألم تلاحظ شبهها بفاطمة؟

شعر الأستاذ بالدوار، وبالمكان يدور بهِ، ورائحة الجلد المدبوغ عبرت من أنفه إلى بطنه، فقال بصوتٍ واهن..

- لا أصدّق ما أسمع..

-بل صدِّق، وأنا أطلب منك شيئاً آخر.

نظر الأستاذ وفي وجهه السؤال.

-أنت، سواء قبلت ذلك أم لم تقبله، صديقي، وأطلب منك بحق هذه الصداقة أن تنسى أمر فوزية!، الناظر محمد قرّر أن يستعيض بها عن فاطمة، وآل عميراي فرحون بذلك، فهكذا يمكنهم أن يستعيدوا ودّهم القديم معه بعد مقتل زيدان وحادثة المصنع، كما أن البنت تريد المال والسطوة، وقد عرفت مكانهما..

شعر الأستاذ بدمه يصعد إلى رأسه ويجمد، وبجسده يبرد وبضربات قلبه تتباطأ وأطرافه تتيبس، وبدا له مرجان مثل جني يضحك، والقبر العملاق يتأرجح مثل سفينةٍ وسط أمواجٍ عاتية، وطيف ابتسامة خبيثة كريهة ترتسم على وجه مرجان الأسود الضخم وهو يراه في كل اتجاه يدور فِيه، حتى سقط مغشيًا عليه..

(6)

استيقظ الأستاذ على صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، بدا الصوت نديًا رخيمًا يلامس شغاف القلب وكأنّ الأستاذ يسمعه للمرة الأولى. أيام طويلة -بعد تلك الصدمة- لم يخرج من غرفته. ينام نومًا هشًا، قلقًا. نهض بتثاقل، توضّأ، وتوجّه نحو المسجد..

كان هواء الفجر جافًا باردًا يلفح الوجه، لا بل يلسعه، يداه خلف ظهره وخطواته قصيرة متسارعة، كانت تباشير الشتاء قد بدأت، وعجايب ساكنة خافتة. كان المسجد مكتظًا، يطوف فيه الدرويش سَريراي بمجمر بخور ضخمٍ، كما لو أنه يهيؤه لاحتفالٍ لا لصلاة. وما إن فرغوا منها حتى قام الشيخ أحمد، وقف في الوسط وراح ينشد توشيحة صوفية طويلة، نُقرت بعدها الطبول..

والخلقُ جميعاً في يده ،، فذوُو سَعةٍ وذَوُو حَرَجِ..
ونزولُهمُ وطلوعُهمُ ،، فإلى دَركٍ وعلى دَرَجِ..
ومعايشُهمْ وعواقبُهمْ ،، ليست في المشي على عِوَجِ..
حِكَمٌ نُسجتْ بيدٍ حَكَمَتْ، ثم انتسجت بالمنتسَجِ..
فإذا اقتصدتْ وإذا انعرجتْ ،، فبمقتصَدٍ وبمنعرَجِ..
شهدتْ بعجائبِها حججٌ ،، قامت بالأمرِ على الحُجَجِ..
ياربِّ بهمْ ،، وبآلِهمِ،، عَجّلْ بالنصرِ وبالفرَجِ..

لعلها كانت حضرة وداع، لملموا أطرافها سريعًا ثم استعادوا أثقالهم، كما يضع الخارجُ من الماء ملابسه على جسده. الناظر محمد في جِلْبابه الفضفاض الناصع وجبّته السوداء الكبيرة، وساعته الذهبية

الجديدة وعطره الصندلي الصاخب، كان جالسًا كما لو يجلس في مقعده المنتظر بالبرلمان. ماذا سيفعل هناك؟ ماذا سيقول؟ إذا كان هُنا الرجل الأول فإنه هناك ليس كذلك. هناك ليس مثل هنا. هناك زعماء وسياسيون ومثقفون دهاة وأصحاب خبرات وتجارب. كيف سيجد موقعه بينهم؟ كان مطرقاً ويده الضخمة تعتصر شفته السفلى في شرود..

فرج السقّا كان موجودًا أيضًا، يلبس عباءةٍ فضفاضة وعمامة بيضاء ناصعة. وكان هو الآخر ساهمًا شاردًا، مثل الناظر تمامًا. كان الأستاذ ينظر إليه وتطنّ في رأسه كلمات العرّاف مرجان. شعر بنظرات عينيه من تحت حاجبيه الكثين خبيثة، انتهازية. شعر بكراهيةٍ قوية نحو الرجل وأحسّ بغليان في داخله. التقت نظرته بنظرة السقّا، فابتسم السقّا في وجهه ابتسامته الرائقة اللطيفة، فعاوده الشك في ما قاله العرّاف، واضطربت أفكاره، فقرر أن يخرج

خرج اسماعيل فيما كانت تجتمع غالبية المصلّين حول الناظر والسقا. فقد كان شاع في البلد أن الناظر سيتوجّه إلى أسمرا عند الصباح، ومن هناك تنقله الطائرة إلى أديس أبابا. إلى البرلمان الكبير. الكل واقف ينتظر دوره للوداع والتحية. الناظر والسقّا يقفان عند عتبة المسجد، تجاهلهما وخرج متخذًا طريقه نحو البيت.

قرر اسماعيل أن يطوي هذه الصفحة ويغسل روحه من كل ما علق بها من غبار المعارك الصغيرة والكبيرة التي شهدتها عجايب طوال عامٍ أو يزيد. قرر أن يتفرغ للكتابة، وأن يجمع تدويناته، ثم يضيف إليها ما قاله العرّاف. ينقله على لسانه، ما شكَّ فيه وما لم يشكّ. قرّر أن ينتهي من تلك المرحلة ليتفرّغ لكتابة ما تكنّه النفس حيال بعض الأمور والأحداث. يريد أن يكتب عن حياة تمنّاها ولم يعِشها.

مرّت سيارة الناظر إلى جواره، كانت سيارة «فيات ١٢٤» جديدة لم ترَ عجايب مثلها. عبرته السيارة ثم توقفت فجأةً على بعد أمتارٍ قليلة، ما إن اقترب حتى أخرج الناظر رأسه من النافذة يود أن يكلّمه. ولدهشته رأى فرج السقّا جالسًا إلى جوار الناظر وقد بدا مرتاحًا كما يجلس صديق إلى جوار صديقه. نظر السقّا إلى الأستاذ نظرةً مرتبكة ثم ابتعد بناظريه وشدّ بيديه على عصاه القائمة بين فخذيه تعصران بعضهما عصرًا. ابتسم الناظر ابتسامة خبيثة:

زواجي من فوزية في أول يوم جمعة بعد عيد الفطر المقبل، وأنت مدعوّ منذ الآن..

- إن شاء الله سعادة النائب.

- الأمور لا تجري دائمًا كما نشتهي، إرادة الله غالبة..

بدا كمن يعتذر، وتظاهر الأستاذ بقبول اعتذاره الغامض ومضى. لكن أكثر ما شغل تفكير الأستاذ وهو في طريقه إلى بيته، ذلك الوضع الذي رأى عليه السقّا. الطلاقة التي كانت تلازم وجهه دائمًا راحت، وتلك الأريحية في مُحَيّاه حل محلها توتّر غريب..

***

وضع قهوته على النار ثم أشعل الراديو..

قائمة طويلة من أسماء الوزراء والمأمورين الجدد كانت تُتلى باحترام، ثم بدأ تعداد أسماء النواب الجُدُد الذين انتُخبوا لمجلس النواب العمومي بأديس أبابا، وسمع إسم الناظر محمد ضمن الأسماء..

بعد ذلك تُليت أسماء مجلس الشيوخ الذي يتم اختيار أعضائه

بالتعيين وليس الانتخاب. كادت المفاجأة تسقط قهوته من يده على الأرض، سمع إسم فرج السقّا، من بين الأسماء التي تليت. وضع رأسه بين كفيه. ما عاد من مجال للشكّ. تيقّن الآن من أشياء كثيرة كانت تثير شكوكه.

فرج السقّا يرافق الناظر، نده اللدود، إلى قبة البرلمان بعد أن أوصلا الناس إلى حافة الحرب والاقتتال العبثي! أي رجلٍ هذا؟ بل أي رجالٍ هؤلاء؟

(7)

لما يقرب من أسبوع لم يخرج الأستاذ من غرفته إلا لضرورة. انقطع تمامًا عن أخبار الناس، فقط بعض الأخبار يسمعها من الراديو بين حين وآخر. تفرّغ لتدوين كل الأحداث السابقة التي عاشها، أو كان شاهدًا عليها. وضع في ذهنه مسارًا لتلك الأحداث، رَبْطها بما سبقها والأسباب التي أسّست لها منذ فترة الاستعمار وحتى ما قبله، وإظهار الطموحات والأطماع التي تحرّك الأشخاص الذين لعبوا أدوارًا رئيسية فيها. كان غارقًا لايعرف الليل من النهار. أمامه القهوة وعلبة السجائر والأوراق.

في نهاية أسبوع غيبته سمع طرقًا على الباب. وضع السيجارة على المنفضة وقام ليفتح الباب. كان محمود، وقد حلق لحيته، وقصّر شعره، وبدا نضِرًا منتعشاً.

رسم على وجهه ابتسامة، تلك الابتسامة القديمة التي يعرفها لمحمود.

- مضى أكثر من أسبوع ولم أرك في المقهى. انشغل بالي عليك!

- تعرف بيتي، ولماذا لم تأتِ لتطمئنّ عليّ؟ قالها اسماعيل متبسِّمًا هو الآخر.

- ها أنذا، جئت أطمئنّ عليك وأودّعك..

قالها وضحك.

مرة أخرى كانت ضحكة محمود القديمة. فقال اسماعيل وقد أحسّ بالمرح:

- إلى أين؟ ثم متى عدت لتغيب؟ هذا أوّل يوم أرى فيه محمود الذي أعرف!

- قررت أن أغادر ريثما أنسى، أو تنسى عجايب ما جرى.

- يا صديقي، مصيرك تنسى، ومصير عجايب تنشغل بشيءٍ آخر..

-لقد حسمت أمري سأغادر، وإن بقيت حيًّا، سأزوركم بين وقتٍ وآخر.

صمت قليلاً ثم أضاف:

لا تشغل بالك يا صديقي، لستُ ألوم أحدًا على شيء، فَلَا ترهق نفسك بالتفكير في أمري..

بعكس ما تخوّف منه اسماعيل، كان وجه محمود طافحاً بالهِمّة والفرح، وكأنّه مقبلٌ على أمرٍ عظيم، تلمع في عينيه رغبة غامضة، كلما تأملها الأستاذ ليفهم ما يجري ابتسم محمود في وجهه.

-يا صديقي، لقد واجهت أيّامًا صعبة جدًا. موت فاطمة بهذه الطريقة، ثم موت أمي جعلاني أقف طويلًا أمام الموت. لقد واجهته وما عدت أخاف منه...

أمسكه الأستاذ من كتفيه وقد زحمت حلقه غصة حشرجت صوته..

-لمَ تقول هذا الكلام الآن، إذهب أنّى شئت وعد إلينا بالسلامة، هذا كل ما نطلبه منك..

-لا أعرف يا إسماعيل ما الذي يمكن أن يحدث غداً أو بعد غد، لستُ مهتمّا على أي حال، موت فاطمة وموت أمي شكلا في ذهني قناعة جديدة لا أعرف كيف رسخت فيه، المهم أنني أدركت -رغم الخسارة والألم- أن أسوأ الأشياء في هذه الحياة تلك التي لا يكون فيها الموت معنىً مرادفًا لوجودها، لذلك قررت أن أذهب إلى الأماكن التي أراه ويراني فيها وجهاً لوجه، وحيث أرجو أن يكون لموتي معنى.

غضّ اسماعيل ولم يتكلّم.

-لو أن فاطمة بقيت حية وتزوّجت ذلك المأمور لرسخ في أذهان الأحفاد أنها سبب حريتهم الوحيد ولربما قدَّسوها أو عبَدوها مثل عجل بني إسرائيل، لكن موتها -رغم الألم العظيم- أزاح عن أعينهم تلك الغشاوة الزائفة وكشف أمامهم أن ما يطلبونه هو حقّهم في الحياة، وأنه لن يحدث إلّا إذا أرادوه وسَعَوا له كما ينبغي للأشياء العظيمة أن تطلب.

كان صوته الواضح قد بدأ يتقطع، تخالطه حشرجة مريرة مزّقته إلى خيوطٍ واهنة..

-وموت أمي أيضاً أزاح عني غشاوة أخرى. إذا كانت حياة أيٍّ منا لن تكتمل إلَا بحدوث أمرٍ ما دون غيره، فإنها ستنقص حين يحدث. لقد كانت أمّي تنتظر عودتي، ولو أني لم أعد لربما بقي كل شيء هنا مكتملاً بدوني. وهأنا الآن أغادر تلك الحياة وهي ناقصة من فاطمة

ومن أمي، ومني أيضًا. ما عاد يمكن لحياتي أن تكتمل هنا، لذلك أغادر. هل تفهمني؟

ثم أدخل محمود يده في جيبه وأخرج حزمة مفاتيح..

– هذا مفتاح بيتنا، كل ما فيه هو لك، إذا رغبت بالزواج فإن البيت لا تنقصه إلا العروس. أما أنا فقررتُ أن أتزوج قضيتي، قررت أن أعيش للثورة، لحلم الحرية الأكبر وأنا على قناعة أن هذا الحلم إن لم يتحقّق اليوم بسبب ما فيه من شوائب فهو سيتحقّق لاحقًا..

ثم عانقه طويلاً وبكى، وبكى الأستاذ أيضًا على كتفه، فهمس محمود..

– أعرف شغفك بتدوين كل شيء، وأرجو أن تكتبنا بأفضل مِمّا نأمل. الوداع يا صديقي.

***

بعد رحيل محمود بأقّل من أسبوعين جاء خليل يطرق طرقًا عنيفًا على باب اسماعيل، ليبلغه أن مجموعة من الثوار وصلت إلى عجايب. فخرج اسماعيل مسرعًا برفقة صديقه.

كانوا يجلسون وقد بدا عليم الإنهاك تَحت شجرة النيم العملاقة في قلب الساحة بأسلحتهم وأسمالهم الممزَّقة. خمسة عشرة أو أكثر قليلاً، هكذا قدَّر عددهم. كانوا ينظرون إلى الذين التفوا حولهم..

وقف أحدهم، لعله قائدهم، أشعث، نحيل، ناشف البشرة، كبير الأنف والفم وغليظ الصوت، يمسكُ جهازًا لاسلكيًا في يده اليسرى، ويرطنُ بين وقتٍ وآخر بلغةٍ لم يفهم الأستاذ منها كلمةً

واحدة. مسح وجهه من العرق والإنهاك بطرف ثوبٍ يلفه حول رقبته، ثم فتح عينيه الصغيرتين المحمرّتين ورفرفهما بصعوبة، كأنما خرج من عتمةٍ إلى نورٍ باهر، نظر فيهم ملياً ثم قال..

- هل يوجد بينكم من يتعاطى التمباك؟

أخرج أحدهم علبةً من جيبه وناولها له. عجن بعضًا منه في راحته ثم وضعه تحت شفته السفلية، وأدار لسانه حولها مستلذاً. ثم قال:

-تعرّضنا لهجوم مباغتٍ يوم أمس على مشارف مدينة أَفْعَبَتْ. خضنا هناك معركة ضارية فقدنا خلالها الكثير من رفاقنا. أحرق الكوماندوز قرًى كثيرة حول المدينة وانسحبنا ببقية القوات فجرًا إلى مكانٍ قريبٍ من هنا. نريد بعض الطعام والماء وما نضمّد به جراح رفاقنا المختبئين خلف الجبل..

تحرّك الشباب على الفور، وانقسموا إلى مجموعتين. مجموعة تجمع الطحين واللبن والسمن والمعيز والملابس.. ومجموعة تأتي ببعض الأربطة والأدوية من المشفى.

وصل العجوز أبو علي والحاج حامد وأبو بكر وأمامهم يقفز الدرويش سَريراي.. كما وصل أخوة فاطمة. وصار الحشد يتسع ويدور الهمس عن البلدات التي أُحرقت..

صرخ الدرويش سريراي:

-إذا كان الكوماندوز في مشارف أفْعَبَت، فسيبيتون ليلتهم هنا، أقسم لكم..

نظر إليه قائد الفصيل باستغراب:

- ماذا تقول أيها الدرويش؟

- أقول ما تسمع. إنهم الآن في إثركم. خذوا ما أمكنكم حمله وابتعدوا من هنا..

لم يتوانَ رفاقه، وراحوا يحملون ما أمكنهم من الماء والطعام، فيما ظلّ هو ساكنًا يلعق التمباك بلسانه، ويقلّب بصره بين الوجوه والأرض والأفق، يعطي انتباهًا صامتاً لذلك الجهاز الذي يلعلعُ في يده بين وقتٍ. أخيرًا بصق التمباك على الأرض، ثم مطّ شفتيه وانضم إلى رفاقه بخطواتٍ سريعة، واتجهوا إلى الجبل.

صرخ الحاج أبوبكر في أهل عجايب:

- إني أنذركم، الكوماندوز على مشارف عجايب وسيكونون هنا بحلول الظلام. من كانت له ناقة أو حمار أو جمل، فليحزم أمتعته وليغادر قبل مغيب الشمس، فإنكم والله على أعتاب مذبحة.

تعالت الهمهمات ودوّت صرخاتٌ قصيرة في الساحة، ثم جرى مَنْ جرى نحو داره أو مُراحه، إلا قلةٌ قليلة، منهم سالم أخو فاطمة.

- والله لن نفعل هذا، ولو أن الناظر محمد أو فرج السقّا، موجودان هنا لما سمحا لهذا أن يحدث..

أيّده آخرون، وعارضه أكثرهم، واختلفوا. لكن أغلب عجايب كانت قد حزمت أمرها تلك الساعة إلا قليلٌ منهم، فيهم إخوة فاطمة والعم أبو علي والدرويش سَريراي.

عجايب التي جمعت شعثها من كل مكان خلال سنواتٍ قليلة، وضجّت هنا في هذه الساحة ذاتها، فرحًا ورقصًا، وحزنًا وصراعًا، ها هي -أوتاد وأحفاد- تحزم أمتعتها وتشد رحالها على ظهور الإبل والحمير والدواب استعدادًا لرحلةٍ غامضةٍ في رحم الأيام، لا تعرف

إلى الآن مداها أو طعمها أو وحشتها، اللهمّ إلا وجهتها التي سار إليها سكان القرى التي حولهم، وكل من سبقهم في الطريق..

طوال النهار وقف الأستاذ يتأمل مشهد القيامة تحت وهج الشمس وفورة الغبار. يصرخ الحفيدُ في وجه أخيه من الأوتاد «أنْ هذه ناقتي خذها إذا لم تكفكَ راحلتُك» وذاك الوتد يحملُ إبنًا لذاك الحفيد ليسرجه مع أبنائه في راحلته، وهذه تسقي إبن تلك، وتلك تحزم متاع أختها..

ذاب في أرجاء الساحة كل ما حسب الناس أنه موجود، كل ما ظلوا يقتتلون من أجله قرون طوال. ذابت الأنساب والأحساب والأسماء والملامح ولم يعد هناك مَنْ يذكرها تحت سحائب الغبار والخوف، وراح عن البال كل ما كان يشغلهم حتى قبل شروق شمس هذا اليوم، البيوت والأرض والمواشي والمتاجر والجاه والحسب، كل ذلك سيتركونه خلفهم، ووجوههم إلى المجهول..

عند العصر كانت عجايب تسير قوافل في إثر بعضها، شمالاً في اتجاه البحر الأحمر ثم غربًا في الطريق إلى السودان. تدور قافلة حول التلة وتختفي، ثم تنهض قافلة أخرى لتتبع مسارها.. وهكذا حتى غادرت عجايبُ عجايبَها مع غياب آخر شعاعٍ لشمس ذلك اليوم، وبقي الأستاذ واقفًا وحده في وسط الساحة -يداه في جيبي بنطاله- يتأمل ما يجري، كأنه يشاهد شيئاً لم يكن يومًا حقيقة..

مع حلول الظلام غابت الحياة عن عجايب وتركتها ميتةً، مطفأة. ثم في قلب الصمت المظلم انطلقت في سماء عجايب قنابل ضوئية عملاقة أحالت ليلها نهارًا، وأزت الطائرات في سمائها من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال تقصف بلا هوادة، ثم

أعقبتها المدافع تطلق قذائفها على نحو عنيفٍ متصلٍ. أحكم اسماعيل إغلاق باب غرفته المظلمة عليه، وكأنه دخل قبرًا بإرادته..

بحث في العتمة عن مصباحه الصغير فأشعله، ثم بحث على ضوئه عن الراديو، لعله يؤنس وحشته، لعله يخفف على أذنيه وقع أصوات الموت تأتي مع أصوات المدافع والرصاص التي كانت تعلو وتضج في كل مكان وتقترب بالتدرّج..

أنصت بصعوبة لصوت الراديو الذي كان يذيع تغطيةً حية لحفل عشاءٍ يقيمه الإمبراطور هايلي سيلاسي في قصره في أديس أبابا لأعضاء البرلمان الجديد بغرفتيه، وكانت أسماء النواب الجدد تتلى في حضرته واحدًا بعد الآخر ثم يُدعى كل منهم ليُسلمَ عليه ويحظى بشرف تقبيل يديه، ثم يأخذ لقبه المعظَّم وكِسْواته الأمبراطورية السامية. سمع أسماءً كثيرة من بينها مَنْ كانت مواقفهم مع الثورة، كما سمع إسم الناظر محمد بن الناظر حسين زعيم الأوتاد، وسمع إسم فرج محمود السقّا زعيم الأحفاد، واسم عجايب التي ربما بعد ساعة أو ليلة لن تكون موجودة.

شعر بالغثيان، وبالحنق يشدّ روحه إلى حلقه، وبالغرفة المظلمة تدور به حوله، فاتجه ناحية الطاولة، جمع كل الأوراق التي وهبها جهدًا مضنيًا من التدوين والتدقيق خلال عام أو أكثر، مزّقها ثم نثرها على الأرض واستلقى إلى جوارها.

أشعل سيجارة وراح ينفثُ دخانها نحو السقف، ثم ضحك، ضحكة موتورة، تصاعدت حتى تحولت في ذروتها إلى بكاءٍ، لم يسمعه أحد..

إنتهى

بعض مراجع الأحداث التاريخية:

١ - أيام لاتنسى - من ذكريات المناضل محمد علي إدريس(أبو رجيلة) - سلسلة مقابلات على موقع أومال دوت أورغ - جبهة التحرير الإريترية.

٢- إريتريا، جزائر الساحل الإفريقي ١٩٦٧- الصحفي السوداني سيد أحمد خليفة.

٣- نـــاي عيني مسكّــر (شـــاهد عـيـان فى تاريخ الثّـورة الأرترية) قرمدهن زقرقيـــس - أغسـطس ١٩٩٧ ترجمة عبدالفتّـاح ودّ الخليفة - موقع قاش بركا دوت كوم.

حامد الناظر

نبوءة السقّا

منذ أن علمت فاطمة بأمر خطبتها من ذلك المأمور، شغلتها أسئلة حيّرتها:

- قل لي يا سالم، هل هو وسيم؟ أقصد هل هو أبيض وطويل القامة؟ هل هو شاب أم كهل؟ هل يملك قصرًا كبيرًا وخدمًا؟ قل لي ماذا تعرف عنه؟

كانت تمطره بالأسئلة، وتتحدث بلهفة. تشير بيدها في الهواء وتنظر إلى الأعلى بفرح، إلى نقطةٍ مرتفعةٍ في الفراغ، بطول قامةٍ افتراضية تخيلتها لخاطبها، وتضمّ فمها مثل طفلة.

نظر إليها بحنوّ:

- الرجال يتزوجون النساء لجمالهنّ يا فاطمة، لكنّ العكس ليس ضروريًا.

قاطعت فاطمة حديثه وتساءلت بفزَع: - هل تقصد أنه ليس وسيمًا؟

- ليس تمامًا، الرجل مثله مثل معظم الرجال في البلد، لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح. لكنه مسؤول كبير في الحكومة، هل تعرفين معنى ذلك؟

نظرت إليه وقد أصابها إحباط، فتابع:

- معنى ذلك أن له منصبًا وهيبةً ومالًا ونفوذًا. وسامة الرجال تقاس بمثل هذه الأمور..

* * *

عادا إلى جلستهما، مسح السقا على وجهه ثم ابتسم في وجه الأستاذ ابتسامة ودودة..

- أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أننا نفعل ما نفعل من أجل أن نعيد الحياة إلى التاريخ، فتلك حماقة ولا شك. ولأكون صريحًا معك، لستُ أؤمن بالخرافة وإن كان أمر زواج فاطمة قد فتح أبوابًا كثيرة للخرافات عن الأضحية التي ستنقذ شعبًا. فعندما بدأنا هذا المسعى كانت فاطمة لم تولد بعد، ولكنها أثمرت ونضجت في وقت القطاف.

حامد الناظر كاتب من السودان مقيم بالدوحة، حازت روايته "فريج المُرر" على جائزة الشارقة للإبداع العربي وجائزة فودافون قطر في العام 2014.

تصميم الغلاف: حاج طاهر

ISBN 978-9938-886-67-2

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس